المركز الوطني للدراسات والبحث

في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

دور الطرق الصّوفية في المقاومة الشعبية خلال القرن 19

سلسلة المشاريع الوطنية للبحث

المركز الوطني للدراسات والبحث

في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

دور الطرق الصّوفية في المقاومة الشعبية خلال القرن 19

رئيس المشروع

أ.د. محمد بن معمر

الأعضاء

د. أحمد بحري

د. عبد الغفار بن نعمية

سلسلة المشاريع الوطنية للبحث

تصدير بقلم معالي الوزير

السيد الطيب زيتوني

إنّه لمن دواعي الفخر والاعتزاز، أن أدبّج هذه السلسلة الجديدة من المشاريع الوطنية للبحث، ضمن منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، والتي تميّزت كسابقاتها بمادة علمية قيّمة ودراسات فكرية مفيدة وأبحاث رصينة ستساهم في إثراء المكتبة الوطنية، وتفتح آفاق أرحب في مسعى الإحاطة بالتاريخ الوطني.

إنّ مسألة كتابة التاريخ الوطني ستظل تحتل حيزا متزايدا من اهتمام الدولة، وقد أصبحت منذ سنوات عديدة على رأس الأولويات التي تخصّها ببرامج مختلفة وبتسخير كافة الإمكانيات والظروف لتوثيق المعارف التاريخية وتنويع أوعية نقلها ضمانا للتواصل بين الأجيال لصون وديعة الشهداء الأبرار وحفظ أمانتهم.

وفي هذا الإطار، ووعياً بالأهمية الحيوية التي يكتسيها التاريخ في حياة الأمم والشعوب، باشرت وزارة المجاهدين بتعليمات سامية من فخامة رئيس الجمهورية، المجاهد عبد العزيز بوتفليقة، تشجيع الباحثين

والمؤرخين والأساتذة الجامعيين للقيام بدراسات وأبحاث حول تاريخ المقاومة والحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، ومنها الدراسات التي تدخل ضمن إطار سلسلة المشاريع الوطنية للبحث.

وباعتبار أن كتابة تاريخنا الوطني يجب أن تكون مواكبة معنى ومبنى لنضالات الشعب الجزائري وتضحياته الجسام في سبيل الحرية والانعتاق، وهي مهمّة حسّاسة تنطوي على أبعاد استراتيجية وسيادية تهدف إلى تنقية الكتابات التاريخية من رواسب المدرسة الكولونيالية ومضامينها المشوهة، فكتابة التاريخ كما قال فخامة رئيس الجمهورية المجاهد عبد العزيز بوتفليقة "أمر جاد.. وذلك لأهميته فلابد أن تُتعهّدَ هذه الكتابة بما تستلزم من جدّ وخبرة علمية حتى يصبح لنا تاريخ لا غبار عليه، يضيء طريقنا نحو المستقبل، ويذكّرنا دائما بماضينا لكي نستخلص منه العبر والدروس فننتقي الصالح والمفيد".

إنّ نشر المعرفة التاريخية رسالة عظيمة وغاية نبيلة أنيطت بمؤسسة المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، رسالة تتطلب تظافر جهود الجميع من وصاية وإدارة المؤسسة وباحثين وأساتذة مختصين لبلوغ المرام وهي جهود في الحقيقة نراها تتعزّز وتتجسد من يوم لآخر من خلال إصدار هذه السلسلة الجديدة من المشاريع الوطنية للبحث التي تناولت في طياتها قضايا

تاريخية عديدة تمّت معالجتها من طرف باحثين من مختلف جامعات الوطن يُشهد لهم بالكفاءة والتقيّد الصارم بالمنهجية العلمية التي حرصنا لأن تكون هي مرتكز هذه الأعمال لإفادة أجيالنا بالمعرفة التاريخية الحقيقية حول رصيد أمتّها ومآثر شعبها الذي زكّى تاريخه بتضحيات عظيمة في الأنفس والنفائس.

وبمناسبة صدور هذه السلسلة الجديدة من المشاريع الوطنية للبحث، لا يسعني إلاّ أن أثمن كلّ المبادرات والمجهودات التي تقوم بها وزارة التعليم العالي والبحث العلمي لمرافقتنا في مواصلة إنجاز البحوث والدراسات حول تاريخنا الوطني، بما من شأنه تعميق الشعور بالاعتزاز بركائز هويتنا الوطنية وتحصينها، والشكر موصول إلى كل الباحثين والمؤرخين الذين ساهموا في هذه المشاريع وأثني على جهودهم الهادفة لتدوين وتوثيق إسهامات الشعب الجزائري عبر التاريخ وتدوين مورثنا التاريخي والثقافي.

وفقنا الله جميعا لما فيه خير الجزائر وعزّتها وكرامتها.

وزير الـمجاهدين الطيب زيتوني

تقديم بقلم مدير المركز

التاريخ هو الأمم وحضارتها والشعوب وثقافتها، وهو أيضا معرفة الماضي لتقويم الحاضر وبتقويم الحاضر نبني المستقبل.

بهذه الرؤى والمعنى السامي للتاريخ دأب المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 منذ تأسيسه على إيلاء الأولوية الكاملة لمشروع الحفاظ على الذاكرة الوطنية ضمن استراتيجية متكاملة تعمل في آن واحد على استغلال الأوعية والوسائل التكنولوجية في عملية الحفاظ والتبليغ للذاكرة التاريخية وفي نفس الوقت استغلال المادة الخام والوثائق الأرشيفية كانت أو شهادات حيّة في تدوين التاريخ الوطني بمنهجية علمية أكاديمية لاسيما ما تعلق بالمقاومة الشعبية والحركة الوطنية وثورة التحرير المظفرة.

في هذا السياق يتشرّف المركز الوطني بإصدار المجموعة الثانية من مشاريع البحث المنجزة في إطار البرنامج الوطني للبحث العلمي، والتي كان له شرف تأطيرها والسهر على إنجازها.

وإذا كان المركز يصبو من خلال إصدار هذه السلسلة العلمية إثراء المكتبة التاريخية وبث الوعي الوطني بترسيخ قيم أول نوفمبر في

وجدان أبناء الوطن ليعتزوا بماضيهم المجيد، فإنه يسعى أيضا إلى تحفيز الأساتذة الجامعيين والباحثين الجزائريين وتدعيمهم من أجل سبر أغوار تاريخنا الوطني وإعادة صياغته بمنهجية علمية وموضوعية تتماشى والرؤى الفكرية الحديثة.

وبهذه المناسبة، لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى **معالي وزير المجاهدين السيد الطيب زيتوني** على رعايته الكريمة لهذا المشروع وكذا وزارة التعليم العالي والبحث العلمي والأساتذة الباحثين على ما قدموه من مجهودات جبارة من أجل إنجاح هذا المشروع العلمي الوطني.

أ. جـمال الـديــن ميـعادي

المقدّمة

ليس الغرض من هذا العمل البحث في تفاصيل الطرق الصوفية وتناول أصولها وفروعها، ومبادئها ومصطلحاتها، وتطورها الاجتماعي والمعنوي، ومواردها وعلاقتها بزبائنها وأتباعها وغيرها من الطقوس، ولكن البحث سوف يركز على علاقة الطرق الصوفية بالمقاومة الشعبية للاحتلال الفرنسي في الجزائر خلال القرن 19 م، لأنّها من القضايا التي ما تزال في حاجة إلى المعالجة والتنقيب.

لقد كان طبيعيا أن يتنادى الجزائريون من أجل المقاومة ومواجهة الاحتلال الفرنسي بدافع التجاوب الوطني وروح المسؤولية الدينية والسياسية، ولكن سرعان ما تخاذلت السلطة الزمنية على يد الزعماء العثمانيين من أمثال الدّاي حسين، وحسن بن موسى باي وهران، ومصطفى، فقامت الطرق الصوفية تدعو إلى الجهاد والمقاومة. والجدير بالملاحظة أن الطرق الصوفية في الجزائر كانت تضعف أمام قوة السلطة الزمنية الدنيوية وتقوى أمام ضعف هذه السلطة سيما إذا عجزت عن حماية الدين إذا داهمه الخطر، فسرعان ما يتحول المرابطون إلى أمراء يقودون الجيش ويحاربون العدو، ولكنهم إذا اطمأنوا على الدين تفرغوا للتعليم والعبادة وتكثير الأتباع في زواياهم. كما أنها كانت تنتعش ويزداد تأثيرها وينمو نشاطها في ظل العدوان الخارجي الساعي إلى محاولة طمس معالم الشخصية الوطنية ومحاربة مقومات الأمة سيما الدّين واللغة والشرف واغتصاب الأرض وتدنيس المقدّسات.

فقد تعاونت معظم الطرق الصوفية على صدّ المستعمر وطرده من قادرية وطيبية ورحمانية ودرقاوية وسنوسية، ورمى زعماؤها عمامة التصوف

ولبسوا خوذة الحرب، بل إنّ معظم قادة المقاومة الشعبية المسلحة في القرن 19 كانوا من أبناء الزوايا والطرق الصوفية وفي مقدّمتهم الأمير عبد القادر الذي بايعته القادرية أميرا للمؤمنين، كما تحالفت معه الرّحمانية وبعد هزيمته تولت المقاومة والجهاد في زواوة وغيرها من المناطق. وكان الشريف بومعزة بطل ثورة منطقتي الشلف والونشريس من أتباع الطريقة الطيبية، والشيخ بوعمامة من أنصار الشيخية، وابن ناصر بن شهرة من أبناء القادرية، والشريف بن عبد الله من زعماء السنوسية، والشريف بوشوشة ممّن تعاون مع الرحمانية وغيرهم كثير.

إنّ عدد الطرق الصوفية الفاعلة في الجزائر خلال القرن 19 قد بلغ أكثر من ستة وعشرين طريقة، القليل منها تأسّس في العهد الاستعماري كالسنوسية والعليوية والباقي كان موجودا منذ العهد العثماني. وهذه الطرق هي التي واجهت الاحتلال الفرنسي، وكان عليها أن تتولى هي الجهاد دفاعا عن الإسلام والأرض والعرض بعد استسلام السلطة المركزية وهزيمة الجيش الرّسمي. وقد بقي الفرنسيون مدة تزيد على خمس عشرة سنة منذ دخولهم الجزائر وهم لا يدركون أهمية دور هذه الطرق ولا أسرارها إلى أن أدركوا خطورتها فتصدّوا لها لأنّهم اعتبروها عدوهم الذي لا يقهر.

ومن أجل القضاء على الثورات الشعبية والتحكم في سير المجتمع الجزائري قام الفرنسيون بمواجهة هذه الطرق والتصدّي لها مستعملين في ذلك طرق وأساليب متعددة لتشتيت صفوفها وتمزيق وحدتها والكشف عن أسرارها، سيما وأنّ بعض الذين وهنت عزائمهم وضعفت نفوسهم أمام ألوان الترهيب والترغيب التي مارسها الاحتلال عليهم قد سقطوا في شراكه فغدوا من خدّامه ومن

مبرّري أفعاله الشنيعة ضد الأمة وتراثها. كما نجحت الدوائر الاستعمارية من علماء اجتماع وغيرهم في تأسيس بعض الطرق المستقلة والتحالف مع أخرى كانت قائمة، ومنحوا شيوخها سلطات روحية واسعة مقابل أن يكونوا أداة طيعة في يدها قائمين على تنفيذ مخططاتها وتحقيق مشاريعها الاستيطانية فارتمت فئات كثيرة من الجماهير في أحضان الطرق الصوفية المغشوشة عن جهل وطمع.

لذلك فإنّ الإشكالية التي يطرحها هذا العمل تتمثل في معالجة غياب السلطة المركزية وهزيمة الجيش الرّسمي عند دخول المحتل وكيف ملأت الطرق الصوفية هذا الفراغ لمقاومته، ثم التمييز بين صنفين من الطرق الصوفية: الصنف الأول الذي قاوم المحتل وظل وفيا لنهج المقاومة إلى أن استنفذ كل جهوده، وما هي الدوافع والأسباب التي جعلته يختار هذا النهج، وما هي الأساليب والوسائل التي استعملها في المقاومة والنتائج التي حققها. والصنف الثاني الذي ارتمى في أحضان المستعمر وتحالف معه والأسباب التي دفعته إلى التعامل معه، وكيف كانت العلاقة بين هذين الصنفين سيما وأنها كانت متناقضة في الأهداف والغايات.

من المعروف أنّ الطرق الصوفية والزوايا أصبحت اليوم ذات أبعاد عالمية نظرا لاتساع تواجدها وانتشار نشاطها، واستحكام نفوذها المعنوي والتربوي والديني والاجتماعي، لذلك فمن الأهداف العلمية لهذا العمل تقديم رؤية واضحة عن الدور الايجابي الذي قامت به مؤسسة الزاوية بقيادة الطرق الصوفية خلال فترة حساسة وهامة من تاريخ الجزائر وهي فترة الاحتلال الفرنسي في وقت غابت فيه المؤسسة الرسمية الحاكمة. ولعله من المفيد التذكير بأنّ الحملة الفرنسية ضد الجزائر قد قررها شارل العاشر اليسوعي المتحمس وباركها البابا وأيدتها الكنيسة

في فرنسا ممّا أعطى للغزو الفرنسي طابعا صليبيا واضحا، ثم إنّ القوانين الاستثنائية التي أصدرتها السلطات الاستعمارية بشأن الجزائريين كانت كلها تقوم على الروح الصليبية.

فجاء ردّ فعل الجزائريين من جنس العمل أي أنّ المقاومة التي أعلنوها في المدن والأرياف كانت دينية بالأساس، وقد تولى قيادتها زعماء حركة الجهاد الذين كانوا ينبثقون من المعاقل الدينية المنتشرة عبر الوطن ونعني بها الزوايا والمعاهد الاسلامية التي كانت تشرف عليها الطرق الصوفية وما قامت به هذه الطرق من دور عدائي مزدوج ضد الاستعمار، وذلك من خلال المحافظة على الوحدة الوطنية والدعوة إلى الجهاد.

وإلى جانب الدور الايجابي الذي لعبته الطرق الصوفية في المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي كانت تقوم بأدوار تربوية واجتماعية وخيرية وتعليمية ولعلها الأدوار التي قامت من أجلها مؤسسة الزاوية، وعليه فمن أهداف هذا المشروع تسليط الضوء على نجاح الطرق الصوفية في التوفيق بين ما قامت من أجله وبين ما اعتبرته واجبا دينيا وضرورة وطنية ملحة فرضها الغزو الفرنسي.

هذا ولم تكن كل الطرق الصوفية في خندق واحد في مواجهتها للاحتلال الفرنسي ولكنها كانت متفاوتة من حيث القدرة على تجنيد الأتباع والفاعلية في المقاومة بل إنّ البعض منها وقف موقفا سلبيا وتحالف مع المحتل وتعاون معه، لذلك فإننا نهدف إلى إنصاف الطرق ذات الأدوار الايجابية في المقاومة والأخرى التي نحت المنحى السلبي والأسباب والدوافع التي كانت وراء ذلك وغيرها من الأهداف العلمية والاجتماعية.

لقد حظي موضوع الطرق الصوفية في الجزائر خلال القرن 19 باهتمام الفرنسيين أكثر من غيرهم، فكتب فيه علماء الاجتماع، وعلماء النفس والأديان واللغات، والضباط العسكريون، والمترجمون وغيرهم، خصوصا بعد أن أدركت الإدارة الاستعمارية خطورة هذه الطرق وعلاقتها بالمقاومة الشعبية ودعوتها للجهاد ضد المحتل، فتجنّدت أقلامها تكتب في الموضوع لفهم أسرار هذه الطرق وكيفية القضاء عليها أو تدجينها وجعلها تتحالف معها.

ولعل أول من كتب في الموضوع هو الضابط الفرنسي دي نوفو وهو من كبار المسؤولين في الشؤون الأهلية ومن المنتمين للحركة السانسيمونية، صاحب كتاب "الإخوان" الذي تناول فيه دور الطرق الصوفية والمرابطين في التاريخ والثورات وقد نشره سنة 1846. ولعله استقى معلوماته من زوجته الجزائرية المسلمة، ومن دوره في المكاتب العربية، ومن بعض أصدقائه الجزائريين. وبعنوان "الإخوان" أيضا وضع بروسلار كتابه الذي نشره سنة 1862، وهو من المهتمين بمدينة تلمسان التي تحدث عن حياتها الدينية وآثارها.

وفي سنة 1864 نشر هنري دوفيرييه كتابه "طوارق الشمال" الذي كشف فيه عن أهمية الطرق الصوفية بالصحراء ودورها سيما التيجانية والسنوسية. وله كتاب آخر حول الطريقة السنوسية ومؤسسها الشيخ السنوسي المنشور سنة 1886.

ومن المهتمين بالطرق الصوفية السيد لويس رين الخبير في الشؤون الجزائرية مدة طويلة والمؤلف لعدّة أعمال حول الجزائر، وقد عمل سنوات مستشارا للحكومة العامة، وهو صاحب كتاب "مرابطون وإخوان" المنشور سنة 1884، وهو من الأعمال الجديرة بالاهتمام لما يحتويه من تفاصيل في غاية الأهمية

وإحصاءات دقيقة عن الطرق الصوفية في الجزائر وعلاقتها بالمقاومة الشعبية. وله أيضا كتاب "ثورة 1871 في الجزائر" المنشور سنة 1891، وقد انطلقت هذه الثورة بقيادة المقراني والحداد في الشمال وكان من ورائها الإخوان الرّحمانيون الذين انضم إليهم ابن ناصر بن شهرة والشريف بوشوشة من الجنوب.

وفي سنة 1887 صدر كتاب "الطرق الاسلامية في الحجاز" وهو من تأليف الضابط الفرنسي لوشاتلييه الذي كان من ضباط المكاتب العربية في ورقلة ومؤسس مجلة العالم الإسلامي، وقد ربط في هذا الكتاب بين بعض الطرق في الحجاز والجزائر. كما تناول هانوتو ولوتورنو موضوع الطرق الصوفية في ثلاثة فصول من كتابهما "بلاد القبائل والعادات القبائلية" المنشور سنة 1893.

وفي أواخر القرن التاسع عشر وتحديدا في سنة 1897 صدر كتاب ضخم عن الطرق الصوفية بعنوان "الطرق الدينية الاسلامية" من تأليف الكاتبين الفرنسيين أوكتاف ديبون واكسافييه كوبولاني، وهما من المختصين في شؤون الجزائر إذ كان الأول إداريا رئيسيا للبلدية المختلطة والثاني نائبا له، وقد أشارا في مقدمة كتابهما إلى الدراسات والكتابات التي ذكرناها قبل قليل حول الموضوع وكيف استفادا منها معرفيا، كما نوّها بجهود الشيخ الحفناوي صاحب كتاب تعريف الخلف الذي خصّاه بالشكر من علماء الجزائر لأنّه وضع نفسه تحت تصرّفهما أثناء تأليف كتابهما وأنّه صحح بمعارفه الغزيرة ترجماتهما في موضوع الطرق الصوفية.

أما الكتابات العربية حول الموضوع خلال القرن 19 فهي قليلة نذكر منها كتاب "أوضح الدلائل في إصلاح الزوايا ببلاد القبائل" المنشور سنة 1903 بالجزائر

لمؤلفه محمد السعيد بن زكري، وهذا التأليف يدخل في نقد الأوضاع الاجتماعية والتعليمية عندئذ، فقد كانت بلاد زواوة كثيرة الزوايا وكانت تقاوم التدخل الفرنسي في شؤونها، وفحوى الكتاب هو التقريب بين الزواويين والفرنسيين بعد أن حدث بينهم ما حدث أثناء ثورة 1871. ومنها تعليقات أمير البيان شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الإسلامي التي تناول فيها قضايا الجزائر آنذاك. ومن الباحثين المعاصرين أبو القاسم سعد الله الذي خصّص حيّزا هاما للموضوع في كتاباته ودراساته المختلفة ومنها الحركة الوطنية، وأبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، وتاريخ الجزائر الثقافي وغيرها.

إن المنهج العلمي المتبع في إعداد هذا المشروع يقوم أساسا على التحليل والتعليل والترجيح والاستنتاج، ويحاول تفسير الأحداث ويناقشها وفق رؤية علمية نزيهة، لأنّ علم التاريخ يرفض تماما أن نورد الأحداث معلّقة دون تحليلها وإسنادها وتبريرها. وسوف نركّز على التعامل المباشر مع النصوص المستقاة من المصادر المتعلقة بالموضوع، ونحاول قدر المستطاع استقراءها وتحليلها وتوظيفها آخذين بعين الاعتبار طبيعة الموضوع وواقع وبيئة الفترة المدروسة.

ثم إنّ طبيعة الموضوع تفرض علينا عدم التسليم بكل ما جاء في المصادر الفرنسية، كونها أكثر المصادر اهتماما بالموضوع، سيما وأنها جاءت في الأساس لتخدم المصالح الاستعمارية التي كان هدفها الأول القضاء على المقاومة الشعبية ومن كان وراءها وعلى رأسها الطرق الصوفية، لذلك فهذه الكتابات غالبا ما يشوبها التحريف والتحليل المغرض والتجني على بعض الحقائق، ولمواجهة هذه

الكتابات ذات الخلفية الإيديولوجية والأغراض الاستعمارية لا بدّ من توخي الحذر ومقارعتها بالرّأي الآخر والتسلح بالرّؤية الوطنية.

كما أن بعض المسائل الخلافية التي سترد في ثنايا البحث سواء على مستوى المصادر أو الأبحاث، تقتضي منّا عدم الاكتفاء برأي دون آخر أو مصادرتها كلها لصالح رأي واحد، بل سنستعرض بنزاهة كل الآراء مع المناقشة لترجيح أقواها في نهاية الأمر. ثم إن بعض المواقف الصادرة عن الشخصيات التي سترد في الموضوع تجعلنا نبحث عن الدوافع والذرائع التي كانت وراء تلك المواقف، والملاحظ أن البحث في مجال البواعث الشخصية من سياسية واقتصادية ونفسية من أصعب مجالات البحث، لأن البواعث الشخصية غالبا ما تكون خبئا في الصدور والقلوب. وعلى العموم فإن المنهج الذي سيطبق في هذا العمل هو المنهج المتعدد الاختصاصات الذي يتعامل مع كل قضية وما يناسبها من أشكال البحث والتحليل، ومع ما تقتضيه طبيعته الموضوعية قدر المستطاع.

أما عن الخطة التي انبنى عليها العمل فقد احتوت على مدخل وخمسة عناوين رئيسية، تمّ تخصيص العنوان الأول للطريقة السنوسية والمقاومة الشعبية وقد عالج العناصر التالية: مؤسس الطريقة، البعد الثوري لدى الطريقة السنوسية، ثورة الشريف محمد بن عبد الله، ثورة الشريف بوشوشة. وجاء الحديث في العنوان الثاني عن الطريقة الرحمانية من خلال العناصر التالية: مؤسسها وانتشارها، الرحمانية وثورات بلاد القبائل، ثم الثورة في الجنوب الجزائري، وكذلك الثورة في منطقة الأوراس.

وأما العنوان الرئيسي الثالث فقد تناول الطريقة القادرية وذلك بالحديث عن تعريف الطريقة القادرية، وظهورها في الجزائر، وأبرز ثوراتها التي كانت ورائها. ثم العنوان الرابع المتعلق بالطريقة الشيخية، والعنوان الخامس والأخير الخاص بالطريقة الطيبية.

الطريقة السنوسية

الطريقة السنوسية

هناك الكثير من الكتابات عن السنوسية في ميدان السياسة ومجال الإصلاح وكذلك في الدين والدولة هذا فضلا عن أصولها وتعاليمها وزواياها وانتشارها وعلاقاتها مع العلماء والحكام المسلمين والدول الأجنبية مثل بريطانيا وفرنسا وايطاليا، ولكن الذي يعنينا منها في هذا المقام علاقتها بالوضع في الجزائر ودورها في مقاومة القرن 19 م.

مؤسس الطريقة:

مؤسسها هو أبو عبد الله محمد بن علي السنوسي المولود صبيحة يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة 1202 هـ الموافق لسنة 1787م في ضواحي مستغانم، جده سيدي عبد الله شريف منحدر من أحد الأشراف الذين حلوا بالمنطقة في القرن الثاني عشر الهجري، فهو خطابي حسني إدريسي مجاهري، من قبيلة أولاد سيدي يوسف، عرش أولاد سيدي عبد الله بن الخطاب المجاهري[1].

جمع قسطا وفيرا من العلم والقراءة في منطقته، حيث تتلمذ لعلماء مستغانم ومازونة ومنهم محي الدين بن شهلة، ومحمد بلقندوز المستغانمي، وبوراس المعسكري، وبوطالب المازوني، ومحمد بن التهامي البوعلقي، وابن أبي زوينه، ومحمد بن عبد القادر، وغيرهم. وبعد ذلك رحل إلى مدينة تلمسان وأقام بها حوالي سنة تتلمذ خلالها على كبار شيوخها.

---

(1) – عبد القادر بن علي، الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية. دمشق: مطبعة دار الجزائر العربية، 1966، ج. 1، ص. 8.

وكانت المرحلة الثانية في طلب العلم خارج الجزائر التي غادرها متوجها إلى مدينة فاس حيث بقي سبع سنوات، وتتلمذ فيها على شيوخ القرويين أمثال حمدون بن الحاج، ومحمد بن عامر المعداني ومحمد بن أبي بكر اليازغي، والطيب بن هداج، والتاودي بن سوده، وعبد الرحمن بن إدريس العراقي الحسني ومحمد العربي الدرقاوي وغيرهم. وقد ساعدته الظروف أثناء إقامته بفاس على التعمق في دراسة الصوفية لأن هذه المدينة كانت مركزا مهمّا للطرق الصوفية وميدانا خصبا لنشاطها.

وفي سنة 1819 غادر السنوسي المغرب الأقصى معلنا نية الحج، لأن حكومة السلطان مولاي سليمان تنبهت لدعوته وتلمست الخطر من جانبها وخشيت أن تنقلب دعوته الدينية إلى أخرى سياسية قد تعصف بالسلطنة فشددت في مراقبته، فوجد ألا فائدة ترجى من بقائه في فاس وقرر الارتحال[1].

وقد سلك طريق الصحراء كما فعل الدرعي والعياشي قبله حيث رحل عبر التلول والمدن الداخلية وكان يتوقف عند مشايخ الطرق الصوفية كما فعل مع شيخ القنادسة وشيخ كرزاز. ثم حل بالأغواط ودرّس بها الفقه والنحو، ونزل عين ماضي وجبل العمور وأخذ ذكر الطريقة التجانية. ودخل الجلفة ثم بوسعادة وكان ذلك في صيف سنة 1830 حين كانت الحملة الفرنسية تنزل في الجزائر. ومر

(1)– محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة. دار الفكر، 1948، ص. 14.

بتماسين حيث شيخ الزاوية التيجانية الحاج علي ومنها إلى وادي سوف ثم الجريد التونسي فطرابلس وبرقة ثم مصر[1].

وكان لرحلته في الجنوب الجزائري أثر كبير في نضوج شخصيته وإعدادها، فقد كانت تلك البوادي على سكونها وهدوئها تضطرب بألوان من الحركات الدينية والأعمال التجارية، وكانت الزوايا الدينية التي يقوم عليها أصحاب الطرق الصوفية هي أهم مراكز هذه الحركات، وكانت تقع في الغالب على طرق التجارة التي تربط السودان بالشمال حيث يلتقي رجال القوافل ويتبادلون الأحاديث المختلفة عن البلاد التي جاءوا منها أو مرّوا بها وبالتالي كانت تلك الزوايا محلا ثريا بالمعلومات وأخبار الشعوب الإسلامية. وقد استفاد من هذه التجربة التي جعلته يركز في مستقبله على دعوة البادية لما رأى في أهلها من صفاء الفطرة وحب التدين والبعد عن الفساد والتعقيدات الاجتماعية وسيطرة الأهواء السياسية كما لاحظ ذلك في المدن التي عاش فيها.

أقام مدة في مصر، وقرأ بالأزهر وأخذ الإجازات العلمية وأذكار الطرق الصوفية وممن أجازه بمصر الأمير الصغير، والنور القويسني، والشمس الفضالي، وحسن العطار، والبدر الميلي، والمعمر الضرير، والنور علي النجاري والشهاب الصاوي وغيرهم، ونظرا لما كان يتمتع به السنوسي من استقلال فكري ونزوع إلى الاجتهاد فإنه تحفظ من بعض علماء مصر وتحفظوا منه. ويقول ديبون وكوبولاني إن علماء الأزهر قد هاجموا السنوسي لآرائه وتزمته واعتبروه مصلحا دينيا، حيث

(1)- أحمد الدجاني، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن 19. بيروت: دار لبنان، 1967. ص. 57.

أفاضا في الحديث عن الفتوى التي كان قد أصدرها الشيخ محمد عليش ضد الشيخ أحمد بن إدريس الفاسي شيخ السنوسي في مكة ثم صدرت في حق السنوسي نفسه بعد وفاته[1]. فكان ذلك من الأسباب التي جعلته يغادر مصر إلى مكة المكرمة. وقبل ذهابه إلى مكة كان السنوسي قد أخذ مجموعة من الطرق في المغرب الأقصى والجزائر ومنها القادرية والشاذلية والتجانية والزيانية والكرزازية والدرقاوية والرحمانية[2].

وفي مكة تتلمذ على الشيخ عبد الحفيظ بن محمد العجمي، وعمر بن عبد الرسول العطار المكي. ولكن عمدته في التصوف الذي أخذ عنه طريقة القول وروى عنه هو العارف الكبير المحدث الأثري الشهير الشيخ أبي العباس أحمد بن إدريس الفاسي شيخ الطريقة الخضرية الذي ارتبط به السنوسي أشد الارتباط وكان يتبعه في حله وترحاله وأشاد به في مؤلفاته. ولكن شيخه الفاسي ما لبث أن توفي سنة 1835.

أسس السنوسي زاوية بمكة المكرمة في جبل أبي قبيس المطل على الكعبة، وأخذ ينشر طريقته الجديدة، وقد ساعده على ذلك قوة شخصيته وغزارة علمه واستقلاله في الرأي وابتعاده على الحكام والسياسة، فاستقطب العلماء المستقلين أمثاله فدعموا زاويته وتقوت بهم طريقته، ولكن الواجب الوطني كان يحتم عليه

---

(1) – Depont (O) et Coppolani (X). Les confréries religieuses musulmanes. Alger, 1897, P. 546.

(2)– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998. ج. 4، ص. 250.

القيام بمهمة الدعوة والجهاد ومكافحة النفوذ الأجنبي خارج مكة أي في الجزائر التي كانت ترضخ تحت نير الاستعمار.

لقد نظر السنوسي خلال هذه الفترة إلى موجة جديدة من الحروب الصليبية قد بدأت بالجزائر وستمضي في طريقها فلا يقف أمامها شيء لذلك كانت فكرته ترمي إلى عمل جامع من أعمال المقاومة والمواجهة لهذا الغزو الغربي الزاحف، وكان تطلعه ودراسته تحاول أن توجد عملا جماعيا كاملا تشترك فيه الأمة الإسلامية جميعا وهذا ما تلخصه كلمته التي جاء فيها قوله:

"أفكر في العالم الإسلامي، فبالرغم من سلاطينه وأمرائه ورؤسائه وعلمائه فهم لا يزيدون عن أن يكونوا كقطيع من الغنم الذي لا راعي له، وفي كل محل من محلات الإسلام تجد المسلمين وعلماء الدين ولكنك لا تجد في العالم الإسلامي مرشدا حقيقيا تكون غايته سوق الجميع إلى هدف واحد. إن ديننا الحنيف دين توحيد أسس على الاتحاد، ولكن الخلاف والتفريق قد ساد جميع النواحي، لأن العلماء والمشايخ ليست لهم غيرة دينية حتى ينشروا العلوم والمعارف. أنظروا إلى أحوال السودان والصحراء تجدوا أفواجا من الشعوب يعبدون الأوثان، ويوجد في كل مسجد من مساجد المعمورة جماعة من العلماء غير العاملين لا همّ لهم غير راحة أجسادهم حريصين على لذاتهم غير قائمين بواجباتهم لا ضمائر لهم تؤنبهم على إهمالهم إرشاد هؤلاء المساكين، وقد اتصل بنا خبر أحوال العالم الإسلامي من القوافل التي ترد إلى بلادنا إننا مغلوبون في كل محل وإن المقاطعات والخطط

المعمورة تذهب من أيدي المسلمين في كل وقت وبسرعة البرق. فالإسلام في حالة من التدهور المخيف وهو ما فكرت فيه"[1].

يتضح من هذه الكلمة الأصول الأساسية الخمسة التي تتضمنها الدعوة السنوسية وهي العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى وتوحيد المذاهب وفتح باب الاجتهاد ونشر الإسلام ومقاومة النفوذ الأجنبي. ولم تكن جهود السنوسي مجرد أعمال وإصلاحات فردية ماتت بموت صاحبها بل جاء عمله على شكل حركة منظمة ودعوة واضحة وطريقة متميزة، ولم تكن هذه الحركة ذات مفهوم إقليمي ضيق بل كانت حركة شاملة ذات بعد وحدوي. وكانت رد فعل للتحدي الضخم الذي واجه العالم الإسلامي باحتلال الجزائر في معركة غير متكافئة انتهت بسقوطها في براثين الاستعمار الفرنسي.

ولمّا حلت كارثة الحملة الفرنسية بالجزائر كان عمره يومها قد جاوز الأربعين فهزه هذا الحادث الجلل هزا عنيفا ودفعه إلى التفكير والعمل من أجل تحرير الوطن الإسلامي كله تحريرا قائما على أساس مفاهيم إسلامية.

ومن أجل تحقيق ذلك بدأ عمله الجاد لمّا أسس زاويته الأولى سنة 1842م وهي الزاوية البيضاء بالجبل الأخضر بليبيا وهي أهم الزوايا السنوسية على الإطلاق باعتبارها الأم والمكان الذي انبثقت منه تعاليم الدعوة السنوسية، ثم أسس زاوية الجغبوب على الحدود البرقية المصرية سنة 1856م حيث ابتعد عن

(1)- أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1979. ص. 262.

السلطة التركية التي اضطرته لذلك تخوفا منه ومن نفوذه الذي أخذ يتعاظم يوما بعد يوم ومن خطره الذي استفحل بشكل ملفت للانتباه.

لقد كانت فكرة الشيخ السنوسي الجوهرية هي تحرير العالم الإسلامي من الحكم الاستعماري ولكنه التحرير الذي يتطلب في المقام الأول الإعداد الروحي والأخلاقي وهو بذلك كان متفقا مع كبار المصلحين أمثال الأفغاني ومحمد عبده وابن باديس وغيرهم، وقد شرع في هذا العمل الجبار انطلاقا من الزاوية على عكس الزوايا السلبية الأخرى التي تواكلت وركنت إلى الاستعمار مرهقة أتباعها بالضرائب وجمع الأموال.

سعى السنوسي في زواياه على تدريب أتباعه على حياة العمل المنتج مثل ما كان يدربهم على حياة التصوف، كانوا يتدربون على الفروسية والتمرن على الأعمال الحربية المختلفة وفي نفس الوقت يعملون على إحياء الأرض الموات من زراعة وفلاحة وتعلم الصناعات فجاءت بذلك الزوايا السنوسية في آن واحد مراكز ثقافية وثكنات حربية وربط جامعية ومدارس سلفية فاستطاع بذلك الشيخ السنوسي أن يُكوِّن جيلا قادرا على نشر الإسلام في أنحاء إفريقيا ويشكِّل في نفس الوقت كتائب للتصدي للمستعمر الغربي ويعمل على الإنماء الاقتصادي والاجتماعي أيضا[1].

لذلك فإنّ الحركة السنوسية تبدو منفردة بتنظيم جديد فقد قامت على التربية أساسا ولم تلجأ إلى العمل السياسي إلا بعد وقت طويل، وقد جمعت بين

(1)– محمد بن عثمان الحشائشي، الرحلة الصحراوية. تقديم وتعليق محمد المرزوقي. تونس: الدار التونسية للنشر، 1988، ص. 78 وما بعدها.

منهج حركة التوحيد الوهابية وبين منهج الحركة الصوفية ومزجت بينهما في دقة ومرونة حيث أخذت من الفقه ما يثير العقول ومن التصوف ما يصلح النفوس. ومن هنا كان خطرها على حركة التبشير التي انطلقت بعد احتلال الجزائر في قلب إفريقيا كبيرا وأخذت تزاحمها في نشر الإسلام بالقارة الإفريقية.

لقد كانت دعوةً إسلاميةً جامعةً هدفها النهوض بالمسلمين في مواجهة الغزو الغربي آخذة بالأسباب على اتساع وشمول من حيث التربية وبناء شخصية المسلم وبناء المجتمع الإسلامي ومقاومة العدو والاجتهاد في تنقية الإسلام مما علق به من أوهام.

هذا وقد ألَّف السنوسي عددا كبيرا من الكتب في علوم الظاهر والباطن أو الشريعة والتصوف. ومنها تلك التي ذكر فيها أسانيده ومسلسلاته مثل: كتاب الأوائل، وصوابغ الأيدي، والمنهل الروي الرائق في أسباب العلوم وأصول الطرائق، والسلسل المعين في طرائق الأربعين، والمسلسلات العشر، والشموس الشارقة في أسماء مشائخ المغاربة والمشارقة، والبدور السافرة في اختصار الشموس الشارقة، وغيرها من الكتب الكثيرة التي وضعها السنوسي[1].

توفي السنوسي سنة 1859 وهو في أوج عطائه وقوته الشخصية التي حلاها عبد الحي الكتاني بالعبارة التالية: "الإمام العارف الداعي إلى السنة والعمل بها، ختم المحدثين والمسندين، الكبريت الأحمر والهمام الغضنفر، حجة الله على المتأخرين، وبالجملة فقد كان شامة القرن 19 الواضحة وغرّته الناصعة بما نشر

(1)- عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس. بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1982، ج. 2، ص. 1041.

من السنة وعلومها وربّى وهذَّب من الخلائق مع الاعتدال، وكانت له همة عالية ورغبة عظمى في العلم وجمع الكتب"[1].

البعد الثوري لدى الطريقة السنوسية:

إنّ ما حرص عليه الاستعمار في البلاد العربية والإسلامية وفي مقدمتها الجزائر هو طمس معالم الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامي حتى لا يستطيع المسلمون التعرف عليه، كما عمدوا إلى نقل هذا التراث إلى العواصم الأوروبية رغبة في إخفائه والقضاء عليه. وفي ذات الوقت فسح المجال واسعا للبعثات التنصيرية التي تدفقت على مختلف الأماكن تبني المدارس والمستشفيات وتحاول إغراء المسلمين قبل غيرهم من الوثنيين بتقديم خدماتها.

إنَّ الخطة التي سار عليها الاستعمار هي إرسال الرواد أولا بدعوى اكتشاف المجهول من البلاد، ثم يتبعهم التجار والمرسلون أو المبشرون الدينيون لتمهيد الطريق. ولمّا تنتشر تجارتهم في البلاد ويصبحون أصحاب منافع عظيمة يؤلفون الشركات الكبرى التي تمنحها الحكومة حق تعبئة الجيوش ووضع القوانين حتى إذا ما فتحت البلاد ودوخت العباد حلت محلها الحكومة نفسها فتملك الدولة المحتلة بذلك بلادا واسعة لو أرادت فتحها بالقوة بادئ بدء لكلفها ذلك الأموال الطائلة والنفوس العديدة.

إنَّ ما قام به رجال الدين المسيحي من نشاط تنصيري في العالم الإسلامي أو في غيره، من المواضيع التي خصها المؤرخون الغربيون بالأبحاث والدراسات

---

(1)- المصدر نفسه، ص. 1040.

العديدة وانفردوا بذلك دون غيرهم من المؤرخين العرب والمسلمين. غير أنَّ هذه الدراسات ركَّزت معظمها على رجال الدين ونشاطاتهم في الوقت الذي أغفلت فيه دور المسؤولين السياسيين والعسكريين ومواقفهم في هذا المجال، واكتفت بنتف وإشارات اقتضتها الضرورة لشرح بعض الوقائع التاريخية والإجراءات السياسية التي عملت على إنجاح العمل التبشيري أو الحد منه.

لقد دلّت تصريحات كبار المسؤولين السياسيين والعسكريين الفرنسيين على أن حملتهم على الجزائر عام 1830م كانت حملة صليبية حاقدة، فملك فرنسا شارل العاشر أعلن بوضوح في خطاب العرش الملكي في نفس العام أن الهدف الذي يرمي إلى تحقيقه من الحملة الفرنسية يجب أن يُرضي شرف فرنسا ويرجع بفضل العناية الإلهية بالفائدة على المسيحية. كما اصطحب قائد الحملة الجنرال دي بورمون معه ستة عشر قسيسا رافقوا الجيش الفرنسي وكان أحدهم الأب زكار السوري وأخ بطريك بيت المقدس. وقد صرح بورمون لهؤلاء القساوسة بعد دخوله مدينة الجزائر منتصرا فقال: إنّكم أعدتم معنا فتح الباب للمسيحية في إفريقيا ولنأمل أن تينع قريبا الحضارة التي انطفأت في هذه الربوع منذ عدة قرون[1].

أما الملك لوي فليب الذي خلف شارل العاشر فقد أظهر عطفا وتشجيعا كبيرين على الإرساليات التبشيرية وعلى الكنيسة لدرجة حظي فيها برضا البابا قريقوار السادس عشر وامتنانه الذي قال عنه: إنني ممتن جدا للملك لوي فليب وأتمنى أن يضاهيه كل ملوك أوربا. وبعد سقوط مدينة قسنطينة في يد المحتل

(1)– Gautherot Gustave. La conquete d' Alger 1830. Paris, Payot, 1929. P. 29 – 30 – 58 – 60.

1837م بعث الملك لوي فليب إلى رئيس أساقفة باريس برسالة جاء فيها: إن قسنطينة أصبحت تحت سلطتنا، إن جيشنا في إفريقيا قد وشح بالمجد، وإذ أرفع شكري للعناية الإلهية لانتصارنا فإني أرغب أن تقام صلاة شكر في كل كنائس باريس.

كما أرسل البابا رسالة مؤثرة يشكر فيها حاكم الجزائر العام المارشال فالي على مشاعره المسيحية الطيبة والمساعدات والإجراءات الخيرية التي قدمها وكذلك لتنقية المعابد من الخرافات المحمدية وتحويلها إلى كنائس لصالح المذهب الكاثوليكي، حتى يقوم رجال الدين بواجبهم في نشر نور الإنجيل بحرية ونجاعة[1].

هذه بعض المواقف والتصريحات لمسؤولين سياسيين وعسكريين فرنسيين من عملية تنصير الجزائر وتمسيحها، وهي مواقف تبين بوضوح اهتمام هؤلاء الساسة بالتبشير وتشجيعهم له وعطفهم على رجال الدين الذين كانوا يؤمنون بالمهمة الحضارية التي ألقيت على عاتقهم تجاه العالم، وهي مواقف تساعد أيضا على فهم العقلية التنصيرية التي كان يؤمن بها رجال الدين وبعض الساسة على حد سواء لأنّ فرنسا كانت الدولة المثالية في ميدان التنصير.

إنّ الروح الصليبية الحاقدة لدى هؤلاء كانت واحدة من أهم العوامل التي أدت إلى ظهور شخصيات وطنية تصدت لمحاربة العدو ومواجهته بنفس السلاح أي مجابهة المسيحية المستعمرة بالإسلام المحرر وعلى رأس هؤلاء محمد بن علي السنوسي.

---

(1)- Yver Georges. Correspondance du Maréchal Valée. Paris, 1954. T. 3, P. 89.

لمّا دخلت فرنسا إلى الجزائر وهي عازمة على تنصيرها وإرجاعها إلى الحظيرة المسيحية لم تجد ذلك أمرا ميسورا بل لقيت مقاومة ومعارضة عنيفة من أبناء هذا الوطن كالأمير عبد القادر والحاج أحمد باي استمرت ما يقارب العقدين من الزمن استطاعت في النهاية القضاء عليها الأمر الذي دفع الجزائريين إلى الإحساس بخطورة الموقف وأنّ فرنسا عازمة على الذهاب في تحقيق مشروعها إلى أبعد الحدود فظهرت شخصيات وطنية تدافع عن الوطن وسلامته بالوسائل التي تراها مناسبة ومنها الإمام محمد بن علي السنوسي وحركته.

لقد ظلت قوى النفوذ الغربي ترقب بحذر بالغ الخطورة نمو الحركة السنوسية وزواياها، وحذّر كتاب أوربا الاستعماريين منها ومن خطرها، كما حذروا من مغبة ظهور زعيم إسلامي تتوحد تحت لوائه قبائل الطوارق وعشائر العرب والبربر، سيما إذا اتّحد مع المشرق الإسلامي فيصبح العالم الإسلامي يدا واحدة ويزحف على أوربا فيكتسحها. قد يكون هذا الكلام مبالغا فيه ولكنه مبرر كاف لضرب الحركة والقضاء على أية محاولة من شأنها إعادة إحياء الوحدة الإسلامية وإيقاظ العالم الإسلامي.

كما مضت أوربا تؤلّب الدولة العثمانية على الحركة السنوسية كما فعلت بالنسبة للحركة الوهابية وتغري بها مؤكدة للباب العالي أن خطرها على السلطنة العثمانية قريب. غير أن الشيخ السنوسي استطاع بحرصه وذكائه أن ينال ثقة الدولة العثمانية وراح يعمل في حيطة وحذر وصمت داخل إفريقيا بعيدا عن أسلوب الثورة أو التدخل مع حيدة تامة بالنسبة للسلطان العثماني.

وقد رفضت السنوسية أي تدخل مع ألمانيا أو إيطاليا أو تركيا أو مع عرابي أو المهدي جميعا، وكانت ألمانيا قد طلبت من السنوسية مساعدتها ضد فرنسا في إفريقيا كما طلبت منها تركيا مساعدتها ضد روسيا. وطلبت إيطاليا مساعدتها ضد تقدّم فرنسا في تونس. ولكن السنوسية كانت قد حددت موقفها في هذا الصدد وهو عدم التدخل في معارك من شأنها أن تكشف قوتها التي ادّخرتها لضرب المستعمر الأجنبي.

لقد كان عمل السنوسية في المقاومة للغزو الغربي داخل إفريقيا متكتما مع عمل مكشوف في نشر الإسلام وهذا ما سجله دوفيرييه هنري قائلا: إن السنوسية هي المسؤولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر. وإن السنوسية هي المدبرة لجميع نكبات فرنسا في الشمال الإفريقي وفي السنغال. وإنها أيدت ثورة محمد بن عبد الله في صحراء الجزائر 1848 وثورة الصادق بجبال الأوراس، وثورات أولاد سيدي الشيخ 1864. ويضيف قائلا، إن السنوسية هي أخطر أعداء نفوذنا نحن الفرنسيين في شمال إفريقيا والسنغال، والعقبة في سبيل توسعنا الاقتصادي والسياسي داخل إفريقيا، وهي عائق في طريق أهدافنا في القارة الواقعة شمال خط الاستواء[1].

لا شك أن السنوسية بهذه الصورة تختلف كثيرا عن باقي الحركات الصوفية الأخرى حيث جمعت بين عملين أساسيين هما: نشر الإسلام وهو ما حاولته الطرق الصوفية الأخرى. ومقاومة النفوذ الأجنبي بالقوة المسلحة وبناء مواقع المقاومة الاجتماعية والعسكرية وهو ما انفردت به السنوسية.

---

(1)– Duveyrier Henri. Exploration du Sahara. Paris, 1864 ; P. 306.

وكما واجهت بريطانيا الدعوة الوهابية في كل مكان حتى في الهند كذلك واجهت فرنسا أخطار الدعوة السنوسية في قلب إفريقيا إذ كانت مصدرا لكل أعمال المقاومة في مختلف الأقطار التي عمدت فرنسا إلى احتلالها. فلمّا أرادت التوغل في داخل إفريقيا عبر الصحراء اصطدمت بمقاومة عنيدة، تولى تنظيمها وقيادتها أتباع السنوسية، ويتضح ذلك من خلال المصادر الفرنسية التي تناولت التوسع الفرنسي عبر الصحراء حيث خصّصت الجزء الأكبر للكلام على المقاومة التي وجدتها القوات الفرنسية من أتباع الدعوة السنوسية هناك. والذي يهمنا في هذا المقام بطبيعة الحال الثورات الشعبية التي ارتبطت بالسنوسية في مقاومتها للفرنسيين في الجنوب الجزائري وهي كالتالي.

ثورة الشريف محمد بن عبد الله (1842-1895)

عرفت الجزائر عدة ثورات خلال القرن التاسع عشر ضد الاستعمار الفرنسي، أما الثورة التي كانت بتخطيط من السنوسية وبدافع منها فهي ثورة الشريف محمد بن عبد الله التي دامت ما يقرب من نصف قرن في صحراء الجزائر وفي تونس وليبيا.

ففي حدود سنة 1840م كان الشريف محمد بن عبد الله، واسمه الحقيقي ابراهيم بن أبي فارس، معلما للصّبيان بتلمسان وفي العام الموالي استدرج من طرف الأغا مولاي الشيخ علي للعمل تحت السلطة الفرنسية ضد الأمير عبد القادر فمُنح لقب السلطان وشارك السلطات الفرنسية في حملتها من وهران إلى تلمسان والتي سقطت بأيديها في جانفي 1842م وتم تعيينه خليفة عليها تحقيقا

لرغبته وطموحاته[1]، ولكن سرعان ما شعر بمضايقات من طرف الفرنسيين نظرا لما كانت تحوم حوله من شكوك وأنه لم يكن مخلصا نيته للفرنسيين.

إنّ تصرفات محمد الشريف كانت توحي بأنه يبيَتُ لأمر ما، فاعتكافه في مسجد العباد لم يكن سوى تظاهرا وتمويها بينما الحقيقة والواقع كان يلتقي بالأنصار والأتباع لوضع الخطة المستقبلية وهي التمرد على فرنسا، وحتى لا يثير شكوكها شارك معها في حروبها ضد الأمير عبد القادر[2].

وفي أحد أيام عام 1844 وجدت السلطات الفرنسية مكتوبا على جدران مدينة تلمسان "محمد بن عبد الله ناصر الدين أبقاه الله وسلطه على رقاب الكافرين". ومن المحتمل أن يكون هذا التصرف من فعل الفرنسيين أنفسهم لإيجاد المبرر والحجة من أجل إجبار محمد الشريف على مغادرة تلمسان. وهذا ما حدث بالفعل إذ نُصح بالذهاب إلى الحج للتخلص منه ومما سيسببه في المستقبل فاستجاب محمد الشريف للنصيحة التي هي في الواقع أمر لابد من تنفيذه، فاتجه إلى وهران ومنها إلى مصر ثم إلى مكة فالمدينة حيث أدى فريضة الحج.

وهناك التقى محمد الشريف بن عبد الله بالجزائريين الذين نفتهم فرنسا أو طردتهم أو فروا من بطشها أي ما يسميهم ترومليي بالمشوشين. ومن أهم

---

(1)– Trumelet (Colonel). Les Français dans le desert. Paris, 1885, P.P. 37-39.

(2)– يحي بوعزيز، ثورات القرن التاسع عشر. الجوائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2009، ص. 155.

الشخصيات التي التقى بها هناك محمد بن علي السنوسي الذي كان يتردد كثيرا على الحجاز إما مطرودا نظرا لخطره كما رأينا، أو بمحض إرادته لما يوجبه عليه التنظيم والتنسيق مع أطراف أخرى.

هناك توثقت الصلة بين الرجلين حيث كانت توجد زاوية أبي قبيس بمكة وهي أول زاوية أسسها السنوسي قبل عودته وتأسيسه الزاوية البيضاء، وكانت هذه الزاوية ملجأ لكل الجزائريين يجتمعون فيها لأداء الواجبات الدينية، وفي نفس الوقت يلتقون فيها لتدارس مشاكلهم ومشاكل بلادهم السياسية والتفكير والعمل على تنظيم المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي ووضع الخطط المناسبة لذلك.

لقد شرع السنوسي ورفيقه الشريف بن عبد الله في دراسة المشكل الأساسي والخطير وهو الاستعمار الفرنسي للجزائر وكيفية معالجة هذا المشكل ألا وهو إعداد الخطة المناسبة لإعلان الثورة ضده، فأخذا يتابعان تطور الأحداث في الجزائر فوجداها مناسبة، فقد انطلق ابن ناصر بن شهرة بثورته منذ 1846 تحسبا لأي طارئ، وفي أواخر 1849 ثار الزعاطشة كما ثار غيرهم وتمرد في جهات أخرى.

لم يكن هذا الوضع ليغيب عن الرجلين فقررا استغلاله حيث طلب الشيخ السنوسي من رفيقه أن يعجل بالرحيل إلى الجزائر ويشرع في العمل الجاد ألا وهو إعلان الثورة ريثما يلحق به، وهكذا نجد ثورة محمد بن عبد الله ضد فرنسا ثورة تمّ التخطيط لها خارج الجزائر وعلى يد جزائريين وعلى رأسهم زعيم السنوسية الأول وواضع أسسها ودعائمها. وهذا ما يؤكده ويرنر قائلا: إنّ متعصّبي مكة ورؤساء الطريقة السنوسية هم الذين أرسلوا الشريف بن عبد الله إلى الجزائر ليقود الجهاد في الصحراء الجزائرية خاصة وأنه كان خليفة على تلمسان في وقت

سابق[1]، أي أنه كان يعرف جيدا أساليب الادارة الاستعمارية ويمتلك خبرة واسعة في الشؤون الجزائرية.

كانت عودة الشريف محمد بن عبد الله من الحجاز في أواخر 1849 ووصل إلى طرابلس في أوائل 1850 ومنها إلى سوف التي استقر بها طوال هذا العام. وفي أوائل العام الموالي فكر بجدية في القيام بأول تجربة في ميدان الكفاح فاتجه صوب تقرت وورقلة وعسكر بالقرب منها حيث بدأت تفد إليه رسائل السنوسي الذي كان قد عاد هو الآخر من الحجاز إلى طرابلس، وهي رسائل تأييد وتشجيع لمحمد الشريف بعدم التردد كما راسل السنوسي غيره وطلب منهم الوقوف إلى جانبه.

وبفضل عزيمة محمد الشريف ورسائل السنوسي التحريضية والتأييدية لبّى كثير من الجزائريين النداء وتجندوا تحت لواء محمد الشريف بن عبد الله الذي أخذت سمعته تنتشر ونفوذه يتسع مما أكسبه القوة، فكانت ورقلة هدفه الأول التي لم يجد أي صعوبة في الاستيلاء عليها وعيّنه أهلها سلطانا عليهم وبايعوه بذلك عام 1851 فاتخذها قاعدة لنشاطه. وخلال هذه السنة نجح محمد بن عبد الله في ضم تقرت ومتليلي وقام بعدة مناوشات لمّا أراد التوسع نحو الشمال. وفي ماي 1852 اشتبك لأول مرة مع قوات فرنسية جنوب بسكرة فتيقن بعدها أن

(1)– August Warnier. L'Algérie devant l'empereur. Paris, 1865, p. 255.

العدو ينظم ضده مقاومة شديدة فاتجه صوب الجنوب إلى جبال عمور لجمع مزيد من الأنصار والأتباع والمؤن اللازمة لخوض المعركة[1].

لقد أدركت فرنسا من جهتها خطورة حركة الشريف بن عبد الله فراحت تدبر أمرها وتعد العدة لوضع حد لهذه الثورة فجمعت قوات عسكرية كبيرة لذلك من وهران ومعسكر والمدية لحماية بسكرة والواحات الشرقية وقسنطينة تحسبا لأي خطر تشكله ثورة الشريف بن عبد الله. فقام الجنرال راندون بتكليف الجنرال يوسف بالتوجّه إلى الأغواط لإخماد ثورة الشريف الذي كان يخطط لدخول هذه المدينة.

وفي الرابع من شهر أكتوبر 1852 خاض الشريف ضد القوات الفرنسية التي كان يقودها الجنرال يوسف معركة كبيرة في عين الرق قرب غدير وادي مزي حقق فيها انتصارا باهرا على العدو حيث قتل العديد من رجاله وغنم الكثير من

(1)- لم تشرع جريدة المبشر الاستعمارية المعاصرة لهذه الثورة في الحديث عنها إلا ابتداء من منتصف شهر جوان 1852، حيث كتبت تقول إن الشريف محمد بن عبد الله كان يحاول الدخول إلى منطقة الزيبان ولكنه انهزم في جنوب بسكرة، وذكرت الجريدة أن هدفه من التوجه إلى تلك المنطقة هو البحث عن مستقر له ولأنصاره ليعيشوا فيه ظنا منه حسب الجريدة أن تلك المناطق كانت خالية من القوات الفرنسية. وتضيف الجريدة أن هذه المعركة الطاحنة التي خاضها ضد الفرنسيين في الثاني من شهر ماي سنة 1852 قد قُتِل فيها من رجاله حوالي 150 رجلا وسلبت منه حوالي 600 بندقية وحوالي 200 مهرة، وأن الأعراش المجاورة لمّا سمعت بهذه الهزيمة خضعت للسلطات الفرنسية. جريدة المبشر، 15 جوان 1852. يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 159، ولكنه يذكر تاريخ 22 ماي وليس الثاني منه كما ورد في الجريدة.

الغنم والإبل[1]. واستقبل إثر هذا النصر بحفاوة بالغة من طرف سكان الأغواط الذين اعتبروه بمثابة الفاتح ودخل المدينة في شهر نوفمبر بمساعدة ابن ناصر بن شهرة محرزا بذلك تقدما كبيرا في الجنوب الجزائري.

وبعد هذه المعركة أرسل الشريف بن عبد الله إلى الشيخ السنوسي خطابا يطلعه فيه على انتصاراته وانجازاته التي حققها منذ دخوله ورقلة، ومن بين ما جاء فيه: "... وأما أنا عبد الله حين قدمت بلاد ورقلة ففتح الله علينا بها وصارت محمدية بعدما كانت في يد الرومي دمره الله وخليفة الرومي فيها، سبحان من حكّم الضعيف في القوي وصار القوي من عبده مخذولا مذموما، ولكن من بركة الشريف شيخنا سيدي محمد بن علي السنوسي رضي الله عنه ونفعنا وإياكم به آمين. وصار عربان ورقلة وقصورها، وقبائل الشعانبة، وقصور تقرت وعربانها، والأرباع والحرزلية والحجاج، وكثير من عربان الظهيرة وقصور بني مزاب كلهم تحت طاعة الله ورسوله وطاعتنا، والمجاهدون كل يوم في الزيادة. وبعث لنا الرومي دمره الله هذه الساعة ثلاثة أمحال تلاقينا معهم وصرنا مثل الشامة البيضاء في ثور أسود فنصرنا الله نصرا عزيزا وأعلانا على أعدائه، ووقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثمائة وستة وثمانون رجلا وغنمنا من الخيل الكثير والبنادق بلا عدد والإبل والأخبية والحمد لله على ذلك ..."[2].

---

(1)– Trumelet (Colonel). Notes pour servir à L'histoire de L'insurrection dans le sud de la province d'Alger. Revue Africaine, 1877, p. 79.

(2)– السجل رقم: 501/3/196، المحفوظ بدار المحفوظات بطرابلس.

واضح من هذا الخطاب الذي يعدّ بمثابة تقرير عسكري والمؤرخ في سنة 1852م أن الشريف كان على علاقة وطيدة ومستمرة بالشيخ السنوسي الذي كان يطلعه على كل حركاته وخطواته ويبشره بانتصاراته، وأنه يتفق مع الرواية الفرنسية في سير الأحداث العامة ولكنه يناقضها في بعض التفاصيل مثل عدد القتلى والغنائم في معركة غدير وادي مزي المذكورة التي يحاول الفرنسيون التقليل منها.

لقد تألّمت فرنسا كثيرا لهذه المعركة خصوصا بعد استيلاء الشريف على مدينة الأغواط ذات الأهمية الاستراتيجية، إذ تجدر الإشارة إلى أنه قد ازداد توغل السلطات الفرنسية في الصحراء الجزائرية في عهد الحاكم العام الجنرال راندون انطلاقا من الأغواط لأهمية موقعها، إذ أنها تعدّ همزة وصل بين الجنوب الشرقي والجنوب الغربي، وقد اعتبرها راندون مفتاحا لكل المنطقة وكتب إلى وزير الحربية يشرح له أهميتها قائلا بأنها لا تحتاج إلى إقامة الدليل فعن طريقها ستتمكن فرنسا من التوغل داخل الجنوب للسيطرة على كامل الجزائر، ورأى أن ذلك أصبح ضروريا بعد ظهور الثائر محمد بن عبد الله في تلك الناحية. وتجدر الإشارة كذلك إلى أنه بعد الانتصارات التي حققتها ثورة أولاد سيدي الشيخ في منتصف الستينات تعالت العديد من الأصوات الفرنسية مطالبة بضرورة جعل الصحراء عمالة رابعة

في الجزائر على أن تكون مدينة الأغواط مركزا للقيادة العسكرية والإدارية ومحور القوات الأساسية كي تتحرك بسرعة[1].

لقد جاء ردّ فرنسا سريعا على هزيمتها ففي ديسمبر 1852م أرسلت نجدات ضخمة إلى المنطقة بقيادة بيليسي الذي كان متمركزا في منطقة البيض وخرج منها في أواخر شهر نوفمبر تصحبه أربع فرق عسكرية ومثلها من الفرسان وأربعة مدافع ومؤونة ضخمة، وقد وصل إلى الأغواط في الثاني من شهر ديسمبر حيث التقى مع الجنرال يوسف، وفي اليوم الموالي وقعت المواجهة مع قوات الشريف بن عبد الله، فكانت الحصيلة مقتل ضابط فرنسي وهو بوسكارين وسبعة جنود، وإصابة ستة ضباط وستين جنديا بجروح، وحوالي ثمانمائة قتيل من قوات بن عبد الله التي لم تكن متكافئة مع قوات العدو، فاضطرّ إلى الانسحاب تاركا المدينة في الرابع من شهر ديسمبر بعد إصابته بجروح[2].

قامت القوات الفرنسية بشن حملة ضخمة على مدينة الاغواط بكل وحشية وضراوة وارتكبت في حق المدينة وأهلها جرائم فظيعة من قتل وسلب ونهب وانتهاك الحرمات، فقد أباحت المدينة لجنودها مدّة ثلاثة أيام، وظلوا يقتلون الأهالي مدّة أسبوع كامل ويرمون جثثهم في الآبار والحواسي[3]، وانتهت

---

(1)- Azan (G Paul). Conquete et Pacification de l'Algérie. Paris,1931, P 341. August (Warnier). OP cit, p. 257. Julien (Charles-André). Histoire de l'Algérie contemporaine, Paris, 1964, p. 390.

(2)- جريدة المبشر، 15 ديسمبر 1852 . Trumelet (Colonel). OP cit, p .79

(3)- Julien (Charles-André). OP cit, p. 391.

المعركة باحتلال الاغواط وهزيمة الشريف محمد بن عبد الله الذي انسحب إلى ورقلة[1].

بعد هزيمة الاغواط عمل ابن عبد الله على لمّ شمله من جديد ومراجعة نفسه بعد أن توقف عن النشاط مدة فاتصل بثائر آخر من أجل تقوية صفوفه هو ابن ناصر بن شهرة للتنسيق من أجل هدفهما الواحد، فخططا للهجوم على مدينة الاغواط مرة أخرى غير أن القوات الفرنسية تفطنت لهذا التحالف وما يشكله من خطر عليها فأعدت له العدة ووقعت بينهما وبين قوات ابن عبد الله وابن شهرة معارك استطاعت هزمهما وأجبرتهما على الانسحاب إلى نفطة التونسية في نوفمبر 1853م.

وهناك داخل الحدود التونسية لم يركن ابن عبد الله إلى الراحة بل أخذ يمارس نشاطه الثوري الأمر الذي ضايق السلطات الفرنسية ومعها السلطات التونسية فوقعت مراسلات بين باي تونس وقنصل فرنسا تم الاتفاق بينهما على طرد ابن عبد الله من تونس واستعمال القوة معه إذا اقتضى الأمر ذلك، وقد جاء

---

(1)- وكان من نتائج هذه الهزيمة أن قدمت مجموعة من أعيان وادي مزاب إلى الجزائر لمقابلة الحاكم العام في العاشر من جانفي 1853 لإعلان الطاعة له، فطلب منهم أن يحضروا معهم تفويضا عن كل أهالي القصور المزابية السبعة، فعادوا إليه بالتفويض يوم 4 ماي من السنة نفسها، ووقّع الطرفان اتفاقية خاصة تجعل من وادي مزاب محمية خاصة يدفع أهله بموجبها ضريبة سنوية للفرنسيين قدرها 45 ألف فرنك والاعتراف بالسيادة الفرنسية، مقابل عدم تدخل فرنسا في شؤونهم الداخلية وإمكانية استمرارهم في التجارة مع المغرب وتونس شريطة دفع ضريبة جمركية للإدارة الفرنسية. ينظر نص الاتفاقية كاملا في الدراسة الموسومة بـ: (Le Mzab) التي نشرها كوين في المجلة الإفريقية، العدد 23، سنة 1879، ص. 205- 206، حيث يذكر أن تاريخ توقيع الاتفاقية هو يوم 29 أفريل 1853.

في إحدى الرسائل المؤرخة في جوان 1854م والتي ردّ بها باي تونس على القنصل الفرنسي في هذا الشأن ما يلي:

"من عبد الله المشير أحمد باشا باي صاحب المملكة التونسية إلى معاهدنا ذي الافتخار الأكبر الكولير بكلار المكلف بأمور الدولة الفرنساوية والقنصل جنرال بحاضرتنا تونس أما بعد، فإنّ رجلا من تلمسان اسمه الشريف محمد بن عبد الله قدم إلى أطراف بلادنا من ناحية الجريد، وأمرنا بطرده وإبعاده وعدم قبوله، ثم تحزب بمن معه وأغار على القطارية من رعيتنا بين نفطة وتوزر وأخذ لهم قدر ثلاثين بعيرا ووقعت بينهم القتلى والجرحى، وهو من القائمين على الحكم بالجزائر، فأردنا أن نغصبه على البعد من عمالتنا تحفظا من فتنته، ونخلّص منه ما أخذه، وإن لم يبعد فأذن بحربه. فأعلمناكم ليكون ذلك على ذكركم فإننا لا نأوي القائمين في عمالتنا ولو لم يصدر منهم ضرر في عمالتنا أحرى مع الضرر، ودمتم في أمن الله تعالى، وكتب في 10 رمضان المعظم سنة 1270 هـ"[1].

وبعد عودته من تونس اشتبك مع الفرنسيين في معركة كبيرة في نوفمبر1854 اضطر إثرها إلى الانسحاب إلى الجريد التونسي واستعاد الفرنسيون ورقلة وتقرت واستعملوا كل أساليب القهر والاضطهاد ضد السكان كما استغلوا هذه الحوادث لتوسيع نفوذهم في الصحراء باحتلالهم سوف وواد ريغ وواحات وادي ميزاب.

(1) أرشيف الحكومة التونسية، صندوق 219، ملف 237، وثيقة رقم 4.

ثم عاد من تونس عام 1858 وجدد العزم على استعادة مدينة الاغواط في محاولة فاشلة انتهت بمطاردته وتتبعه واعتقاله في الأخير سنة 1861 من طرف الباشاغا سي بوبكر ولد حمزة ولد سيدي الشيخ الذي سلمه بدوره إلى الفرنسيين الذين نفوه إلى فرنسا وفرضوا عليه الإقامة الجبرية. ولم تعرف المدة التي قضاها في السجن ولا متى أطلق سراحه ولا أين ذهب بعد ذلك.

وبعد عودته من المنفى وجد عدد أتباعه قد قلّ، غير أن الروح الثورية التي تحلى بها ابن عبد الله وإيمانه العميق بقضية تحرير الجزائر دفعته إلى المشاركة في أي ثورة أو حركة من شأنها محاربة المستعمر فشارك في ثورة اولاد سيدي الشيخ سنة 1864، وثورة المقراني والحداد سنة 1871، كما اتصل بابن ناصر بن شهرة في تقرت، وبوشوشة في ورقلة، وغيرها من الحركات الثورية. وفي سنة 1876 ألقي عليه القبض لتورطه في حادث مقتل العربي المملوك[1]، وبعد الإفراج عنه توقف عن النشاط السياسي والثوري إلى أن وافاه الأجل عام 1895 بعد أن عاش حياة مليئة بالنضال والكفاح ضد المحتل الأجنبي.

وكانت ثورته ثمرة من ثمار الحركة السنوسية التي عملت في سبيل إقامة وحدة إسلامية كبرى وتجاوزت دورها كطريقة صوفية لتغدو حركة إسلامية كاملة وقد نمت الدعوة السنوسية بعد وفاة زعيمها وازداد عدد مواقعها في عهد محمد المهدي وأصبحت قوة اجتماعية وفكرية في كل مكان. ولمّا تولى أمر السنوسية أحمد الشريف في مطلع هذا القرن دخلت الحركة في دور جديد أشد قوة لكن الغزو الإيطالي لطرابلس 1911 حوّل الدعوة السنوسية إلى مقاومة عسكرية

(1) عن تفاصيل هذا الحادث ينظر يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص. 164 وما بعدها.

مسلحة دامت حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. وقد ظلت الصحراء تحت حكم السنوسيين خلال مائة سنة لم يتمكن الاستعمار خلالها من السيطرة إلا على سواحل الصحراء فقط.

ثورة الشريف بوشوشة (1864 -1875)

لقد امتدت هذه الثورة من وسط ستينيات القرن التاسع عشر إلى وسط سبعينياته، وقامت نتيجة تظافر مجموعة من العوامل والظروف، منها ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864، ومجاعة عام 1867، هذا فضلا عن هزيمة الفرنسيين أمام الألمان سنة 1870، ودخول الأمير محي الدين إلى الجزائر خلال هذه السنة، واندلاع ثورة المقرانيين والرحمانيين في السنة التي تلتها، وغيرها من الأحداث المتتالية التي ساعدت على دعم حركة بوشوشة.

ولم يسلم بوشوشة وثورته من التشويه السافر والحاقد الذي سلطته عليه الرواية الفرنسية، فهو في نظرها مجرد صعلوك متمرد على سلطتها، سارق وقاطع طريق ومحرّض لأهل الصحراء ضدها، شريف مزيف، ومغامر خشن، وأنّ حركته ما هي إلا أعمال إجرامية كانت تقوم بها جماعة المداقنات التي تكونت سنة 1868 في تديكلت واتخذت من السطو والسلب والنهب والقتل عملا لها في الصحراء[1].

(1) وكلمة المداقنات نسبة إلى مداقن اسم رجل ترقي جاء إلى الشعانبة سنة 1860 فأحسنوا إليه، ولكنه أساء إليهم حين سرق بعض إبلهم، وأول من أطلق هذه التسمية هو معطى الله بوظفر كبير شعانبة ورقلة الذي كان في ضيافة بوبكر بن عبد الحكيم زعيم الشعانبة المواضي في مجاعة عام 1867، ولما قدّم له عنزة مشوية بدون ملح ولا سمن قال له مازحا: إنكم تعتدون على من يفعل معكم الخير، تسرقون العدو والصديق أنتم مثل الطوارق مداقنات. وبقيت التسمية

ولم يكن هذا رأي لوشاتوليه فقط، بل هذا ما ذهب إليه رين أيضا حين ختم كلامه عن بوشوشة قائلا: وبعد نهاية الشريف المزعوم وإلقاء القبض عليه عام 1874، كونت مجموعة من الشعانبة الثائرين رفاقه الأوائل عصابة سراق تحت اسم المداقنات، وظلوا طوال عشر سنوات (1874-1883) يقطعون الصحراء من وادي درعة إلى فزان يسرقون وينهبون ويقتلون بلا استثناء العدو والصديق إلى أن أهلكتهم الصحراء[1].

وكلمة بوشوشة كنية لُقّب واشتهر بها هذا البطل، وهي تعني الأشعر أي غزير الشعر أوفره، أو لخصلة بارزة منه، واسمه الحقيقي محمد بن تومي بن إبراهيم من مواليد سنة 1839 في بلدة الغيشة بجبال العمور حيث الحيوية وصفاء الذهن واكتساب الشجاعة، ومارس حرفة الرّعي في صغره. وقضى مدّة من شبابه متنقلا في منطقة الزيبان حيث درس في العديد من زواياها خصوصا زاوية طولقة كما يقول سيمون[2].

ولعله يكون قد حدّد انتماءه الصوفي خلال تنقله في زوايا الزيبان، لأنّ الرّواية الفرنسية لم تستبعد ضلوع الطريقة السنوسية في إشعال فتيل ثورته، وهو

بعد ذلك علما على الجماعة التي اتخذت السلب والنهب والقتل عملا لها في الصحراء منذ سنة 1868، وإنها التحقت في العام الموالي ببوشوشة الذي كان قد شرع في جمع الساخطين والناقمين حوله كما تقول الرواية الفرنسية. يُنظر:

C. Le Chatelier. Les Medaganat. Revue Africaine, 1886, pp 39-40.

(1) Louis Rinn. Histoire de L'insurrection de 1871 en Algérie. Alger, 1891, p. 663.

(2) H. Simon. Comment Bouchoucha raconta un jour son histoire. Bulletin de Liaison Saharienne. Alger, janvier 1955, n 19, P. 16.

ما ذهب إليه قارو الذي يقول إنّ بوشوشة كان من أتباع السنوسية المتمركزة بجغبوب، وأن نشاطه بين سكان المخادمة كان من أجل ضمهم إلى هذه الطريقة وحفزهم على مقاومة النفوذ والسيطرة الفرنسية[1]. وأمام انفراد قارو بهذا الرأي فليس لدينا ما يردّه أو ينفيه، ولا نستبعد ضلوع السنوسية في هذه الثورة، إذ من المعروف أنّ السنوسية كانت من وراء إثارة الجنوب كما قلنا خصوصا ثورة الشريف بن عبد الله التي انتهت في أوائل الستينات وهي فترة بداية نشاط الشريف بوشوشة.

وهناك من أكَّد هذا الرّأي وقال إن بوشوشة كان من الذين جنّدهم الحاج أحمد التواتي مقدم السنوسية عندئذ في الصحراء[2]. ومن المعروف أن هذه الشخصية الهامة كانت هي المحرّك الرئيسي للسنوسية حتى بعد وفاة شيخها وأسر الشريف بن عبد الله، كما اعتبرته الرواية الفرنسية من الرجال الخطرين وصاحب المشاريع في بناء الزوايا وجلب السلاح وتجنيد المحاربين للتخلص من الأعداء والمشبوهين، وأنه عالم وغاضب متعصب ضد الفرنسيين، وشعلة متحرّكة في الصحراء، كان ينتقل في كل مكان داعيا للجهاد وآمرا بشراء السلاح والذخيرة، وأنه كان يجند الأنصار للجهاد والشريف بن عبد الله يقودهم[3].

يصرّ الفرنسيون على جعل الشريف بوشوشة من الجناة الفارين من السجن في أول حياته، فقد استهل رين كتابه تاريخ انتفاضة 1871 بالحديث عن

---

(1) – Henri Garrot. Histoire de l'Algérie. Alger, 1910, p 945 – 946.

(2)– أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، ص. 175.

(3 – Duveyrier Henri. Op Cit, p. 304.

هذا البطل بأنه سرق فألقي عليه القبض وقُدّم للمحكمة التأديبية في معسكر التي حكمت عليه بالسجن في الثاني والعشرين من شهر ديسمبر سنة 1862، وبعد هروبه من السجن في السنة الموالية اتجه إلى فقيق ومنه إلى توات حيث شرع في جمع الأنصار تحضيرا للمقاومة[1].

وفي طريقه إلى توات مرّ بورقلة سنة 1865 حيث أقام مدّة قليلة، ومنها إلى عين صالح وأقام هناك عند الشعانبة المواضي[2] الذين بايعوه شريفا سنة 1869، وهو ما كانت تقتضيه طبيعة المقاومة الشعبية خلال القرن التاسع عشر، فمعظم رواد المقاومة وزعمائها كانوا من الأشراف ومن المنتمين للطرق الصوفية. ولعل اتخاذ بوشوشة عين صالح مركزا لانطلاق حركته كونها بعيدة عن عيون العدو وعدم خضوعها له، إذ بإمكانه التحرك والإعداد دون تخوف من الفرنسيين وأعوانهم الذين كانوا يسيطرون على المناطق الصحراوية الواقعة إلى الشمال من عين صالح كالأغواط وبسكرة وورقلة وتقرت.

استهل بوشوشة حركته بالاستيلاء على المنيعة في أفريل 1870 وسجن القائد جعفر الخاضع لسلطة الفرنسيين، وفي الخامس من شهر ماي استولى على

---

(1) – Louis Rinn. Histoire de L'insurrection de 1871, p. 79.

(2) – ينقسم الشعانبة إلى خمس مجموعات هي:

– شعانبة بوروبة في ورقلة ومنهم أولاد سماعين وأولاد هب الريح.

– شعانبة برزقة في متليلي.

– الشعانبة المواضي في المنيعة.

– شعانبة الوادي الذين انفصلوا عن شعانبة بوروبة وخيّموا مع الطرود في سوف.

– مجموعة أخرى تنتمي للمجموعات السابقة منتشرة بين تيماسانين في الهقار وقورارة.

المصدر نفسه، ص. 617.

متليلي، وبعد أسبوع من ذلك كان في آبار سبسب يشتبك مع قائد الأرباع لخضر بن محمد، ثم عاد بعد ذلك إلى عين صالح القاعدة الأساسية التي كان يلجأ إليها كل ما دعت الحاجة إلى ذلك.

بعد هذه الحركة الخاطفة التي أسفرت عن أخذ مدينتي المنيعة ومتليلي، والتي كانت بمثابة إعلان بوشوشة للثورة على العدو الفرنسي ومهاجمة القوافل والقبائل التي تتعامل معه، وكانت أيضا اختبارا لقوته، نجده يقيم في عين صالح مدة عشرة شهور (من ماي 1870 إلى مارس 1871) دون القيام بعمل عسكري، لأنّه كان منشغلا بمواصلة الإعداد والتحضير وكسب الأنصار وتأليب الشعانبة وتحريضهم ضد العدو.

وقد استفاد بوشوشة من ضعف السلطات الفرنسية في الصحراء الشرقية، كما ساعدته تطورات الأحداث التي ذكرناها، سيما هزيمة فرنسا أمام بروسيا، ودخول الأمير محي الدين إلى ناحية نفطة وتبسة، وانتفاضة الحنانشة بقيادة الكبلوتي بسوق أهراس، والنزاع العائلي القائم على أشدّه حول السلطة والنفوذ بين أسرتي بوعكاز وبن قانة صاحبتي الجاه والسلطان في الصحراء الشرقية، والذي انحصر إلى نزاع سياسي بين المقاومة وممثليها من جهة، وبين العدو وأنصاره من جهة أخرى، وغيرها من التطورات.

استأنف بوشوشة نشاطه في الخامس من شهر مارس 1871، حيث وصل بصورة مفاجئة إلى نقوسة، ودخل ورقلة بدون مقاومة بعد مفاوضة أهلها، وكانت تابعة لأغوية علي باي بن بوعكاز بواسطة خليفته سي نعمان بن ذباح. ولكن رين الذي يسوق هذا الخبر وكعادته لا يفوته أن يقدّم لنا بوشوشة في صورة لص

صعلوك، سفّاك للدماء غير حافظ للعهود، فحسب رأيه وارضاء لفريق من المخادمة أتباعه، أقبل بوشوشة على قطع رؤوس خمسة من نبلاء الميزابيين جاؤوا إلى مفاوضته قبل دخوله ورقلة بعد احتجازهم وأخذ الفدية منهم. وهذا العمل الفظيع يضيف رين هو الذي دفع أهل ورقلة إلى الانضمام لحركته وأن البعض منهم خصوصا الشعانبة والمخادمة كان هدفهم الاستيلاء على متاجر الميزابيين العامرة[1].

وفي الثامن من شهر ماي من السنة المذكورة اتجه بوشوشة إلى قمار فأثارت حركته مخاوف شيخ الزاوية التيجانية محمد الصغير بن الحاج الذي رفض استقباله وعزم على مقاومته، ولكن بوشوشة طمأنه بأنه يريد منه تسليمه زمالة علي باي آغا تقرت عميل الفرنسيين الموجودة عنده في الزاوية، وهو ما لم يوافقه عليه السوافة، فجرى اقتتال بين الطرفين، مات على إثره ستون وجرح مائة، وانتهى التصادم بالتفاوض والتفاهم على أن يرفع بوشوشة الحصار وتدفع إليه تعويضات[2].

ثم اتجه إلى مويت القائد أين وصلته رسائل من شيوخ وزعماء عرب غرابة وسلماية وأولاد رحمان وأولاد مولات ونزلة ومجارية، تعرض عليه المساعدة باعتبارهم من صف بن قانة، وطلبوا منه دخول تقرت والقضاء على سلطة علي باي بن بوعكاز ونفوذه. فاستغل بوشوشة هذا العرض ليدخل مدينة تقرت في 13 ماي، ومكث بها حتى 21 من الشهر نفسه حيث عيّن قوبي بن قوبي خليفة له وآغا

(1)– Louis Rinn. Op Cit, p 140.

(2)– idem, p. 486.

على تقرت وأوصاه بأن يحكم المدينة بالشريعة الاسلامية وطلب من أهلها مساعدة الخليفة الجديد.

استطاع بوشوشة في ظرف وجيز افتكاك قاعدتين هامتين من العدو هما ورقلة وتقرت مستغلا التناحر العائلي بين أسرتي بن قانة وبن بوعكاز الذي استخدمه المستعمر في فرض نفوذه على المنطقة. وأراد بوشوشة أن يجمع إلى هذا الانتصار العسكري تأييد الزاوية التيجانية لما لها من تأثير على أتباعها الكثيرين، فاتجه إلى تماسين مقر الزاوية ولكن دون نتيجة لأنّ الشيخ محمد العيد رفض استقباله قائلا: " إنّه بمشيئة الله دخل الفرنسيون إلى الجزائر وأنّ حكومتهم دائمة فاحترس"[1]. ذلك هو موقف الزاوية السياسي الخاضع للفرنسيين والرافض لدعم المقاومة، وقد تفهّم بوشوشة ذلك وتوجّه إلى بلدة عمر ومنها إلى عين صالح.

أما علي باي لما علم بما أصاب حاميته وضياع تقرت منه، اتجه إلى بسكرة يوم 27 ماي واحتج لدى القائد الفرنسي ضد أولاد بن قانة وحمّلهم مسؤولية التآمر مع بوشوشة ومساعدته على دخول ورقلة وتقرت. ولكن القائد الفرنسي وبّخه واتهمه بالإهمال والتقصير وتوعّده بالمحاكمة، فعقد العزم على استرجاع نفوذه الضائع، فاتجه إلى تقرت وحاصرها في الثامن من شهر جويلية 1871 بمساعدة أولاد عمر وأولاد بن زكري وأولاد نايل، ولكنه فشل في اقتحامها بعد معركة خسر فيها الطرفان عددا كبيرا من القتلى. وفي العاشر من الشهر نفسه وصل بوشوشة رفقة ابن ناصر بن شهرة وجرت معركة ثانية بين الطرفين انتهت بهزيمة علي باي وانسحابه إلى بسكرة يجر أذيال الخيبة حيث عزله الفرنسيون وسمّوه

(1)– Louis Rinn. Op. Cit, p. 493.

قائدا على باتنة، وهو انتصار لبوشوشة في الميدان الذي ظل عدة شهور سيد الموقف.

بعد هزيمة علي باي وخلال شهري جويلية وأوت جرت ثلاث معارك بين بوشوشة وأولاد زكري أتباع علي باي الذين ساعدوه على محاصرة تقرت، وكانت سجالا بين الطرفين، إذ فقد بوشوشة عددا من أنصاره وبعض مواشيه وجماله. وكانت هذه المعارك في نظر رين سببا في تزعزع هيبته ونفوذه، ودليله في ذلك أن السوافة من أهل الزقم وكوينين وتاغزوت والذين سبق أن أعطوه مبلغا من المال مقابل انصرافه عنهم في الثامن ماي، استغلوا فرصة تقهقره أمام أولاد زكري وطالبوه بإرجاع المبلغ المذكور لمّا طلب منهم التوسط في عملية بيع كمية من البارود.

ذلك أنّ تجارة الأسلحة والذخيرة قد عرفت نشاطا كبيرا خلال هذه الفترة في مالطة وتونس عن طريق اليهود والمالطيين في موانئ صفاقس وسوسة ونابل وغيرها، والتي كانت تجد طريقها إلى الجزائر عبر نفطة ثم وادي سوف. وعلى الرّغم من صدور أوامر رئيس التحالف اليهودي في تونس بمنع بيع هذه الأسلحة من طرف اليهود إلا أنّ هذه التجارة ظلت متواصلة. كما أصدر شيخ زاوية تماسين أوامره إلى أتباعه من سوافة قمار والواد ودبيلة بالامتناع عن بيع الأسلحة وهم من صف بوعكاز. بينما نجد أتباع الصف الآخر صف بن قانة وهم سوافة كوينين وتاغزوت والزقم أتباع الطريقة الرحمانية يزدادون نشاطا في تجارة الأسلحة،

فحدثت مشادات بين الطرفين، لم يتدخل بوشوشة في أمرها، وهو ما فسره رين مرة أخرى بضعفه وتقهقره[1].

وإثر هذه الأحداث ترك بوشوشة صديقه ورفيق الكفاح بن ناصر بن شهرة خليفة له على تقرت، واتجه إلى نوميرات جنوب العطف بميزاب التي حلّ بها في الواحد والثلاثين من شهر أوت سنة 1871 رفقة المخادمة وشعانبة بوروبة، وهناك التقى بالزبير ولد سي بوبكر ولد سيدي الشيخ مع فريق من الشعانبة المواضي وشعانبة برزقة. وكان سي الزبير قد تولى آغوية ورقلة للفرنسيين من قبل وتخلى عنها لأسباب صحية، فجاء يوطّد العلاقة مع بوشوشة، وتمخض اللقاء عن مصاهرة جديدة بين الطرفين تمثلت في زواج بوشوشة من فاطمة بنت جلول ولد حمزة حفيدة سيدي الشيخ في الفاتح من شهر سبتمبر[2].

وفي الرابع من الشهر نفسه خيّم بمدخل واحات بني يزقن ينتظر ردّ الميزابيين الذين أرسل إليهم يطلب منهم الخضوع والمبايعة ودفع الإتاوات، لكنهم رفضوا طلبه بشدة وصمّموا على مقاومته وردّه، دفاعا عن ممتلكاتهم، وانتقاما لإخوانهم الخمسة الذين قتلهم بوشوشة لمّا دخل ورقلة، وحفاظا على مذهبهم الديني. تلك هي الأسباب التي دفعت الميزابيين إلى إعلان الحرب المقدّسة ضد الشريف رافعين شعارات مختلفة كلها تدعو إلى الجهاد وتحرّض عليه ضد الشريف

---

(1)– Louis Rinn. Op. Cit, p. 613.

(2)– لا يفوت رين التشكيك في دوافع هذا التقارب بين الطرفين والطعن فيه فهو يعتبره طمعا من سي الزبير في الأموال الكثيرة التي كانت بحوزة بوشوشة وفي آغوية ورقلة التي حصل عليها منه. وأنّ فاطمة بنت جلول قد أرغمت على الزواج من بوشوشة لأنها كانت تحتقره وأنه ليس جديرا بها فهو مجرد صعلوك فار من السجن وهي من النبلاء. المصدر نفسه، ص. 617.

المزعوم المشوش والمنحرف الضال، كما جاء في أحد مقاطع الرسالة التي قرئت على الميزابيين، وهو المقطع الذي أورده رين موضحا به تلك الشعارات.

وقد يكون وراء رفض الميزابيين طاعة بوشوشة وعدم الاعتراف بثورته والإصرار على مقاومته، التزامهم بالاتفاقية الموقعة بينهم وبين الفرنسيين منذ أفريل 1853، والتي دفعوا لهم بموجبها ضريبة سنوية واعترفوا بحمايتهم، مقابل تعهّد هؤلاء على لسان راندون بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لأهل ميزاب وحمايتهم كما سبق أن سجلنا ذلك أثناء حديثنا عن ثورة الشريف محمد بن عبد الله.

ومع ذلك فإن بوشوشة تجنّب الصدام واكتفى بإمهالهم مدة شهر وثلاثة أيام وتركهم يتدبروا أمرهم ورحل عنهم في السادس من شهر سبتمبر 1871. وفي طريقه إلى ورقلة كلّف فرقة من أتباعه بالاتجاه نحو تاجرونة للإغارة، وأخرى إلى شبكة شمال ميزاب، ومكث ينتظرهما عند وادي زلفانة حيث وافتاه بمجموعة من الأغنام. ولدى وصوله إلى ورقلة التي رحبت بالأغا الجديد سي الزبير، وجد في استقباله بن ناصر بن شهرة والشريف محمد بن عبد الله الذي جاء رفقة زعماء أولاد خليفة وحمامة لتقديم التحية والتهاني على نجاحه.

وفي شهر أكتوبر اتصل بعض أعيان تقرت بالقايد بولخراص بن قانة، الذي كان على رأس الرحل الغرابة جنوب أولاد جلال، وطلبوا منه دخول تقرت والتوسط لهم عند الفرنسيين لقبول خضوعهم وطاعتهم، وقد أخبر بذلك السلطات الفرنسية عن طريق أخيه محمد الصغير بن قانة قايد بسكرة. وبدون انتظار التعليمات دخل تقرت في السادس عشر من الشهر المذكور عشية مغادرة بن ناصر بن شهرة

لها. وقد عرف وادي ريغ خلال هذه الأيام هدوءَ نسبيا أوعزه رين إلى انشغال بوشوشة وابن شهرة وسي الزبير بمحاولة استمالة قبيلة سعيد عتبة من جهة، وانتظارهم تطور الأحداث من جهة أخرى، وهو ما اعتبره فرصة هامة ساعدت على قدوم القوات الفرنسية من الشمال إلى الصحراء[1].

وفي السابع من شهر نوفمبر وقعت معركة بين بوشوشة وقبيلة السعيد عتبة التي أقنعها بولخراص بن قانة بالثورة ضدّه في المكان المسمى كويف جلبة، وقد دامت من الصباح إلى المساء، وانتهت بقتل 35 رجلا من قبيلة السعيد عتبة وجرح كثيرين، وحوالي 50 قتيلا من رجال بوشوشة وأصيب هو بجروح خطيرة. وبعد انتهاء المعركة اتجه إلى حاسي القطار جنوب ورقلة للعلاج، ومنه إلى حاسي بوروبة حيث استراح مدة.

وفي هذه الأثناء حصلت تطورات جديدة في الميدان، من ذلك ضرب الجنرال فلوني قواعد الثوار جنوب تبسة ومنها قرية سيدي عبيد التي أحرقها وهدم زاويتها ولم يسلم من الهدم ضريح سيدي عبيد نفسه، وضغط على باي تونس لأسر الثوار وتسليمهم للسلطات الفرنسية، وكان ذلك في الفاتح من شهر نوفمبر 1871. وفي السادس عشر منه دخل نقرين ولم يكن حظها من الهدم والتخريب أقل من سابقتها ولم تسلم واحتها التي قطع منها أكثر من 500 نخلة[2].

ومن تلك التطورات أيضا خروج الجنرال دولاكروا من المسيلة في الثالث من شهر نوفمبر، ووصوله إلى بسكرة في الثامن من شهر ديسمبر، دون أن تعترضه

---

(1)– Louis Rinn. Op Cit, p 626.

(2)– idem, p. 624 – 625.

مقاومة تذكر. وأقام بها حتى الرابع عشر من الشهر المذكور، تاريخ خروجه إلى تقرت التي احتلها من جديد في السابع والعشرين من ديسمبر، بعد أن ظلت خارجة عن سيطرة الفرنسيين في يد الثوار حوالي ثمانية شهور. وفي اليوم الموالي كلف الجنرال دولاكروا قائده روس الخبير بشؤون الصحراء بالتوجّه صوب ورقلة التي احتلها في الثاني من شهر جانفي سنة 1872 بعد أن ظلّت في يد الثوار حوالي عشرة شهور.

هكذا احتل العدو مدينتي وادي ريغ تقرت وورقلة، وقد أدرك أهميتهما الاستراتيجية في صحراء الجزائر الشرقية، والخطورة التي شكلتها ثورة بوشوشة من خلال السيطرة عليهما. فقد جعل منهما الثوار قاعدتين هامتين للانطلاق في كل الاتجاهات، وضرب أعوان العدو في كل مكان، بل أصبحوا في كثير من الأحيان على مقربة من مراكز العدو الحساسة كبسكرة والأغواط. كما استقطب تحرير بوشوشة لورقلة وتقرت أنظار رموز المقاومة الآخرين ومنهم ابن شهرة وابن عبد الله وسي الزبير الذين انضموا إليه يناصرونه، ولكن تحوّل الظروف بشكل غير مناسب ساعد على ضياع المدينتين، واضطر بوشوشة إلى التراجع ودخل المرحلة الأخيرة من ثورته وهي مرحلة الهزيمة والانكسار.

إثر النجاح الذي حققه الجنرال دولاكروا باحتلال ورقلة وتقرت، قرّر ملاحقة الثوار في الجنوب مستغلا خبرة قائده روس بشؤون الصحراء وثقته فيه، فكلفه بهذه المهمة وزوّده بما يحتاج من عتاد وجنود بلغ عددهم حوالي 443 خيالا من القومية مقسمين إلى أربع مجموعات يقودها ضباط فرنسيون، وهي

مجموعة أولاد عبد النور وأولاد نابت من سطيف، ومجموعة سعيد عتبة، ومجموعة أولاد زكري، ومجموعة مخازنية علي باي وأتباع بيت بوعكاز.

وقد انطلقت هذه القوات في السابع من شهر جانفي 1872 من الرويسات تبحث عن الشريف بوشوشة وأتباعه، وفي التاسع من الشهر نفسه وقع الالتحام بين الطرفين قرب تامزقيدة، خسر فيه بوشوشة خمسة قتلى بينهم ابن أخ بن ناصر بن شهرة، وضيّع معظم زمالته التي استولى عليها العدو بما فيها من جمال وما تحمله من هوادج، والزرابي، والحبوب، وأكثر من مائة خيمة، وآلاف الأغنام، والعديد من الأسرى منهم سي عبد العزيز بن محمد قاضي ساحا القبلي السابق، وسي محمد بن حمودة قاضي مجانة السابق وهما من المقرانيين الفارين من الشمال عند بوشوشة[1].

وبعد هذا الا نكسار واصل الثوار طريقهم باتجاه الجنوب الغربي وخيّموا في قورد عيش. وهناك وقعت في الحادي العاشر من جانفي محاولة اغتيال بوشوشة من طرف مولاي العربي أحد أشراف ورقلة. وقد بقيت هذه الحادثة غامضة مدة طويلة، وقد ساق رين روايتين حول سبب هذه المحاولة، أما الرواية الأولى ومصدرها بني ثور فمفادها أن الهدف كان اختطاف السيدة فاطمة بنت جلول زوجة بوشوشة. وأما الرواية الثانية فتتهم بن ناصر بن شهرة بتدبير العملية طمعا في مبلغ مالي قدره 80000 فرنك كان عند بوشوشة، ولكن هذا المبلغ كما يقول رين كان بحوزة ابن شهرة منذ يوم المعركة في التاسع جانفي، وعليه فليس

(1)– Louis Rinn. Op Cit, p. 632 – 635.

لابن شهرة ولا للمقرانيين أي مصلحة في قتل الشريف[1]. ومهما كانت الأسباب فإن رين قد ساق هذه الحادثة للتدليل على ما آلت إليه حركة بوشوشة من انقسام وانشقاق وتزعزع الصف في نظره، مع أن المحاولة لا يستبعد أن تكون من فعل الفرنسيين أنفسهم.

وفي هذه الأثناء وقع الانشقاق في صفوف الثوار وتفرق شملهم كما يقول رين، فأما سي الزبير فقد اتجه إلى عين صالح رفقة البعض من أولاد سيدي الشيخ. وأما بن ناصر بن شهرة فقد قاد المقرانيين ودخل بهم إلى الحدود التونسية لاجئين، ما عدا بومزراق الذي وقع أسيرا لدى الفرنسيين بعدما ضلّ الطريق. وأما شعانبة بوروبة وبرزقة والشعانبة المواضي والمخادمة فقد أخضعتهم فرنسا خلال هذه السنة.

أما زعيم الثورة الشريف بوشوشة فقد رحل إلى عين صالح ومنها إلى كرزاز حيث أقام مدّة يحاول استرجاع قوته وتجديد زمالته لمواصلة الكفاح، ومنها إلى قورارة أين أغار على قرية بركان دون جدوى، ثم انتقل إلى بودة بتوات حيث اشتغل بإعادة بناء وتنظيم قواته لمواجهة العدو وأعوانه من جديد.

لقد استعاد الفرنسيون قوتهم وأصبح زمام المبادرة في يدهم، فأجروا تعديلاتهم الإدارية في الصحراء الشرقية، فرغم طموح عائلة ابن قانة إلى الرجوع إلى سالف عهدها في سوف وتقرت وورقلة إلا أن الفرنسيين كانوا لا يريدون دعم العائلات الكبيرة بل تفتيتها وتقليص صلاحياتها خصوصا عائلتي بن قانة وبوعكاز. ولذلك لم يُسلِّم الجنرال دولاكروا مقاليد السلطة إلى بولخراص بن قانة بل سلَّمها

(1)– idem, p. 636.

إلى وجوه جديدة غير معروفة، مهمتها ليس التغني بالنبل والأرستقراطية ولكن بالولاء لفرنسا وخدمة التقدَّم الذي كان يدعيه الفرنسيون[1].

ومن هذه الوجوه الجديدة محمد بن الحاج بن إدريس، وهو من مواليد الوطاية القريبة من بسكرة سنة 1835، وهو ليس من العائلات الكبيرة، وكان يحمل الجنسية الفرنسية، وخدم في الخيالة (الصبائحية)، ولعلَّه من خرّيجي مدرسة قسنطينة خلال الستينات، وكان متفرنسا جدا في حياته الإدارية والاجتماعية، ومن الموهوبين. لهذه الأسباب وجد فيه الجنرال دولاكروا الرجل المناسب فعينه آغا ورقلة في الثاني من شهر فبراير سنة 1872، كما سمّى أخاه سعيد بن إدريس المتجنّس بالجنسية الفرنسية أيضا خليفة له. أما تقرت فقد أسند إدارتها لضباط فرنسيين في شهر ماي من السنة نفسها مع استحداث مكتب عربي بها[2].

ومن تلك الوجوه أيضا العربي المملوك الذي عيّنه قائدا على سوف وتابعا لابن إدريس، وكان هذا الاختيار قائما على مجموعة أسس أوّلها: كون المملوك من جنود الصبائحية، وأنه من أصل إيطالي، وأنه اعتنق الاسلام وأتقن العربية، وكان يتميز بالشجاعة واللين والنشاط وله سمعة بين الناس، وأنه يمثل وجها جديدا في المنطقة، مما يجعله بعيدا عن النزاعات القبلية والصفوف العائلية، فيرتكز ويعتمد

(1)- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج. 1، ص. 283.

(2)- Louis Rinn. Op Cit, p 657. Peyronnet Robert. Livre d'Or. Alger, 1930, p. 444.

على القوات الفرنسية لا على النفوذ العائلي الارستقراطي، مثله في ذاك مثل سابقه ابن إدريس[1].

وفي جويلية 1873 ظهر بوشوشة ما بين الأغواط والبيض ومن هناك إلى المنيعة باحثا عن الأنصار والدعم المادي لمواجهة العدو وفي نيته اقتحام ورقلة من جديد، كما جرى في السنة نفسها اغتيال العربي المملوك. وهذا ما أساء إلى سمعة ابن إدريس، وجعل الفرنسيين يرجعون إلى المنطقة بقيادة الجنرال ليبير الذي خلف دولاكروا على رأس القطاع القسنطيني، لنزع الفتيل قبل أن يمتد لهيبه.

وفي الثالث عشر من فبراير 1874 ظهر بوشوشة في مطماط شرق الحجيرة مصمما على ضرب العدو وأتباعه كعادته دون ملل ولا كلل، فاستولى على 250 جمل في هذه الحركة الخاطفة، فكلّف الجنرال ليبير السعيد بن إدريس بملاحقته، فقام بذلك في التاسع عشر من فبراير في حاسي بوكلوة ولكنه فشل. إنّ تنامي خطر بوشوشة من جديد رأى فيه محمد بن إدريس آغا ورقلة اساءة لسمعته واتهاما له بالتقصير فقرر ألا يبقى مكتوف اليدين فكلف أخاه السعيد بمهمة الملاحقة ووضع بين يديه 260 خيّال و35 مهري ووزّع عليهم المؤونة التي تكفيهم لمدة خمسة عشر يوما.

وانطلقت الحملة في الرابع من شهر مارس سنة 1874 تبحث عن بوشوشة، و استمرت المطاردة هذه المرّة مسافة خمسة أيام جنوب عين صالح. وفي المكان المسمى الميلوك ألقى بعج بن قدور بن مبارك، قايد السعيد عتبة وأحد رجال السعيد بن إدريس، القبض على بوشوشة يوم 31 مارس وقد جرح جرحا

(1)- للمزيد عن العربي المملوك ينظر: Henri Garrot. Op. Cit, p. 988.

بليغا وسقط في دمائه، فاقتادوه مع مجموعة من المعتقلين إلى ورقلة، بعد أن استولوا على معظم زمالته وأمواله[1]. فاستحق أبطال عملية شرف القبض على بوشوشة أوسمة الشرف والنياشين التي خلعتها عليهم فرنسا لأنهم خلصوها من عدو لم يظهر مثله منذ الأمير عبد القادر.

ومن ورقلة اقتيد الشريف بوشوشة إلى العاصمة مرورا بالأغواط، لعرضه على المجلس الحربي على اعتبار أنّ ورقلة أصبحت تابعة لمقاطعة الجزائر العسكرية ابتداء من الثاني والعشرين من شهر ماي 1874، وكان ذلك في عهد الحاكم العام الجنرال شانزي. ونظرا لتورّط بوشوشة في أحداث تقرت أيضا، فقد أحيل على مجلس قسنطينة الحربي، حيث أحضر له الفرنسيون الشهود، ودامت محاكمته كمجرم حرب مدة خمسة عشر يوما، وانتهت بإصدار حكم الإعدام رميا بالرصاص.

وأثناء المحاكمة طلبوا منه أن يتكلم فكشف عن رقبته وجسمه، فإذا فيه آثار جروح غائرة لا يمكن لمن أصيب بها أن يعيش أبدا، وقال لهم: " انظروا إنني لا أخشى الموت، إني أعلم أنكم ستحكمون عليّ بالقتل، لقد تعرضت للخيانة والغدر ومحاولة الاغتيال ممّن خدمتهم، ولم يبق سوى الموت، فأتوسل إليكم أن تريحوني من أسئلتكم ومن تثاقلكم، وأن تقتلوني حالا بالرصاص، فليس عندي ما أقول"[2].

وبعد ثلاثة أشهر من صدور حكم الإعدام، تمّ تنفيذه بمعسكر الزيتون قرب قسنطينة يوم 29 جوان 1875، أين تقدم بوشوشة إلى الموت بكل صبر

(1)- C. Le Chatelier. Les Medaganat, pp 50 - 51.

(2)- Louis Rinn. Op Cit, p 662.

وشجاعة، هادئا ومستسلما للقضاء والقدر، وكأنه يخبّئ قلبا من البرونز وطاقة من حديد كما وصفه أعداؤه، ويكاد بوشوشة يكون هو الزعيم الوحيد المعروف الذي حاكمه الفرنسيون في مجلسهم الحربي وأعدموه. تلك هي نهاية هذا البطل الذي ارتبط اسمه بأحداث الصحراء أكثر من عشر سنوات.

الطريقة الرحمانية

الطريقة الرحمانية

مؤسسها و انتشارها

مؤسسها هو الشيخ محمد بن عبد الرحمن الزواوي الأزهري من قبيلة آيت اسماعيل من عرش قشطولة شمال جرجرة، ليس له تاريخ ميلاد متفق عليه ولكن قدّره بعضهم بين سنتي 1715 و1728م، وكانت وفاته بالجزائر سنة 1793م. وبعد تعلّمه بزاوية الشيخ الصديق بن أعراب رحل إلى المشرق سنة 1739م حيث قضى هناك أكثر من ثلاثين سنة، وفي الجامع الأزهر الذي مكث فيه طويلا تتلمذ لسالم النفراوي وعمر الطحلاوي وحسن الجداوي والعمروسي، وعن الشيخ محمد بن سالم الحفناوي أخذ الطريقة الخلوتية أصل الرحمانية، ثم عاد إلى قرية آيت اسماعيل سنة 1770م لنشر طريقته وأفكاره بين أهل بلاده حيث أسس زاويته هناك[1].

وقبل وفاة الشيخ الأزهري عيّن خليفة له على الزاوية الأم وهو الشيخ علي بن عيسى المغربي الذي أدارها تعليما وطريقة من سنة 1794 إلى 1837م، وقد انتشرت تعاليم الزاوية وكثُر عدد الأتباع الرحمانيين بوسط البلاد وشرقها وجنوبها في عهده الذي طال. وقد تداول على إدارة الزاوية بعد موته كل من الشيخ الحاج البشير، والشيخ بلقاسم الحافظ، فالحاج عمر الذي احتل الفرنسيون الزاوية في عهده سنة 1857م.

(1)– Marabouts et Khouans. Alger, 1884, p. 452 – 453. Louis Rinn.

هذا بالنسبة للزاوية الأم في وسط البلاد، أما عن انتشار الطريقة في شرق البلاد وجنوبها، فمن المعلوم أنّ الشيخ الأزهري كان قد عيّن الشيخ محمد بن عبد الرحمن باش تارزي مقدما للطريقة في قسنطينة وهو شيخ جمع بين العلم والتصوف، وقد ورّثها هو بدوره لابنه مصطفى فتوارثتها العائلة مدة طويلة. كما ورّثها لشيخ آخر خارج قسنطينة وهو محمد بن عزوز البرجي (1757-1819م) من برج طولقة الذي أصبح مقدما للرحمانية في الجنوب وفي الجريد التونسي أيضا، ونظرا لشهرته وكثرة أتباعه غدا وكأنه مؤسس لطريقة جديدة تسمى العزوزية الرحمانية.

وقبل وفاته عيّن الشيخ محمد بن عزوز مقدّمين من تلاميذه نشروا العلم في شمال شرق الصحراء وأنشأوا زوايا لهم هناك، ومنهم علي بن عمر صاحب زاوية طولقة، والشيخ المختار بن خليفة صاحب زاوية أولاد جلال، وعبد الحفيظ الخانقي صاحب زاوية خنقة سيدي ناجي جنوب الأوراس، ومبارك بن خويدم والصادق بن الحاج في الأوراس، وهي كلها زوايا رحمانية، ويذكر الحفناوي أن الشيخ ابن عزوز لما أدّى فريضة الحج سنة 1816م كان برفقته بعض هؤلاء التلاميذ، وكان في ذلك الركب أيضا السلطان مولاي عبد الرحمن قبل اعتلائه عرش المغرب وقد لازم الشيخ ابن عزوز وتوطدت العلاقة بينهما لما رآه من كماله واستمرت تلك العلاقة عن طريق المكاتبات والمراسلات حتى بعد اعتلائه العرش[1].

(1) الحفناوي أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1982، ج. 2، ص. 482.

كما ترك الشيخ محمد بن عزوز ثمانية أولاد أدركوا كلهم الاحتلال الفرنسي وجاهد أكثرهم مع الأمير عبد القادر، وكان الحسن أكبرهم وهو خليفة الأمير عبد القادر في الجبال الشرقية. ولمّا ألقى الأمير السلاح بقي الحسن رفقة إخوته رافعين السلاح ضد فرنسا بالأوراس وقد جهدت في البحث عنهم ونجحت في ذلك حيث ألقت القبض على الحسن وأودعته السجن في عنابة إلى أن مات هناك. وكان من أشهر الإخوة الباقين وأكبرهم وأعلمهم مصطفى بن محمد بن عزوز الذي هاجر رفقة إخوته تارزي وعباس ومحمد إلى جنوب تونس حيث استقروا في نفطة بالجريد، وهناك في نفطة أسس زاويته الشهيرة وأخذ ينشر العلم والطريقة الرحمانية.

وعلى العموم فإنّ هذه الطريقة كانت واسعة الانتشار في الجزائر وكثيرة الأتباع الذين بلغ عددهم سنة 1897م حوالي 160 ألفا في مجموع الزوايا التي دُرِست، وهذا ما تؤكده الرواية الفرنسية التي كانت تدعو دوما للحذر من الرحمانيين وتدعو إلى مراقبتهم. فهذان ديبون وكوبولاني يقولان: إنّ الرحمانية انتشرت بسرعة عبر الجزائر في أقل من قرن وانضمت إليها شريحة كبيرة من الشعب، وإنّه يمكن مقارنتها بكنيسة وطنية مقسمة إلى أكثر من عشرين فرعا بقساوستها وكهنتها ومسؤوليها. ولكنها كنيسة بدون وحدة إدارية أي بدون بابا، فهي ممزقة وإنّ ممثليها يتنافسون فيما بينهم تبعا للمصالح الداخلية، وهم يديرون زواياهم باستقلال ويجلبون الأتباع لأنفسهم. ولحسن الحظ يضيف الكاتبان أنه لم يكن لهؤلاء الرحمانيين قوة محركة واحدة تتمثل في شيخ واحد

وزاوية واحدة، وإلا لكانت العواقب وخيمة على الفرنسيين، وقد تنبّأ الكاتبان بأنّ الرحمانية ستتلاشى مع الأيام وتنتهي عاجلا أو آجلا بالاختفاء من مسرح الحياة[1].

هكذا درس الفرنسيون مكامن القوة والضعف لدى تلك الطرق، وصنّفوا القويّ منها والضعيف، والخطير والمسالم، والمتعاون والمتمرد، فتعاملوا معها انطلاقا من هذا الواقع فسهل عليهم استغلال تلك الثغرات واستثمارها في ضرب تلك الطرق منفردة أو ضربها ببعضها، ولم تكن آفة الخلاف والصراع وعدم توحيد الصفوف في مواجهة العدو مقتصرة على طريقة دون أخرى.

أما عن دور الطريقة الرحمانية في المقاومة الشعبية، فإنه من المعلوم ما إن وطأت أقدام المحتل الغاصب أرض الوطن حتى هبّت الأمة الجريحة بمختلف شرائحها تقاومه وتعمل على ردّه من حيث أتى، وقد شاركت الطرق الصوفية في هذا العمل مشاركة فعالة حيث تصدى زعماؤها وأتباعها للمقاومة طوال القرن 19م، سواء بصفة انفرادية أو رفقة السياسيين والعسكريين.

ولكن الطرق الصوفية لم تكن هي كل شيء فالأمة بأكملها كانت مستعدة للتضحية والفداء وقد تحملت في سبيل ذلك الكثير، أما دور هذه الطرق فهو إعطاء القيادة وترويج الفكرة وتوحيد الكلمة، لأن الحماس الديني والوطني كان قدرا مشتركا بين الجميع، وقد ظل هذا الحماس الديني لدى الطرق الصوفية قائما طوال عقد الثلاثينات والأربعينات من القرن 19، فلا نكاد نجد حركة مقاومة إلا ومن ورائها مرابط أو شريف يحث الناس على النصر أو الاستشهاد، وبحلول عقد

(1)– Depont (O) et Coppolani (X). Les confréries religieuses musulmanes, p. 411 – 412.

الخمسينات نلاحظ بروز الطريقة الرحمانية بشكل أكثر كثافة وخطورة، إذ كانت وراء العديد من الثورات في الشمال والجنوب، وهي الثورات التي سنقف عند بعضها فيما يلي.

الرحمانية وثورات بلاد القبائل

إن المنطقة الواقعة بين دلّس وبجاية شمالا، وبين سور الغزلان وسطيف جنوبا والمعروفة ببلاد القبائل قد اشتهرت بسكانها الأشداء الذين طالما تحدّوا كل المحاولات لإخضاعهم، والذين كانوا يشكلون وحدات مستقلة يربطهم شغفهم الشديد للحرية، وقد حافظوا على عاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم وسط دول متقلبة قامت وسقطت من حولهم، وكانت بمثابة خزان للجنود بالنسبة لمن يكسبها إلى جانبه، كما بقيت عصيّة على الفرنسيين حتى سنة 1857 رغم احتلالهم لكل المنطقة الشمالية.

كانت الزوايا في بلاد القبائل رغم كثرتها تتبع في أغلبها للطريقة الرحمانية غداة الاحتلال الفرنسي للجزائر، وكانت تتمتع بنفوذ روحي واسع الأمر الذي أكسبها هيبة كبيرة في المنطقة وأهّلها للقيام بدور سياسي وعسكري حاسم في المقاومة الشعبية، مصداق ذلك لمّا نزل العدو بسيدي فرج في جوان 1830 وطلب الداي حسين من أهل منطقة القبائل دعم صفوفه للجهاد استجابوا بسرعة لندائه. واستعدادا لذلك طلب الأعيان وشيوخ الزوايا من جميع الأطراف المتحاربة الكف عن الصراعات والنزاعات المحلية والشروع في إعداد العدة وإعلان النفير العام، وكان عدد المجاهدين الذي جنّدتهم منطقة القبائل حوالي خمسة وعشرين

ألف مجاهد أي ما يعادل نصف الجيش الذي واجه به الداي حسين الفرنسيين في معركة سطاوالي.

وكان خروج هؤلاء المجاهدين في جو حافل ومهيب وهو من الأحداث والأيام المشهودة في تاريخ المنطقة، وقد ساروا إلى ساحة المعركة في نظام وترتيب محكمين تحت قيادات الأعيان والمرابطين ورايات الزوايا مثل زاوية الشيخ أعراب، وزاوية سيدي عبد الرحمن بوقبرين، وزاوية سيدي منصور، وزاوية عرش آيت غبري، وزاوية سيدي ابن إدريس، وزاوية سيدي علي أوموسى، وغيرها من الزوايا[1]. وقد استمرت زوايا المنطقة بقيادة الطريقة الرحمانية بعد ذلك في تجنيد المجاهدين وتعبئتهم ضد العدو كلما دعت الضرورة إلى ذلك ابتداء من ثورة الأمير عبد القادر وحتى ثورة المقراني.

تحالف الرحمانية مع الأمير عبد القادر

لقد توطدت صلة الأمير عبد القادر ببلاد القبائل سياسيا وعسكريا عن طريق الزاوية الرحمانية الأم، إذ لما مرّت هذه الزاوية ببعض الصعوبات بعد موت خليفتها علي بن عيسى المغربي سنة 1837م، وافتقرت إلى قيادة حكيمة، تقدم الحاج البشير لمشيختها ولكنه لم يكن محل إجماع مما أدى إلى تدخل الأمير عبد القادر لتقريب وجهات النظر وترجيح كفة الحاج البشير بطلب من السيدة

(1) – عن القائمة المفصلة بأسماء الأعراش وأعيانها والشيوخ والمرابطين والزوايا الذين تكوّن منهم جيش منطقة القبائل وشاركوا مع الداي حسين في معركة سطاوالي، يُنظر:

J. Robin. Notes Historiques sur la Grande Kabylie (1830-1838). Revue Africaine, 1876, p. 48.

خديجة أرملة علي بن عيسى. ولكن في إحدى المرات اضطر الحاج البشير إلى مغادرة الزاوية والتوجه إلى الأمير عبد القادر، وتولت السيدة خديجة شؤونها نيابة عنه، فتدخل الأمير من جديد لإصلاح ذات البين فرجع الحاج البشير إلى رئاسة الزاوية واستمر كذلك حتى سنة 1841م[1].

كانت أقاليم دولة الأمير عبد القادر منذ سنة 1832م أربعة وهي تلمسان بقيادة الخليفة البوحميدي الولهاصي، ومعسكر بقيادة الخليفة مصطفى بن التهامي، وملیانة بقيادة الخليفة محمد بن علال، والمدية بقيادة الخليفة محمد البركاني، وبعد معاهدة التافنة في 30 ماي سنة 1837 أضاف إليها الأمير أربعة أقاليم أخرى هي مجانة بقيادة الخليفة محمد بن عبد السلام المقراني، والأغواط بقيادة الخليفة الحاج العربي بن عيسى، وبسكرة بقيادة الخليفة فرحات بن سعيد ثم حسين بن عزوز، وحمزة (بلاد القبائل) بقيادة الخليفة أحمد الطيب بن سالم، ولعل الخليفة الأخير هو الذي يهمنا في هذا المقام.

ففي شهر ديسمبر سنة 1837م حلّ الأمير عبد القادر بمدينة بوسعادة حيث استقبله أهلها معلنين طاعتهم له، ثم توجه منها إلى قصر الشلالة ثم إلى حمام خشنة في ونّوغة أين وصل في التاسع عشر من الشهر نفسه، وهناك قدم إليه أحمد الطيب بن سالم وعرض عليه خدماته، فاستقبله الأمير بكل حفاوة وعيّنه خليفة على منطقة القبائل، وكان هذا التعيين في محلّه إذ كان بن سالم أقوى هؤلاء الخلفاء الأربعة الجدد وأتقاهم لورعه وقوّة شكيمته وبسط إدارته على المنطقة.

(1)- Louis Rinn. Marabouts et Khouans, p. 457.

وتذكر المصادر الفرنسية أن أحمد الطيب بن سالم من شرفاء بلاد القبائل وأن أصله مغربي لأنّ أحد أجداده وهو سالم بن مخلوف استقر بالمنطقة مع مطلع القرن السادس عشر، قبيل مجيء الأتراك العثمانيين، وأسس زاوية في قبيلة بني جعاد للتدريس عُرفت باسم زاوية سيدي سالم، ومع مرور الوقت تحول اسم الزاوية إلى القبيلة التي كانت تتكون من حوالي عشرين فرعا صغيرا، وأصبحت عائلة بن سالم محل تقدير واحترام كبيرين في المنطقة وصاحبة مكانة ونفوذ عظيمين، ولما تأسست الطريقة الرحمانية في القرن التاسع عشر انتسبت إليها هذه العائلة وزاويتها.

وغداة الاحتلال الفرنسي للجزائر كان على رأس الزاوية محمد بن سالم الذي أصيب بجروح بليغة أدت إلى وفاته أثناء الفوضى والاضطرابات التي أعقبت سقوط الحكم العثماني، فتولى شؤون الزاوية بعده ابنه الأكبر الخليفة أحمد الطيب وهو من مواليد مطلع القرن التاسع عشر حسب تقديرات الرواية الفرنسية التي تقول إنّ سنّه كان يتراوح سنة 1847م بين الأربعين والخمسة والأربعين سنة. وكان أحمد الطيب متوسط القامة، وصاحب لحية داكنة السواد، حاد الذكاء، لا تنقصه الاستقامة والحكمة، لين العريكة ولا يقبل المساومة، نشيط الحركة، راسخ الاعتقاد في وجوب الجهاد ضد العدو، مشهود له بالشجاعة في المعارك وحسن قيادتها[1]، ولم تخبرنا المصادر هل كان بن سالم من مقدّمي الطريقة الرحمانية أم من إخوانها فقط.

---

(1)- E. Daumas. La Grande Kabylie. Paris 1847, p 143. J. Robin. Notes Historiques sur la Grande Kabylie (1838-1851). R. Africaine 1902, p- 44.

وبعد تعيين الأمير عبد القادر لأحمد الطيب بن سالم خليفة له على بلاد القبائل في التاسع عشر من شهر ديسمبر سنة 1837م، خيّم في برج حمزة (البويرة) لبعض الوقت ثم قام بحملة تأديبية ضد كراغلة الزواتنة في بودربالة لأنهم رفضوا طاعته وأعلنوا خضوعهم للفرنسيين وذلك في الرابع والعشرين من الشهر نفسه. وهناك في بودربالة ومن أجل تسهيل مهمة الخليفة بن سالم قام الأمير بتنظيم بلاد القبائل وتعيين الأغوات التابعين له، فنصّب الحاج محمد بن زعموم آغا على قبائل فليسة أم الليل، وقشطولة، وحرشاوة، والنزليوة، وبني خلفون، والزواتنة، وعمّال، وخشنة. أما بلقاسم أوقاسي فقد نصّبه آغا على عمراوة وكل قبائل وادي سباو. واحتفظ بن سالم بالإشراف المباشر على بني جعاد وقبائل أعالي وادي الساحل.

وفي بداية خلافته قام بن سالم بإصلاح البرج التركي القديم وأقام فيه حوالي سنة قبل انتقاله إلى برج بلخروب، وشرع في تنظيم المنطقة عن طريق جمع الزكاة والعشور من القبائل وتعيين القياد، فنصب مصطفى بن عمر قائدا على قبائل يسر، وعيّن على دلّس قائد المرسى المولود بن الحاج علال، وعلى تاورغة الآغا الحاج عمر بن محي الدين. كما عزّزه الأمير عبد القادر بتجهيزات عسكرية منها آغا للجيش، وستة سيافين، وأكثر من مائة وعشرين خيمة، وستمائة بدلة، وكمية من الأسلحة وغيرها من اللوازم، ولم يبق أمام بن سالم سوى الشروع في تجنيد الرجال وهي عملية سهلة[1].

(1)– Joseph Robin. Op Cit, p 48.

وفي سبتمبر سنة 1839م قام الأمير عبد القادر بزيارة مفاجئة إلى بلاد القبائل مصحوبا بأقل من مائة فارس حيث استقبله الخليفة بن سالم في برج حمزة ومن هناك انطلق في زيارته التي قادته في طريق الذهاب إلى عدة قرى ومدن وزوايا وقبائل، ومنها برج بلخروب مقر سكنى بن سالم، وبرج بوغني، وخميس المعاتقة، وزاوية أولاد سيدي علي أوموسى، وتيزي وزو، ودلس، وزاوية سيدي عمر الشريف، وحوش النخل، وزاوية بومرداس، وبنو عائشة، وتامزغيت، وسيدي نعمان، وآقبو عند بني غبري وبني وغليس، وتوجة، وتامزالت من عائلة أولاد أورابح، وآيت بومسعود قرب بجاية[1].

وانتشر الخبر في بلاد القبائل بأن الأمير عبد القادر في ديارهم فتداعى السكان من كل جانب لرؤيته وإلقاء التحية عليه، وهناك في زاوية أولاد سيدي علي أوموسى تجمّع الآلاف منهم حول خيمته التي غصّ مدخلها بالشيوخ والمرابطين، واشتدّ الزحام حولها وراح البعض يتسلل بخشونة ويرفع أطرافها لإشباع فضوله، ولكن مرافقي الأمير منعوهم فتدخل بلطف وقال لمرافقيه دعوهم يقتربوا إنهم أشدّاء صلاب مثل جبالهم، أعذروهم فلا تستطيعون تغيير طباعهم في يوم[2].

ولمّا طلب الأمير منهم رؤية زعمائهم تقدّم إليه الأمناء والمرابطون مرحّبين فسألهم عمّن فيهم يمثل الجميع، فكان جوابهم أن ليس عندهم زعيم

---

(1)- لمزيد من التفاصيل عن طريق الذهاب الذي سلكه الأمير عبد القادر في بلاد القبائل وأهم الأحداث التي تعرض لها في رحلته ينظر: E. Daumas. Op Cit, p 191.

(2)- E. Daumas. Op Cit, p 192.

واحد يمنحونه كل الصلاحيات، ولكن الأمناء الذين تمّ انتخابهم هم المعبّرون عن الإرادة العامة، وهنا أمر الجميع بالجلوس وافساح المجال فتكونت دائرة كبيرة ووقف في وسطها والسبحة في يده مخاطبا إيّاهم بأسلوبه المثير.

فقال لهم إنّني لم آت إليكم مثل الأتراك لأفرض عليكم نفسي بالقوة، ولكنني جئت إليكم كحاج بسيط معتمدا على قضية الحق التي أدافع عنها، قضية الله ورسوله. فقد هزمت الكفار الذين جاءوا لاحتلال أرضكم أكثر من مرّة، وكان كفاحي ضدّهم مجيدا من أجل الإسلام، إنّ كل غرب الجزائر قد أطاع أوامري، وإذا شئت فإنه من السهل عليّ أن أخضع شرق البلاد بغربها. وتأكّدوا أنني لو لم أقف بشدة في وجه الفرنسيين المعتدين، ولو لم أظهر لهم ضعفهم وعدم قدرتهم، لانقضوا عليكم انقضاض البحر الهائج، ولرأيتم عندئذ ما لم يخطر على بال أحد.

وأضاف الأمير قائلا، إن الفرنسيين قد تركوا بلادهم ولم يأتوا إلا لاحتلال أرضنا واسترقاق أهلها، غير أنّي سأكون لهم الشوكة التي وضعها الله في أعينهم، وإذا ساعدتموني فسأرميهم في البحر، وإذا لم تساعدوني فإنهم سيدوسون حرماتكم، فاستيقظوا يا أهل جرجرة وانتبهوا من غفلتكم، وثقوا أنني لا أرغب سوى في سعادة وصلاح ورفاهية جميع المسلمين، وكل ما أطلبه منكم اليوم هو الطاعة والمحافظة التامة على مبادئ ديننا الحنيف لكي ننتصر على الكفار، ولا أطلب منكم لتعضيد جيشنا سوى ما فرضه الله العلي القدير من زكاة وعشور، إنني لا أرغب في تغيير تقاليدكم ولا في إبطال قوانينكم وأعرافكم، ولكن العمليات الحربية تتطلب مسؤولا، لذلك فإنني أدعوكم للجهاد في سبيل الله فاختاروا رئيسا

عليكم، إنني أقترح عليكم بن سالم فإذا اخترتموه فسيكون لكم كالبوصلة في ساعات الخطر والعسر، إنني أحاول اقناعكم بالتي هي أحسن لا بالقوة وإنني أدعو الله أن يهديكم إلى سواء السبيل[1].

ثم واصل الأمير جولته السلمية في بلاد القبائل وسط الأفراح والتهاليل، فكلما عرف السكان مكان اقامته هرعوا إليه ببساطتهم وحماسهم حاملين إليه ضيفتهم التي كانت عبارة عن جفان كبيرة من الطعام المغطى باللحم، وكل واحد منهم كان يضع قصعته أمام خيمة السلطان ويصرّ على أن يتناول منها قائلا له: كل هذه ضيفتي، وكان الأمير مضطرا أن يذوق من كل قصعة على حدة تفاديا لجرح العواطف.

لقد جعلت تلك الرحلة إلى بلاد القبائل الأمير عبد القادر معروفا بين أهلها ومحل احترام وتقدير، فلطف وبشاشة أخلاقه، وشهرة ورعه، واسمه المعروف كعالم، ولقبه المبجل كحاج ومرابط، وسمعته الطائرة كمحارب شجاع، وبيانه الساحر كخطيب، كل ذلك جعل دعوته لا تقاوم، ولم يكن هناك أحد رآه وسمعه من بين أولئك الجبليين الأشداء الأحرار يستطيع أن يتخلص من قوة تلك المؤهلات الخارقة مجتمعة، لقد نجح عبد القادر في كسب جرجرة إلى جانبه[2].

وتنفيذا للخطة التي وضعها الأمير عبد القادر من أجل محاصرة العاصمة كونها مركز السلطة الفرنسية في الجزائر، وتطبيقا لتعليماته الصادرة إلى خلفائه في

---

(1)- E. Daumas. Op Cit, p 193-196.

(2)- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2004، ص 199.

هذا الشأن، جمع الخليفة بن سالم قواته بجبل بوزقزة منتظرا إشارة كل من الخليفتين البركاني وبن علال لبدء الهجوم على العاصمة وضواحيها، وهو ما قام به في العشرين من شهر نوفمبر سنة 1839م على رأس ألف فارس من قواته التي أقدمت على تخريب مزارع المعمرين وقتل أعداد منهم ومطاردة آخرين إلى العاصمة. وقد أشاد الأمير بأعمال خليفته وجنوده وأثنى عليهم ودعاهم مجددا للجهاد وتلبية نداء المقاومة فاحتشدوا هذه المرة قرب بودواو لمهاجمة الحامية الفرنسية المتمركزة هناك، ولكن الحامية تصدّت لهم بالمدفعية وسدّت منافذ تحصيناتها أثناء المعركة التي دامت يوما كاملا، وقد انسحب بن سالم بقواته مفضلا فرض الحصار الاقتصادي على العاصمة بقطع كل العلاقات التجارية بينها وبين منطقة القبائل في انتظار الأوامر الجديدة من الأمير[1].

وفي شهر سبتمبر 1840م قام المارشال فالي بإخلاء حصن قارة مصطفى الواقع على بعد ألف وخمسمائة متر من الضفة اليسرى لوادي بودواو، وأبقى على حامية صغيرة مجهزة بالمدفعية والذخيرة اللازمة لإحكام السيطرة على المنطقة. ولما علم الخليفة بن سالم بذلك قرّر الزحف على تلك الحامية فحاصرها ومنعها من الماء، ولم تتمكن القوات الفرنسية المتواجدة في الحميز من إغاثتها، فانطلق الجنرال شانقارنييه من العاصمة ليلا في السابع عشر من الشهر المذكور لنجدة الحامية المحاصرة وهاجم بقواته في الصباح الباكر بن سالم وجنوده، وكانت نتيجة هذا الهجوم المباغت أن قتلت القوات الفرنسية أكثر من مائة وعشرين جنديا في

(1)- J. Robin. Notes Historiques sur la Grande Kabylie (1838-1851), p. 60-61.

صفوف بن سالم وأسرت أحد عشر واستولت على أكثر من أربعين حصانا ومائتي بندقية[1]. ولم تمنع هذه الهزيمة بن سالم من مهاجمة القوات الفرنسية وبعض عملائها من جديد بمنطقة الحراش في شهر أفريل من السنة الموالية، وكان هذا آخر هجوم قاده بن سالم بنفسه على متيجة حسب الرواية الفرنسية[2].

وخلال سنة 1843م قام الفرنسيون بإنشاء خطوط ودعّموا الخطوط القديمة للدفاع والحضور الاستعماري ومنها انشاء مدينة الأصنام واحتلال تيارت وبوغار، كما شهدت هذه السنة خسارة كبيرة للمقاومة وهي وقوع الزمالة عاصمة الأمير المنتقلة في يد العدو وذلك في السادس عشر من شهر ماي، وقد خسر فيها كل ثروته من أموال وحيوانات وحلي وتموين وكتب وأسرار فضلا عن الوقع المعنوي الذي تركته على الشعب. ولم يتوقف ضغط العدو على الأمير خلال بقية هذه السنة وأصبح شخصيا هو الهدف حيث كانت تبحث عنه الفرق العسكرية في كل مكان ولكنه كان يفلت منها بأعجوبة، كما فقد أحد رجاله الأوفياء والأكفاء وهو خليفته ابن علال[3].

ولمّا انقطعت أخبار الأمير ورسائله عن خليفته بن سالم بسبب الظروف والتطورات السالفة الذكر كتب إليه من جبال جرجرة مستفسرا: "الحمد لله وحده، بعد الثناء والدعاء، وأداء واجب الإعظام والإفخام، فإننا معاشر عبيدكم

---

(1)– E. Pélissier de Reynaud. Annales Algériennes. Paris 1854. T 2, p. 404.

(2)– Joseph Robin. Op. Cit, p. 65.

(3) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج. 1، ص. 260.

متعطّشون إلى مكاتيبكم، ومن المعلوم أن ما تسطره يدكم الشريفة يحيي النفوس منا والآمال، وقد أشاع المرجفون ما لا نقدر على ذكره، ودخل الشك على الناس في وجودكم الشريف وأشاعوا أن والدتكم تصدر المكاتبات والتحارير اللازمة باسمكم الكريم، وقد بلغني أنّ الفرنسيين عازمون على الزحف إلى بلادنا، وليس عندي ثقة أكيدة بطاعة القبائل وانقيادهم إلى كلمتي، وإن كان تأخركم عنّا لظنّ أنّ الخليفة السيد محمد البركاني يساعدني وينجدني، فهو مع ما هو عليه من مصادمة العدو بعيد أن يساعدني وينصرني، وعلى كل حال فأنا أسألكم بالله تعالى أن تردّوا لي الجواب عن هذا المكتوب بخطّ يدكم الشريفة"[1].

فأجابه الأمير بخطّه قائلا: "إنّي اطلعت من مكتوبكم مخبرا بأنّ خبر موتي قد امتدّ في الشرق، فاعلم أنّ الموت لا مفر منه ولا محيد عنه، إذ هو من قضاء الله الذي لا يُردّ ولا يُصدّ، وإنّي أحمد الله إذ لم تأت ساعتي بعد، ولم يزل عندي من القوّة والاقتدار ما أؤمّل به مهاجمة أعداء ديننا، فكن في راحةٍ ساكن البال صبورا، ومتى استقرّ الأمر لنا هنا نتوجّه إلى نواحيكم"[2].

لم يكتف بن سالم بهذه الرسالة بل أرسل عددا من زعماء القبائل لجمع المعلومات عن تحركات الأمير، وأثناء ذلك قادهم الحظ السعيد، بدون توقع، إلى العثور على الأمير نفسه الذي استقبلهم بودّ وكرم واستمع بشغف إلى تقاريرهم عن حالة الحرج التي يعيشها خليفته، وقد عزاهم بكلمات التطمين والتثبيت، ولمّا

---

(1)- محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر. بيروت: دار اليقظة العربية، 1964، ج. 1، ص. 441.

(2)- المصدر نفسه.

عزموا على العودة أعطاهم فرسا مجللا بأنواع الزينة هدية لابن سالم مع رسالة جاء فيها: "كن صبورا في المحنة لأنّ ذلك هو محك النفوس الكبيرة، شجّع المسؤولين معك وأعنهم وساعدهم، وجرّب مدى طاقاتهم واحتمالهم بالعطف والتقدير، إنّ هذه الحالة لا يمكن أن تدوم إلى الأبد، إنني آمل أن أكون معكم قريبا، وأرجو أن تقبل الفرس الذي أرسلته إليك فقد كان هدية أهداها إليّ مولاي عبد الرحمن (سلطان المغرب) وقد يكون مناسبا لك"[1].

وفي الرابع عشر من شهر أفريل سنة 1844م بعث المارشال بيجو إلى زعماء قبائل فليسة وعمراوة وبني خلفون ونزليوة وقشتولة وأولاد عزيز وحرشاوة رسالة يطلب منهم فيها التخلي عن مؤازرة الأمير عبد القادر وطرد الخليفة بن سالم من بلادهم، وتوعدهم في نفس الوقت إن لم يقوموا بذلك ويأتوا إليه خاضعين ومذعنين فسوف يتخذ ضدهم أقسى العقوبات ويحرق قراهم ويقتلع أشجارهم، كما أرسل إليهم رسائل أخرى مماثلة ولكن دون جدوى إذ كان يأتيه الردّ دائما برفض مطالبه وتهديداته بل وتحدّيه[2].

بعدما يئس الجنرال بيجو من استسلام سكان بلاد القبائل وطردهم للخليفة بن سالم وتأكّد أن لا جدوى من سياسة التهديد والوعيد التي حاول الضغط بها عليهم، لجأ إلى سياسة العنف واستعمال العصا الغليظة حيث شنّت قواته هجوما أكثر شراسة وأقدمت على قطع أشجار الزيتون وتخريب المحاصيل الزراعية وحرق القرى، فتصدى لها السكان بقوات قوامها حوالي عشرين ألف

(1)- شارل هنري تشرشل، مصدر سابق، ص. 293.

(2)- E. Daumas. Op Cit, p. 299-309.

مجاهد مقسمة إلى ثلاثة أقسام بقيادة الخليفة بن سالم والسي الجودي وبلقاسم أوقاسي وانتهت الاشتباكات قرب برج منايل بسقوط حوالي خمسمائة شهيد وكان ذلك في الثاني عشر من شهر ماي سنة 1844م[1].

وبعد هذه المعركة تقدمت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال بيجو إلى قبيلة فليسة التي كانت يومها من القبائل الهامة في المنطقة لقدرتها على تجنيد عدد كبير من المجاهدين وخبرتها في صناعة السيوف والبارود والبنادق، فوجد أهلها على أتمّ الاستعداد في قرية أوراز الدّين حيث دارت معركة عنيفة بين الطرفين دامت أربعة عشر ساعة وذلك في السابع عشر ماي من السنة المذكورة، وكانت الخسائر في صفوف العدو حوالي اثنين وثلاثين قتيلا، وخمسة وتسعين جريحا، وفي صفوف المجاهدين حوالي ألف ومائة شهيد وألف وستمائة جريح وتدمير خمسين ضيعة حسب الرواية الفرنسية[2].

ورغم أنّ الجنرال بوجو قضى في حملته الظالمة ضد بلاد القبائل شهرا كاملا إلا أنه رجع منها خائبا دون تحقيق أي تقدّم مدّعيا أنّه كان مضطرا لمغادرتها واللحاق بقواته المعسكرة في لالة مغنية على الحدود المغربية للضغط على سلطان المغرب مولاي عبد الرحمن من أجل طرد الأمير، ولكن السلطان رفض ذلك خوفا من ثورة شعبه الذي كان يتعاطف مع الأمير ويعتبره قائدا للجهاد ليس في الجزائر فحسب بل في المغرب أيضا. فما كان من الفرنسيين إلاّ ضرب السواحل المغربية

(1)- J. Ladimir. Les Guerres d'Afrique, depuis la conquête d'Alger par les Français jusques et y compris l'expédition de Kabylie en 1858. Paris, 1859 , p. 305.

(2)- Ibid, P. 308.

خصوصا طنجة وموقادور، كما دارت بينهم وبين الجيش المغربي بقيادة أحد أبناء السلطان معركة إيزلي قرب وجدة في الرابع عشر من شهر أوت سنة 1844م، انتهت بهزيمة الجيش المغربي وقبول السلطان بما جاء في معاهدة طنجة التي نصت على أنّ الأمير عدو مشترك وأنه خارج عن القانون، فبات وضع الأمير بذلك حرجا إذ أصبح بين عدوين سيما وأنّ قوات بوجو قد بلغت في السنة الموالية أكثر من مائة ألف جندي.

ولكن الأمير هو الأمير، وما كان لليأس أن يجد إليه طريقا، فأمام السخط العام والثورة الشعبية المدفوعة بالمشاعر الجهادية التي اندلعت بقيادة بومعزة في الظهرة، وبفضل القوات التي تجمعت لديه داخل المغرب قرّر القيام بجولة أخرى ضد العدو، فعبر الحدود وراح يشق سهول الشلف والونشريس والتيطري ويعبر بني سليمان وصولا إلى حمزة وبلاد القبائل عند خليفته بن سالم الذي كان ينتظر أوامره، ومن هناك وعلى رأس قوة بلغت حوالي خمسة آلاف محارب نزل الأمير إلى سهل متيجة قرب العاصمة وضرب المستعمرات الفرنسية في بداية شهر فبراير سنة 1846م دون أن يشعر به الضباط الفرنسيون الذين كانوا يبحثون عنه في أعالي التل[1].

وفي الثامن والعشرين من شهر فبراير عقد الأمير مجلسا حربيا كبيرا في برج بوغني حضره نواب من كل قبائل جرجرة وناقشوا موضوع الحرب بحرارة، وفي الوقت الذي كان فيه رأي الأغلبية يميل إلى صالح استمرار الحرب وصلت

(1)– Léon.P. Abd–el–Kader, nos soldats, nos généraux et la guerre d'Afrique.Paris 1866, p. 246.

الأنباء إلى المجلس بأنّ الـ جنرال بيجو كان يتقدّم نحوهم بقوة كبيرة، فرجحت كفة المعتدلين الذين رأوا في كلّ من الهجوم والدفاع مخاطرة وأعلنوا أنّ الحذر أفضل من حماس متهور، وغادر الأمير في شهر مارس بلاد القبائل وكانت تلك آخر زيارة له للمنطقة[1].

لقد نجح العدو في اخضاع الكثير من القبائل واصطناع بعض العملاء في جرجرة واستمالتهم إليه بفضل الإغراءات كمنح الألقاب والرشاوي، فأصبحوا له عونا على توسيع نفوذه في المنطقة، وكانت أغلب المعارك التي خاضها المجاهدون في بلاد القبائل ضد العدو غير متكافئة بسبب تفوقه الكبير عليهم في تجهيزاته وعتاده، ولم يتردّد في انتهاج سياسته التدميرية لضرب قواعد المقاومة من خلال حرق المحاصيل وقطع الأشجار المثمرة والإبادة الجماعية ممّا أرهق كاهل السكان وأرهبهم وجعلهم عاجزين عن احتضان المقاومة ورجالها، بل إن بعض القبائل أصبحت تنظر إلى الخليفة بن سالم على أنّه مصدر معاناتها وسبب تهديدها من طرف العدو فطلبت منه الابتعاد عنها.

بقي الخليفة بن سالم رغم ذلك وفيا للمقاومة ومخلصا للأمير ومضحيا بكل ما يملك مصداق ذلك الكلمة التي وجهها للقبائل في ساعة ضيق: "لا تنخدعوا أيها الجزائريون ولتعلموا أنّ فرنسا دولة قوية وما أرسلت قواتها العسكرية إلى هذه البلاد إلا من أجل احتلالها بأكملها، إنها لا تصرف كل هذه الأموال الطائلة ولا تضحّي بأبنائها إلاّ لكي تخضعنا جميعا لسيطرتها، وما أنا إلاّ مواطن مثلكم، وربما لم تسمع بي فرنسا أبدا، إنّ الوسيلة الوحيدة لإيقاف هؤلاء

(1)- شارل هنري تشرشل، مصدر سابق، ص. 301.

الغزاة هي أن تقاتلوهم متحدين وبدون هوادة، وأن تعاقبوا الخونة الذين رضوا بالذل واستسلموا"[1].

ولكن منذ أن غادر الأمير الجزائر في صيف سنة 1846م واصل العدو حملته بكل شراسة في القضاء على كل نصير للأمير وإخضاع كل المناطق تحت سلطته بالقهر والإرهاب، وكان بن سالم من أواخر خلفاء الأمير الأقوياء والأوفياء له ومن الذين ظلوا صامدين أمام العدو، ولكن بن سالم يئس أيضا من المقاومة بعد أن قام العدو بحملات ضدّه وتقطّعت به السبل وضاقت أحواله، فاختار الاستسلام بشرط أمنه وتركه يذهب مع من يختار إلى المشرق، وكان ذلك في السابع والعشرين من شهر فبراير سنة 1847م حين تقدّم إلى المركز العسكري الفرنسي في سور الغزلان، ومنه نُقل إلى العاصمة مع عائلته ورفاقه حيث أقام مدّة، وفي شهر سبتمبر من السنة المذكورة رحل إلى دمشق واستقر هناك مواصلا نشاطه السياسي حتى وافته المنيّة سنة 1857م.

ثورة الشريف محمد الهاشمي (1845 - 1849م)

لقد تردّد على بلاد القبائل منذ بداية الأربعينات عدد من الأشراف الثوار الذين كانوا يحملون عادة أسماء نكرة خصوصا اسم محمد بن عبد الله، الذي يشير إلى اسم الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى يظلوا مجهولين للعدو، حفاظا على عائلاتهم وطلبا للشهادة وكانت هذه البلاد مقصدا لهؤلاء، لأنها كانت ما تزال خلال تلك الفترة بكرا في حرب الجهاد التي شهدتها معظم مناطق القطر، وكذلك لمناعتها وطبيعة أهلها، وكثرة الزوايا بها خصوصا زوايا الطريقة الرحمانية.

(1)- E. Daumas. Op. Cit, p. 257.

ومن هؤلاء الأشراف الثوار الذين قصدوا بلاد القبائل الشريف محمد الهاشمي الذي أطلق على نفسه اسم محمد بن عبد الله، ولقبه الناس بوعود، أي صاحب العود وهو الفرس، كما لقبه البعض بوسيف، أي صاحب السيف. أصله من تافيلالت، انضمّ إلى ثورة بومعزة بالظهرة والونشريس، وكافح في صفوفها وتألق حتى أصبح من أكثر رفاق بومعزة نشاطا وحيوية، لأنه كان لا يزال شابا، ثم انفصل عنه لأسباب نجهلها. وفي ربيع عام 1845م حاول الاتصال بالفرنسيين في مدينة الأصنام والخضوع لهم، ولكنه في أقل من أربع وعشرين ساعة أعرض عنهم وتركهم، وانتقل في شهر سبتمبر من السنة نفسها إلى جبال الدّيرة ببلاد القبائل الكبرى واستقر بها[1].

وهناك في الدّيرة عند بني عامر قدّم الشريف نفسه على أنّه مولى الساعة وصاحب الوقت الذي جاء لطرد النصارى من بلاد الإسلام، سيما وأن المنطقة كانت قد ثارت ضد الفرنسيين في شهر أفريل من هذه السنة قبيل قدومه إليها، ولكن الجنرال آربوفيل والجنرال ماري قاما بقمعها. وقد ساعده على جمع الأنصار من جبال الديرة وونّوغة والعذاورة كل من الآغا بوشارب ومحمد بن قويدر. فأما الأول فقد كان آغا الأمير عبد القادر هناك، وأما الثاني فهو من الشخصيات التي قادت الثورة بين سطيف وسور الغزلان، فقد كان محاربا شجاعا، وهو من العذاورة ومن عائلة كانت ذات نفوذ في العهد العثماني، وقد انضم إلى ثورة الأمير عبد القادر، ورغم تغلب العدو عليه، وتعيينه قائدا على كسنّة ثم على العذاورة

(1)– Joseph Robin. Histoire du Cherif Bou Barla. Revue Africaine, 1881, p. 66.

الشراقة، إلا أنه كان مع المقاومة وظل على علاقة مع الأمير ومع غيره من رجال المقاومة[1].

وكان ابن قويدر هو الذي أقنع كل من سي لخضر بن علي قائد أولاد بركة، وبلقاسم بن العلجة قائد أولاد بوعريف، بالانضمام إلى الشريف، فأقبلا عليه في معسكره عند أولاد سلامة، ولدى وصولهما إلى المعسكر وجد سي لخضر بن على بعض أعدائه الشخصيين الذين اتهموه بالخيانة، وطلبوا من الشريف تسليمه لهم فنفذوا فيه حكم الإعدام، أما بلقاسم بن العلجة فقد كان مصيره السجن. هذا ما يقوله مصدر هذه الأحداث جوزيف روبان دون تحديد طبيعة هذه الخيانة، وهل ابن قويدر كان على علم بها فنصب هذا الفخ، ثم لماذا سجن ابن العلجة رغم أنه غير متهم. وفي هذه الأثناء كان كل من ابن سيدي عقبة وسي أحمد بن عمر، وهما من خلفاء الأمير، يحرضان أولاد نايل ويدعونهم إلى التمرد ضد السلطات الفرنسية ويعلنون قدوم الأمير عبد القادر قريبا إلى المنطقة.

ولما علم الجنرال ماري قائد المدية بانتفاضة الشريف، جهز قوّة تتكون من 125 رجلا من القومية والصبايحية وأسند قيادتها إلى بن يحي بن عيسى خليفة آغا الشرق، وسي أحمد ولد الباي بومزراق قائد الديرة العليا، وكلفهما بقمعها في انتظار قدومه هو شخصيا. وكان الشريف متمركزا في عين حازم مع رجاله، حين علم في السابع عشر من شهر سبتمبر سنة 1845م، أن سي أحمد ولد الباي ذهب إلى المدية مع بعض الصبايحية لتسليم أموال الضرائب، فاغتنم بقاء بن يحي بن عيسى وحده فهاجمه ليلا، ولكن الأخير كان على علم بخطة الشريف

(1)- للمزيد عن ابن قويدر ينظر: بورجاد، المجلة الإفريقية، 1888، ص. 260.

عن طريق أحد جواسيسه فاتخذ احتياطاته، ورغم ذلك فقد قام الشريف بمهاجمة فرقة أهل الوسط من قبيلة جواب التي قتل منها أحد عشر رجلا، وانتهت المعركة بانسحاب القائد بن يحي الذي فقد أحد رجاله.

وفي هذه الأثناء كان الجنرال ماري قد غادر المدية على رأس قواته، واستدعى القومية التابعين لسي محمد بن محي الدين خليفة سباو، وسي أحمد بن محمد المقراني خليفة مجانة، ووصل إلى جنوب جرجرة حيث كان يتمركز الشريف الهاشمي، ومكث هناك ينتظر قدوم الجنرال آربوفيل بقواته من سطيف. ولما تجمعت تلك القوات هاجمت معسكر الشريف في أولاد العزيز يومي 11 و12 نوفمبر من السنة نفسها، فقتلت بعض أتباعه وأسرت آخرين واستولت على خيامه، وكانت خسائر العدو ستة قتلى وأربعين جريحا[1].

واصل الشريف الهاشمي بعد هذه المعركة نشاطه في بلاد القبائل محرّضا ضد العدو، فذهب إلى بني واسيف فوجد بعض أفراد آيت بن ماضي متحاربين فحاول أن يصلح بينهم ولكن دون جدوى. ثم انتقل إلى بني صدقة وهناك أخبروه أن أحمد الطيب بن سالم خليفة الأمير عبد القادر قد ترك عند الشيخ المبارك في زاوية آيت بوعلي ببني دوالة كمية كبيرة من الأموال والبارود والأسلحة، فذهب إليه رفقة عدد قليل من كبار بن صدقة وطلب منه أن يسلمه ما تركه بن سالم، ولكنه الشيخ المبارك أنكر ذلك ولم يعطه شيئا، فتركه الشريف ورحل إلى ساحل قرقور حيث انقطعت أخباره مدة.

---

(1)– Joseph Robin. Op. Cit, p. 69.

ثم ظهر في شهر مارس سنة 1846م، وشرع في كتابة الرسائل إلى عدد من زعماء القبائل والشخصيات البارزة في بلاد القبائل دعاهم فيها إلى حمل السلاح معه لمحاربة الفرنسيين، ومنها الرسالة التي كتبها جوابا على رسالة بعث بها إليه سي مولاي بن عمر، وقد أعلمه فيها أنه لا توجد أي حرب بينه وبين جماعة من الثوار، لم يذكر اسمها، وأنه يحارب فقط الخونة والكفار الذين يسعون إلى ايذائه، كما حثه فيها على الجهاد المقدس ضد العدو مذكرا إياه بآيات من القرآن[1].

وقد امتد تأثيره إلى قبائل جيجل والقل بجبال البابور وسعى في إثارتها، ولم يقدر بوعكاز بن عاشور خليفة الفرنسيين على مواجهته فاضطر لطلب النجدة من سطيف. وفي الثالث من شهر أوت عام 1847م قام الشريف بمهاجمة جيجل، وفي أواخر الشهر نفسه هاجم أولاد خلف الله، فتصدّى بوعكاز لمواجهته، فاضطر للانسحاب واختفت أخباره عدة شهور. ولم يظهر إلا في 17 مارس سنة 1848م، حين سلم نفسه طواعية للفرنسيين بسور الغزلان، كما يدّعي روبان الذي بخل علينا بذكر الأسباب التي دفعت الشريف إلى اتخاذ هذا القرار المفاجئ، وهو ما يثير الشك حول مصداقية هذه الرواية سيما وأن صاحبها قد ناقض نفسه حين عاد في موطن آخر وقال إن الشريف تمّ القبض عليه في ميدان المعركة أثناء

(1)- اكتفى جوزيف روبان بترجمة الرسالة دون تقديم نصّها الأصلي، وقد وصف الختم الموجود في أعلى الرسالة وصفا دقيقا من حيث الشكل والعبارة المكتوبة فيه. المصدر السابق، ص. 226.

مواجهته للفرنسيين[1]. ولا نستغرب هذا من روبان الذي كان كل همّه هو تشويه هذه الثورة وصاحبها.

وتمّ نقله من سور الغزلان تحت حراسة مشددة إل الجزائر، ومنها حمل إلى فرنسا ووضع في السجن. وبعد قرابة عامين من الأسر تمكن من الهروب، مستغلا ثقة حراس السجن التي كان يتمتع بها لديهم والتي كان قد اكتسبها من خدمته لهم كما تقول الرواية الفرنسية، واتجه إلى تونس متنكرا في زي امرأة صحبة أحد الأوروبيين الذي نجح في اقناعه بأن يصطحبه معه على أساس أنه ابنته.

ومن تونس عاد الشريف الهاشمي إلى بلاد القبائل والتحق بجبال جرجرة في شهر جويلية سنة 1849، مقدما نفسه هذه المرة على أنه الشريف بومعزة زعيم ثورة الظهرة الذي كان ما يزال عندئذ سجينا بفرنسا، وأنه ادعى اسم بومعزة على غير حق لكي يثير الناس به ويستغل سمعته كما يقول روبان الذي أطلق عليه اسم بومعزة المزيف[2]. ولا يمكن القبول بهذه الرواية التي يرفضها العقل والمنطق، إذ من غير المعقول أن يأتي الشريف الهاشمي إلى هذه البلاد التي تنقل بين قبائلها من سبتمبر 1845م إلى مارس 1848م، واحتك بأهلها وتعرّف إليهم، والتقى بزعمائهم، وخاض معهم معارك كثيرة ضد العدو، ويدّعي اسم بومعزة، فلو ذهب إلى غيرها من البلاد التي لا تعرفه لكان من الممكن تصديق

(1)- Joseph Robin. Op. Cit, p. 227.

(2)- Joseph Robin. Histoire d'un Cherif de la Grande Kabylie. Revue Africaine, 1870, p. 349.

ذلك، ولكن الحقيقة هي أن الشريف قد عاد إلى بلاد القبائل مستغلا تجربته ومعرفته بها.

وكانت بلاد القبائل أثناء عودة الشريف إليها خلال سنة 1849م، تخضع على اتساعها لقيادات محلية تتلقى الأوامر من الفرنسيين، بعد أن كانت تتلقاها من الأمير عبد القادر. فكان بلقاسم أوقاسي باشاغا على سباو منذ فبراير 1847م، وتتبعه بنو راتن، وبنو فراوسن، وبنو خليلي، وبنو بو شعيب، وبنو يحي، وبنو ايجار، وبنو فليك، وأولاد الحمام وغيرهم. وكان عمر بن سالم، أخ أحمد بن سالم خليفة الأمير عبد القادر السابق، متلقبا هو الآخر بلقب الباشاغا منذ 1847م، وتتبعه القشطولة، وأولاد العزيز، وبنو مدور، وبنو يعلى، وبنو عيسى، ومشدالة، وبنو قاسي، والشرفة، وبنو مليكش. وكان برج البويرة تحت قيادة سي بوزيد بن أحمد. كما تمّ اخضاع قبائل مزاية وبني سليمان الثائرة في بجاية ونواحيها، وحرق قراها ومداشرها على يد الجنرال سانطارنو والجنرال دي صال[1].

ولم يبق أمام الشريف سوى قبائل زواوة وبني صدقة التي كان يحكمها سي الجودي بن الجودي باسم الأمير عبد القادر من قبل، وكانت ما تزال مستقلة عن الفرنسيين. وكان سي الجودي ينتمي إلى عائلة مرابطة ذات صيت روحي واسع في منطقة تعج بزوايا الطريقة الرحمانية، وكان يمثل في ذلك الوقت شخصية معتبرة، تتمتع بنفوذ سياسي وديني واجتماعي كبير في أوساط القبائل التي كانت غالبا ما تلجأ إليه في حلّ خلافاتها، لذلك نجد جوزيف روبان يلوم سي الجودي الذي انضم إلى الثورة تحت تأثير عقله الضيّق كما يقول، وأنه كان غير قادر على

(1)– Joseph Robin. Histoire du Cherif Bou Barla, p. 228.

فهم واستيعاب تفوق الحضارة الفرنسية والدخول في طريق التقدم في نظره[1]. وهذا حكم عام أطلقه الفرنسيون جميعا على كل من فضل المقاومة على الاستسلام في الجزائر.

اتصل الشريف الهاشمي بسي الجودي فاستقبله في منزله بقرية إيغيل بوعمّاس في بني بودرار، وقدّم له حصانا وسيفا، دليلا على الاعتراف به وبثورته وتأييده، وعرف منذ ذلك الوقت بمحمد بن عبد الله بوعود وأحيانا بوسيف. ووضع تحت تصرّفه أبناءه وأبرز شخصيات المنطقة والقبائل التابعة لها ووفر له الدعاية اللازمة، وراح ينتقل وإياهم بين القرى والمداشر لجمع الثوار والأسلحة وكسب ولاء الناس وتأييدهم لمواجهة العدو. ولم يتردد في الإعلان كخطوة أولى عن اعتزامه الذهاب إلى الحامية الفرنسية بسور الغزلان ومحاربة القوات الفرنسية هناك كبداية لتصفية الوجود الفرنسي بالجزائر، وهي الحامية الوحيدة لدى الفرنسيين في المناطق الداخلية القريبة من بلاد القبائل.

من المعروف أنّ زوايا الطريقة الرحمانية كانت منتشرة بكثرة في بلاد القبائل وفي مقدمتها الزاوية الأم، وأنّ تأثيرها على سكان هذه البلاد كان كبيرا، خصوصا ما تعلق بالدعوة للمقاومة والتحريض عليها، فكان على كل زعيم أو قائد يروم الثورة ضد العدو أن يتصل بزعماء هذه الزوايا وينسق معهم. فبعد سي الجودي اتصل الشريف الهاشمي بالسيدة لالة فاطمة نسومر التي كانت تتولى

(1)– Joseph Robin. Histoire d'un Cherif de la Grande Kabylie, p. 351.

ولمزيد من التفاصيل عن حياة سي الجودي، ونفوذه في بلاد القبائل، وعلاقته بالثوار وبالفرنسيين، ينظر جوزيف روبان، تاريخ الشريف بوبغلة. المجلة الإفرقية، 1882، ص 399 وما بعدها.

زاوية ورجة الرحمانية، لتنسيق العمل معها نظرا لما كانت تتمتع به من مكانة وسمعة وجاه ونفوذ.

ولكن جوزيف روبان الحريص على تشويه رموز المقاومة، لا يفوته أن يركز على الجانب العاطفي والدس الأخلاقي بإثارة الشكوك والتعريض، فيذكر أن لالة فاطمة كانت بارعة الجمال وفي مقتبل عمرها، وأنّ الهاشمي كان وسيم الطلعة وأن هناك إعجابا متبادلا بينهما لأنه كان يكرر زياراته لها، فبدأ الناس ينظرون بعين الريبة لتلك الزيارات، وأنهم اكتشفوا فيما بعد أن قسما كبيرا من الأموال التي جمعت من أجل الجهاد قد استخدمها في أغراض مخالفة[1].

وفي أوائل شهر سبتمبر 1849م، أقام الشريف معسكره في مرتفعات جرجرة، وعلى السفوح الجنوبية لهذه الجبال، في الطريق المؤدّي إلى قبائل بني منصور والشرفة، كانت توجد قبيلة بني مليكش التي انضمت إلى الشريف ولم تكن قد خضعت للفرنسيين حتى ذلك التاريخ وهي معروفة برجالها المحاربين، وقبيلة مشدالة التي لم تنضم إليه صراحة وبقيت مترددة، لأنها كانت تابعة لآغوية عمر بن سالم باشاغا الفرنسيين، فاكتفى الشريف بحيادها إذ لم ينجح في إقناعها بالانضمام إليه.

ولما جمع حوله هؤلاء المحاربين من زواوة وبني مليكش وغيرهم، انتقل إلى قرية تيبحيرين القريبة من قرية سلوم إحدى قرى بني مليكش، وراسل من هناك سكان بني منصور والشرفة، وطلب منهم الانضمام إليه، وهدّدهم، إذا رفضوا ذلك، بحرق منازل زعمائهم مثل سي سعيد أوالحاج قائد الشرفة، والحاج

(1)– Joseph Robin. Op Cit, p. 353.

قاسي بن حبلال قائد بني منصور، وسي محمد الطيب الذي كان لاجئا عندهم بعد أن ترك قبيلة بني مليكش التي ينتمي إليها وكان قائدا عليها. ولكنهم رفضوا طلب الشريف وتهديداته، وقاموا بوضع حواجز وخوانق حول القريتين، وطلبوا نجدات من الحامية الفرنسية في سور الغزلان.

وبالفعل فقد جاءت تلك النجدات بقيادة الضابط بوبريطر[1] النائب في المكتب العربي بسور الغزلان، وقوامها ثلاثمائة من فرسان القومية المرتزقة، وطلب في الوقت نفسه من مشدالة، التي كانت مترددة في انضمامها للشريف، أن تنضم إليه برجالها، فجاءه قائدها الحاج سليمان بن إدريس وحيدا ولم يتبعه أحد منها، فبعث أحد جواسيسه يستطلع أخبارها وهل انضمت إلى الشريف أم لا، فأخبره أنها قد تجمعت بأسلحتها في إيغيل حماد إحدى قراها، قرب معسكر زواوة بقيادة الشريف، تنتظر تطورات الأحداث.

وعلى حين غفلة من مشدالة وأنصار الشريف وبسرعة فائقة قام بوبريطر بإضرام النار في قريتي أولاد ابراهيم وبني يخلف المشداليتين، فهرع المجتمعون في إيغيل حماد لإنقاذ أهاليهم، فنجح في خطته حين فصل مشدالة عن زواوة. وفي هذه الأثناء نصبت قبيلة الشرفة كمينا لثوار زواوة وهم في طريقهم إليها، فقتلت منهم سبعة وجرحت آخرين، وأحدثت اضطرابا كبيرا في صفوفهم، واضطرتهم للانسحاب إلى بهليل في بني مليكش من أجل إعادة تنظيم أنفسهم من جديد،

---

(1)- عن هذا الضابط الذي جاء الجزائر شابا ودخل صفوف فرقة الزواف، وكان لا يكاد يقرأ أو يكتب، وتدرج مع ذلك في الرتب العسكرية والمسؤوليات الإدارية حتى نال الأوسمة، ينظر: بوسييه، العقيد بوبريطر. المجلة الإفريقية، 1870، ص. 441-444.

واستغل بوبريطر هذا الاضطراب والتقهقر لينتقم من السكان المؤيدين للثوار ويفرض عليهم سيطرته بالقوة.

أثارت هذه الهزيمة غضب سي الجودي فحاول إنقاذ أمر الشريف، فدعا جميع قبائل السفوح الشمالية والجنوبية لجرجرة إلى الالتحاق بصفوفه طوال شهر سبتمبر، وكانت قبائل الشرفة وبني منصور تراقب بحذر وخوف شديدين هؤلاء الثوار وهم يتوافدون كل يوم إلى معسكر الشريف، فاضطر قائد بني منصور أن يطلب النجدة من الحامية الفرنسية بسور الغزلان. ولم يتأخر الضابط بوبريطر كعادته في تلبية الطلب، فقد جاء على رأس قوة من خمسمائة رجل من القومية المرتزقة تحسبا لخطورة الوضع. ورغم ذلك فإن جيش العدو كان في معنويات هابطة بعدما سمعوا أن للشريف الهاشمي قوة خارقة وأن الرصاص لا يؤثر فيه حتى أن بعضهم قد اتصل خلسة بالشريف، عن طريق أصحابه، وطلبوا منه ان لا يطلق النار عليهم ووعدوه بالفرار أمامه من الوهلة الأولى[1].

وقد حاول بوبريطر أن يرفع معنويات مرتزقته فلم ينجح، فكتب من معسكره، بجانب قرية الشرفة، إلى الشريف الهاشمي يستفزّه ويتحدّاه، فقال له إنك تدّعي الشرف وأنت من أصل يهودي، وإذا أردت أن تبرهن على أنك شريف حقيقي فتعالى للمبارزة، وقد حدد له مكان اللقاء، فقبلها الشريف بكل شجاعة وتحدّاه أن يحضر معه مساعده القاضي أحمد بن الزروالي[2]. ولم يذكر روبان لماذا خص الشريف أحمد الزروالي بالذات دون غيره.

---

(1)- Joseph Robin. Op Cit, p. 357 – 358.

(2)- Joseph Robin. Op Cit, p. 358.

وتدخل سي الجودي قبل بدء المعركة لدى الشريف في وضع الخطة الضرورية لمواجهة العدو مقترحا مهاجمة قرية الشرفة وما تقتضيه هذه العملية من احتياطات ميدانية، ولكن الشريف أصرّ على ضرورة الاتجاه إلى بني منصور ومواجهة مرتزقة الفرنسيين هناك، وكان ذلك في الثالث من شهر أكتوبر سنة 1849م ، فجمع أتباعه وقسّمهم إلى قسمين: قسم الميمنة وأغلبهم من زواوة كلفهم بمهاجمة الشرفة، وقسم الميسرة ومعظمهم من بني مليكش كلفهم بمواجهة بني منصور مرورا بوادي شقرون، وسار هو في الوسط مع بعض فرسانه، وبقي سكان بني عباس بعيدين عن الميدان ينتظرون نتيجة ما يحصل حتى يقرروا على ضوئها انضمامهم إلى الشريف أو ابتعادهم عنه.

ولمّا نشبت المعركة بين الطرفين لم يستطع أتباع الشريف أن يثبتوا خصوصا بني مليكش الذين بادروا بالهجوم، لأن أسلحة العدو كانت بعيدة المدى وذخيرته كافية، وكان مزودا عن طريق أعوانه بالكثير من المعلومات عن خطط الثوار. وقد حاول الشريف أن يوقف أصحابه عن الفرار صائحا فيهم ومذكرا إياهم بكثرة عددهم ومؤنبا لهم حتى وصف بعضهم بالنساء، ولكن لم يفده ذلك في شيء، فامتطى فرسه وتقدم صحبة أحمد بن سي الجودي ومجموعة من فرسانه نحو جيش العدو الذي أطلق عليه وابلا من الرصاص، فأصيب فرسه ووقع على الأرض، فأحاط به أربعة من أعوان العدو وأجهزوا عليه بالرصاص حتى مات ثم قطعوا رأسه، وبموته توقفت المعركة حتى قبل أن يصل ثوار الميمنة من زواوة إلى بني منصور، ثم حملت جثته ودفنت في زاوية سيدي أحمد بن إدريس[1].

(1)– Joseph Robin. Op Cit, p. 359 – 361.

وعلى الرغم من فشل هذه الثورة كغيرها من الثورات السابقة واللاحقة لأسباب كثيرة ومعروفة، فإنها قد مهّدت الطريق أمام زعماء آخرين واصلوا الثورة في بلاد القبائل مثل مولاي ابراهيم الذي كان من أتباع الشريف الهاشمي منذ سنة 1845م، وخلفه في قيادة الثورة بعد موته مباشرة سنة 1849م، ثم أصبح من أتباع الشريف بوبغلة الذي قاوم خلال خمس سنوات (1850-1854م)، وأخرج بثورته هذه المنطقة من عزلتها الجبلية وجعلها تعيش الواقع الجديد الذي أصبحت عليه الجزائر كلها، ثم التقط الشعلة بعده الحاج عمر صاحب الثورة الموالية.

حركة الحاج عمر (1843- 1857)

يذكر روبان أنّ الحاج عمر من مواليد مدينة فاس أو بالقرب منها، وأثناء عودته من الحج برّا توقف في زاوية محمد بن عبد الرحمن الأزهري الملقب ببوقبرين في آيت اسماعيل حيث استقبله وكيل الزاوية علي بن عيسى المغربي الذي كان يدير شؤونها منذ سنة 1794م تاريخ وفاة الشيخ محمد بن عبد الرحمن المذكور وأقنعه بالطريقة الرحمانية فصار من أتباعها النشطين.

وفي سنة 1837م مات علي بن عيسى المغربي تاركا ابنته الوحيدة وزوجته خديجة التي كانت تتمتع بسمعة دينية كبيرة في أوساط القبائل، وقد تولى إدارة الزاوية بعده سي الحاج البشير ثم تركها وذهب لإدارة زاوية أولاد بومرداس، فخلفه سي بلقاسم بن حافظ الذي مات بعد عامين من تولّي شؤونها، فاتجهت أنظار أشراف قشطولة إلى الحاج عمر فأسندوا إليه رئاسة الزاوية وزوّجوه بنت

علي بن عيسى المغربي في تاريخ لم يتمكن روبان من ضبطه بدقة كما قال[1]. وقد نجح في عمله على رأس الزاوية نظرا لذكائه وقوة شخصيته حيث كثر أتباعها حتى من خارج بلاد القبائل.

ظهر الحاج عمر على مسرح الأحداث سنة 1849م لمّا قام بدور الوسيط بين سكان قشطولة والفرنسيين خلال غزو الجنرال بلانجيني للمنطقة في شهر ماي. وفي شهر أوت من السنة نفسها طلب الإذن من الحاكم العام الفرنسي شارون بالسماح له من أجل الذهاب، إلى الإقامة في القيروان بتونس، فأذن له بذلك وعرض عليه المساعدة، ولكن الحاج عمر لم يستغل هذا الترخيص وعدل عن فكرة الرحيل إلى تونس لأسباب نجهلها. وفي شهر جوان 1852م لمّا جاء الحاكم العام الجنرال راندون، الذي عرف عهده المقاومة الطويلة والعنيدة في بلاد القبائل والصحراء، إلى ذراع الميزان، لم يتمكن الحاج عمر من لقائه بسبب المرض الذي ألمّ به، فذهب بعد أيام لزيارته في العاصمة حيث حصل منه على إذن للذهاب إلى البلاد المقدسة لأداء فريضة الحج مع كل الأهالي الراغبين في ذلك، ولكنه ترك مرّة أخرى الأجل ينقضي دون تحقيق رغبته لأسباب لا نعرفها أيضا[2].

وعلى الرّغم من مسالمة الحاج عمر للفرنسيين في بداية أمره، وطلبه الإذن منهم مرّتين للذهاب إلى تونس وإلى البقاع المقدّسة، فإنه كان شديد التحفظ في التعامل معهم ومع أعوانهم، ولما اندلعت ثورة بوبغلة سنة 1851م مال أتباعه

---

(1)– Joseph Robin. Op Cit, p 162.

ولكنه يعود ويضبط ذلك في موضع آخر حين يذكر سنة 1843. المجلة الإفريقية، 1899، ص. 226.

(2)– Joseph Robin. Op Cit, p 164.

إليها وانخرطوا في صفوفها وقام هو بدعاية واسعة لبوبغلة وأنصاره. وفي ليلة الفاتح سبتمبر 1853م غادر زاويته متخفيا واتجه إلى قرية بوعبد الرحمن في بني واسيف الذين كانوا منقسمين إلى صفّين: الصف الغربي بزعامة الحسين نايت الحاج أعراب، والصف الشرقي بقيادة محمد أوقاسي، وكان نزول الحاج عمر عند الصف الغربي الذي استقبله أهله.

وقام هناك بدور بارز حيث حرص على إزالة الخلافات بين الصّفين المذكورين وحاول أن يصلح بينهما، كما استمال إليه أتباع سي الجودي باشاغا الفرنسيين مستعملا نفوذه الديني وتأثيره الشخصي. ولمّا اشتدت مطاردة الفرنسيين وأعوانهم للشريف بوبغلة في منتصف عام 1854م، آوى الحاج عمر عائلته واستقبلها في مكان إقامته في منتصف شهر جوان، وكانت على وشك الاستسلام للضابط الفرنسي بوبريطر. وبعد مقتل بوبغلة في نهاية ديسمبر من السنة نفسها استقبل في بني مليكش أرملته تاسعديت بنت عمر، وأخاه، وبنت الشريف مولاي إبراهيم[1].

وخلال شهر ماي 1856م واصل الحاج عمر نشاطه ضد الأعوان الفرنسيين وعلى رأسهم الباشاغا سي الجودي الذي أصبح غير مسموع الكلمة بين زواوة وبدأ يفقد نفوذه تدريجيا فاضطر إلى ترك قريته إيغيل بوعماس. كما وثق في الوقت نفسه صلاته مع رموز المقاومة في بلاد القبائل ونسّق معهم ضد العدو وأعوانه

(1)- Joseph Robin. Notes et Documents concernant L'insurrection de 1856-1857 de la Grande Kabylie. Revue Africaine, 1899, p. 226-229.

مثل الشيخ أعراب في بني راثن، والسيدة فاطمة نسومر الذائعة الصيت، وزعيم بني منصور سي محمد بن عبد الرحمن، وازداد أتباعه من بني صدقة وقشطولة، وكان هدفه القيام بثورة عارمة في منطقة تيزي وزر وذراع الميزان.

وهذا ما قام به بالفعل حين هاجم سي الجودي وابنه سي الحاج أحمد وأتباعهما في قرية إيغيل إيقوليمن وذلك في التاسع عشر من شهر أوت، ولكن الباشاغا الجودي استنجد برئيس المكتب العربي في ذراع الميزان وهو الضابط الفرنسي ديفو الذي استجاب لطلبه، فتمكن بفضل هذه المساعدة من العودة إلى قريته التي طرد منها، كما حاول مهاجمة قرية تاوريرت عبد الله المتعاونة مع الحاج عمر في الثاني والعشرين من الشهر المذكور ولكنه فشل في ذلك.

وإلى غاية هذا التاريخ فإنّ الحاج عمر، في نظر روبان، كان يقود الحركة بصفته رجل دين وشيخا للطريقة الرحمانية، ولكنه في الرابع والعشرين من شهر أوت 1856م لبس خوذة الحرب ورمى بثقله في المعركة وأعلن نفسه قائدا للثورة وجمع أنصاره وأتباعه من بني راثن، وعمراوة، وبني ينّي، وبني عيسى، وصفّي وعدية المتنازعين الذي أصلح بينهما، وسار بهم إلى برج الشرفة مقر سي الجودي القريب من ذراع الميزان حيث اشتبك مع قوات العدو وأعوانه بقيادة ديفو، وانتهت المواجهة بجرح خمسة في صفوف العدو منهم ديفو نفسه، ومقتل اثنين أحدهما من الصبايحية والثاني قائد نزليوة سليمان بن كفيف الذي تأسف الفرنسيون كثيرا لقتله نظرا للخدمات الجليلة التي قدّمها لهم[1].

(1)– Joseph Robin. Op Cit. R. A, 1900, p. 151–161.

وبقي الحاج عمر بالمنطقة حتى آخر الشهر حيث زحف من جديد بقواته على العدو الذي تخلى عنه الكثير من أعوانه والتحقوا بالثوار، فاضطر القائد الفرنسي ديفو إلى التراجع إلى بوغنّي ومنها إلى ذراع الميزان، فهاجم الحاج عمر قرية بوغني وأحرق معمل الزيت ومطحنة الحبوب التابعين للمعمّر قارو، ثم ذهب إلى المعاتقة يريد الإقامة عندهم ولكنه عدل عن الفكرة وقرّر العودة إلى زاويته بآيت اسماعيل التي كان قد غادرها منذ ثلاث سنوات، وشرع من هناك في مكاتبة القبائل يدعوها إلى الجهاد المقدّس ضدّ العدو، كما أرسل إلى العديد من القرى بقايا معمل الزيت الذي حطمه في بوغني تعبيرا عن انتصاره وتحفيزا للناس على الثورة.

وفي الثاني من شهر سبتمبر 1856م تدافع الكثير من الثوار لحمل السلاح فتجمّع منهم حوالي ستة آلاف يقودهم الحاج عمر وتدعمهم السيدة فاطمة نسومر وقرّروا مهاجمة ذراع الميزان ووضعوا لذلك خطة، ولكن العدو كان على علم بذلك فعزّز وجوده هناك وتصدّى لهم بقيادة الضابط بوبريطر وأعوانه، ورغم بعض الانتصار الذي حققه الثوار في بداية المعركة إلا أنهم سرعان ما تراجعوا تاركين وراءهم أربعين قتيلا وأكثر من ثلاثين أسيرا وحوالي مائتي بندقية. وإثر هذه المعركة خشي الفرنسيون من تطور الأحداث فكلفوا الجنرال يوسف بالذهاب إلى هناك على رأس قوات كبيرة عسكر بها قرب زاوية محمد بن عبد الرحمن بوقبرين الرحمانية بآيت اسماعيل وظل طوال شهر سبتمبر يمارس أعمال السطو والقتل ومصادرة الأملاك هناك[1].

(1)- Joseph Robin. Op. Cit, p. 193-227.

ومع ذلك فإن العدو لم يستطع القضاء على الثورة وأبطالها بل ازداد اشتعالها رغم فارق العدة والسلاح، لذلك قرّر الحاكم العام المارشال راندون خوض المعركة بنفسه في بلاد القبائل لاستكمال عملية الاحتلال، فخرج على رأس حملة كبيرة يدعمه كل من الجنرال رونو والجنرال ماكماهون والجنرال يوسف، فوصل إلى تيزي وزّو في السابع عشر من شهر ماي 1857م، وبدأت الحملة في الرابع والعشرين من الشهر نفسه، واستمرت حوالي خمسة وأربعين يوما. وفي قلب جرجرة بسوق الأربعاء بنى راندون قلعة نابليون في 14 جوان وهو تاريخ ذكرى نزول القوات الغازية ساحل سيدي فرج سنة 1830م، ولكن معركة إيشريضن الشهيرة يوم 24 جوان قرب قرية أربعاء نايت إيراثن لقنت العدو درسا قاسيا، وكلفته أكثر من ستّين قتيلا وأكثر من أربعمائة جريح[1].

وقد استعمل راندون كل الوسائل القمعية المعروفة من حرق وحشد وقتل جماعي، فلم يستطع الحاج عمر المقاومة فأسره الفرنسيون في الثامن جويلية 1857م ، ونفوه إلى تونس واستقرّ مدّة بزاوية نفطة الرحمانية ثم التحق منها بمكة المكرمة رفقة زوجته وابن الشريف بوبغلة. وبعد ثلاثة أيام من أسره اعتقل الفرنسيون أيضا البطلة الشجاعة فاطمة نسومر ونقلوها إلى سجن تابلاط حيث ظلت إلى وفاتها سنة 1863م، وهكذا انتهى فصل من فصول المقاومة بجرجرة في بلاد القبائل.

(1)– Joseph Robin. Op Cit. R. A, 1901, p. 322–337.

نشاط الرحمانية في الجنوب الجزائري

ثورة ابن ناصر بن شهرة (1851 – 1875م)

إنّ بطل هذه الثورة وزعيمها هو ابن ناصر بن شهرة بن فرحات (1804-1884م) الذي ينتمي إلى قبيلة المعامرة والحجاج من أولاد حرز الله، وقد اشتهرت عائلته بالشجاعة والفروسية والكرم، وهي ميزات وأوصاف أهّلتها لرئاسة قبائل الأرباع التي كانت ترحل إلى التل في الشمال صيفا لجلب الحبوب لها ولخيولها، فقد تولّى مشيختها والده ابن شهرة وجدّه فرحات أيضا.

ولمّا كبر بعض الشيء انتمى ابن ناصر إلى الطريقة القادرية لارتباطه بشيخها الحاج أحمد الشاوي بالأغواط وهو أحد أقاربه فأصبح بذلك خصما للتيجانية، ولم يكن انتماؤه الصوفي في وقت مبكر من حياته أمرا غريبا، ولكنه جارى روح العصر السائدة آنذاك فقلّ ما تجد عالما أو شيخا أو زعيما أو تابعا لا ينتسب إلى طريقة من الطرق الصوفية يحتمي بها وتحتمي به وينتسب إليها وتنتسب إليه، سواء عن اعتقاد أو مجاراة للعوام الذين كانوا يرون أن من لا شيخ له فالشيطان شيخه.

وابن ناصر بن شهرة كما وصفه بعضهم، فإنَّه كان ربعة أي متوسط القامة، أشقر اللون، أحمر الشعر كثيف شعر الحاجبين، سريع الخطا، كان يلبس الحائك من الصوف، ويعتمّ مثل الأمير عبد القادر، ويحتذي الحذاء الطويل. وكان ماهرا في الرماية يضرب بالرصاص من الأمام ومن الخلف ولا يخطئ أبدا، ويتلثم

إذا حمي الوطيس في المعركة. وكان عالما بدقائق الصحراء وخفاياها فاستحق بذلك أن يكون الملاّح الحقيقي للصحراء[1].

لقد كان ابن ناصر بن شهرة في حدود السادسة والعشرين من عمره يوم دخلت فرنسا الجزائر، وقد عاين سقوط النظام العسكري والإداري بينما بقيت الطرق الصوفية النظام الوحيد القائم في المجتمع الجزائري والملاذ الذي يأوي إليه كل مجاهد عن أرضه وشرفه ودينه، فانضم مبكرا إلى مدرسة الأمير عبد القادر الحربية والوطنية وتكوّن فيها وأصبح واحدا من فرسانها الشجعان ومن العاملين على جمع الكلمة ونشر العاطفة الدينية والوطنية.

وبعد التكوين الحربي الذي تلقاه في مدرسة الأمير، وبفضل مواهبه الفذة ومعرفته العميقة بمجاهيل الصحراء ومفاوزها وعلمه بدقائق أرضها، شرع في الجهاد ضد الفرنسيين سنة 1851م. وكان أوّل عمل قام به في هذا الميدان هو تمردّه على السلطة الفرنسية ومغادرته لمركز الإقامة الجبرية في بوغار الذي كانت تقبع فيه قبائل الأرباع، وتجريد المجموعة التي لحقت به وعلى رأسها الملازم اليهودي كروس من أسلحتها وألبستها، وبعثه معها رسالة إلى السلطة الفرنسية مفادها أن ابن ناصر بن شهرة قد فارق خدمة الفرنسيين[2]، التي كلها مذلة وإهانة

(1)- أحمد بوزيد قصيبة، ابن ناصر بن شهرة أحد أبطال ثورة 1871. مجلة الأصالة، العدد 6، السنة الأولى، جانفي 1972، ص. 57.

(2)- يقول رين إن ابن ناصر بن شهرة قد خلف والده كآغا على الأرباع سنة 1846، ولكن نفوره من الخضوع لخليفة الأغواط أحمد بن سالم الخاضع للفرنسيين والتابع للطريقة التيجانية، جعله يتمرد على الفرنسيين ويعلن الثورة ضدهم منذ سنة 1851.
Louis Rinn. Histoire de L'insurrection de 1871 en Algérie, p. 90.

والتحق بمن يمثل الدين والاستقلال، ويقصد بذلك بطل ورقلة الشريف محمد بن عبد الله الذي اتصل به في ورقلة واتفقا على توحيد الجهود ضد العدو الغاصب.

ثم عاد إلى الشمال الشرقي حيث استولى في جويلية 1852م على قرية قصر الحيران وحصّنها ومنها انطلق في القيام بأعماله التنسيقية من أجل التسليح والتموين لخوض المعركة. ولكن بعد احتلال الفرنسيين للأغواط وورقلة عام 1853م لجأ ابن ناصر بن شهرة إلى نفطة بالجنوب التونسي ووجه إلى باي تونس محمد باشا رسالة يعلمه فيها بذلك ومما جاء فيها:

"إلى حضرة سيدنا ومولانا قدوة الأنام وحجة الإسلام، سلسلة الأشراف الكرام ونخبة الفضلاء الأعلام، رئيس الأمراء الزاهدين وعارف المحققين وسيد العابدين الورعين، ولد السلطان المعلوم في الرسوم وعنصر الفهوم، سيدنا ومولانا أمير المؤمنين سيدنا محمد باشا باي، السلام عليك ورحمة الله وبركاته، من المسلم عليك خديمك الشيخ بن ناصر بن المرحوم بن شهرة وبعد، يا سيدنا وصلنا طابعك السعيد وأمنك المديم علينا وعلى جميع رعيتك وقبلناه ورفعناه فوق رؤوسنا. وها نحن نزلنا ببلاد توزر وبعثت أخي السيد النعيم ومن معه لحضرتك وزيرين، ونحن مهاجرين استوصي بنا خيرا جميع الرعايا كأعراش الهمامة وغيرهم لأننا خرجنا من بلادنا في طاعة الله ورسوله ولا يخصنا في بلادنا حرمة إلا من أجل الدين، والله يسألك عن كل من هو في حكمك، وكن ببال من جانبنا لأننا وثقنا

بالله وبرسوله ثم بقبضة حكمك، ولا نرجو أحدا سواك ونرجو مخبرك كيف أمرتنا نفعل ونظرك أوسع في كل الأمور والسلام"[1].

إن جهاد ابن ناصر بن شهرة ضد الفرنسيين لم يكن بدافع النقمة عليهم بسبب رفضهم تعيينه كآغا على الأرباع خلفا لأبيه كما يدّعون، فهو أكبر من أن يخضع للمساومات الرخيصة أو يطمع في منصب شكلي تجود به عليه الإدارة الفرنسية التي كان ينظر إليها نظرة الغاصب الذي أذلّ البلاد والعباد. ولكن الدافع الحقيقي من وراء جهاده ضدهم هو الحماس الديني الكبير والعاطفة الدينية الخالصة والغيرة على الدين والوطنية الصادقة والعزّة والأنفة، هذا ما تؤكده رسالته إلى باي تونس التي ترجمتها حياته النضالية، إذ كان يضع يده في يد كل شريف غيور على وطنه يقول لا لفرنسا الاستعمارية.

إن لجوء ابن ناصر بن شهرة إلى نفطة بالجريد التونسي لم يكن بهدف الرّاحة أو الركون والخوف أو الهروب من مسؤولية الجهاد، ولكنها استراتيجية وانتظار لتطور الأحداث والفرص لمواصلة الجهاد ضد العدو واستئنافه حسب ما تقتضيه الظروف، فهو أمام عدو شرس يفوقه عدّة ودعما.

وهناك في نفطة وجد في الزاوية الرحمانية التي أسسها مصطفى بن محمد بن عزوز سنة 1849م الملجأ الأساسي الذي اتخذه قاعدة له وشرع منذ سنة 1853م في تكوين الأنصار والأعوان من أحرار تلك الجهات. كما متّن ابن ناصر ابن شهرة في هذه الزاوية علاقاته بالجزائريين اللاجئين هناك والناقمين على

(1)- أرشيف الحكومة التونسية، صندوق 212، ملف 237، وثيقة رقم 4. بدون تاريخ. وقد تكون كتبت حوالي عام 1853 أو في الذي بعده.

المستعمر الفرنسي كمحمد بوعلاق اليعقوبي، وراح يشن غاراته من نفطة على الفرنسيين وأعوانهم داخل الحدود الجزائرية وفي ذلك يقول رين: وفي نفطة كان ابن ناصر بن شهرة يقوم منذ سنة 1851م بحرب مستمرة ضدنا في الصحراء الشرقية ولم يترك سنة واحدة لم يهاجمنا فيها أو قبائلنا التي رضخت لنا[1].

ولا بدّ من تسجيل هذه الملاحظة هنا حول علاقة مقاومة ابن شهرة بالطرق الصوفية، وهي أن ابن ناصر بن شهرة كان ينتمي إلى الطريقة القادرية، أما الزاوية التي لجأ إليها في نفطة فهي تمثل الطريقة الرحمانية بقيادة الجزائري الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز. وفي ذلك دليل واضح على أن الرجل البطل ابن شهرة لم يكن متعصبا لطريقة دون أخرى، والشيء نفسه ينطبق على مصطفى بن عزوز صاحب الزاوية، ولكن هذه الطرق كانت بالنسبة له ولغيره من شرفاء هذا الوطن بمثابة أحزاب وجمعيات يعملون من خلالها لتحقيق هدف الجميع وهو تحرير الأمة واسترجاع كرامتها الضائعة ممثلة في أرضها ودينها وحريتها لأن مصلحة الوطن وأمته فوق كل الاعتبارات مهما كانت.

لقد ظل ابن ناصر ابن شهرة في نفطة يتحرك من خلال زاوية ابن عزوز في جمع الأنصار والعدّة، والتنسيق مع من تهمّه قضية الجزائر حتى غدا مصدر قلق لسلطة باي تونس فأمر وزيره مصطفى خزندار بمطاردة ابن ناصر بن شهرة

(1) – Louis Rinn. Histoire de L’insurrection de 1871 en Algérie, p. 89.

ووضع حدّ لنشاطه نظرا للضغوط الفرنسية عليه، وكتب إليه برسالة في هذا الشأن مؤرخة في 15 ربيع الثاني من عام 1276 هـ (نوفمبر 1859) جاء فيها:

"الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. جناب الصدر الهمام أمير الأمراء الوزير الأكبر ابننا مصطفى خزندار حرسه الله تعالى، السلام عليكم وبعد، فإنه تقرر لدينا ما صدر من محمد بن بوعلاق اليعقوبي ومن ناصر بن شهرة من الغارات التي أوجبت مضرة الوطن الذي هم به الآن. فرأينا أن نأمر لبني زيد بالتمكن عليهما وعلى من انضم إليهما لإيقاف هذا الضرر وحسم مادة هرجهما. وصدر أمرنا بذلك وهو الواصل بوزارتكم السامية تضمن مادة ما ذكر، وأن من مدّ يده منهم للمذكورين الإذن في ضربه وأن يبادروا بذلك وبتوجيه من ذكر لحضرتنا فلتحضر الخليفة المخاطب به وتؤكد عليه بالعمل بما تضمنه، والله ولي الإعانة والسلام من الفقير إلى ربّه تعالى عبده المشير محمد الصادق باشا باي وفقه الله تعالى. وكتب في 15 ربيع الثاني سنة 1276"[1].

فاغتنم ابن شهرة فرصة اشتعال ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864 فكان أول الملبّين لداعي الجهاد واللّحاق بزعمائها حيث دخل متخفيا إلى ورقلة واتصل بسي العلاء زعيم أولاد سيدي الشيخ حيث خاض معه على رأس جيش عظيم معركة كبيرة في السادس من شهر أوت في عين طاقين ضد القوم وعملاء المستعمر. ثم أخذ يتنقل في مناطق الصحراء رفقة ثوار أولاد سيدي الشيخ لتجنيد الناس إلى الثورة وتفعيلها بكل الوسائل، حيث رجع مع سي العلاء إلى مدينة ورقلة سنة 1865، وفي ربيع السنة الموالية توجه مع سي الزبير وابن أخيه سي أحمد بن حمزة

(1)- أرشيف الحكومة التونسية، صندوق 212، ملف 237، وثيقة رقم 3.

من زعماء الثورة إلى المنيعة ومنها إلى عين صالح لتجنيد الثوار من توات والشعانبة والتوارق.

وفي جانفي 1869 دخلت ثورة أولاد سيدي الشيخ عين ماضي مركز التيجانية الأول حيث اقتحمها سي العلاء وابن شهرة ولم يستطع يومها شيخ الزاوية رفض تيار الثورة الجارف فأظهر ميله نحوها. وكان تأييد التيجانية للثورة والانضمام إليها بمثابة دق ناقوس الخطر بالنسبة للفرنسيين، سيما وأن هذه الطريقة تملك من القوة والتأثير في النفوس ما يجعلها قادرة على إمداد الثورة بالشيء الكثير. وقد أدرك الفرنسيون ذلك، فهم يهمّهم أن تبقى التيجانية على حيادها وبعيدة عن كل الثورات، فجهزوا جيشا كبيرا تفوقوا به على الثوار، أي أن الغلبة كانت لأحدث الأسلحة. أما شيخ الزاوية فقد اعتقلته السلطة الفرنسية ونفته إلى بولوغين بالجزائر ومنها إلى مدينة بوردو وذلك في شهر فبراير من السنة نفسها، وقد ظهر في نفس المدينة في الشهر الموالي[1].

إن ابن ناصر بن شهرة وهو يقاوم الفرنسيين ويجاهدهم خلال عقد الستينات سواء مع أولاد سيدي الشيخ أو الشريف بن عبد الله أو غيرهم، فإنه ظل على اتصال دائم بقاعدته الخلفية الرئيسية في نفطة وهي زاوية مصطفى بن عزوز الرحمانية، إذ كان كثير التردد عليها خلال هذه الفترة يجمع الأنصار ويدبر الخطط ويوفر المؤونة والذخائر، ويزيد من تمتين العلاقات مع الجزائريين اللاجئين

(1)–عن تفاصيل قضية اعتقال قائد التجانية في عين ماضي بسبب ميله للثوار من أولاد سيدي الشيخ وانضمامه إليهم كما قيل، أو تقصيره وتهاونه في غلق أبواب البلدة في وجههم كما فعل سلفه حسب رأي آخر، أو حتى من أجل تخويف الأتباع كما يذهب البعض، ينظر:

Louis Rinn. Marabouts et Khouans, p. 431–433

هناك وعلى رأسهم شيخ الزاوية نفسه عدو فرنسا اللدود، وأولاد الطيب بن عمران الشعانبي صاحب الشهرة بوادي سوف الذي هاجر إلى تونس منذ 1868. لقد كانت هذه الزاوية مركزا ومأوى للثوار الجزائريين وملجأ لكل مهاجر إليها لا لسبب كما يقول رين، سوى الرغبة في العيش في أرض إسلامية ورفضهم أن يكونوا رعايا للمسيحيين[1].

وفي سنة 1870 عرفت الأحداث في فرنسا تطورا كبيرا إذ دخلت في حرب مع الجارة ألمانيا ضمن سلسلة الحروب التي خاضها بسمارك في أوربا لاستكمال وحدة بلاده السياسية واسترجاع أراضيه المحتلة من طرف فرنسا وغيرها. وكان النصر حليف بسمارك في هذه الحرب واندحار الجيوش الفرنسية ووقوع الإمبراطور نابليون الثالث نفسه في الأسر. وقد زاد الأوضاع خطورة الانقلاب الذي قام به اليساريون ضد النظام الإمبراطوري إذ وضعوا حدا لعهد الإمبراطورية وأعلنوا قيام الجمهورية الثالثة في تاريخ فرنسا في شهر سبتمبر 1870، فوقعت فرنسا في فوضى وتطاحن حول الحكم بين المدنيين والعسكريين.

وما كان هذا الوضع ليغيب على الجزائريين داخل الجزائر وخارجها سيما وأن البعض منهم شارك في الحرب السبعينية مع ألمانيا ونقلوا إلى الجزائر أنباء الهزيمة واندحار الجيش الفرنسي وانكساره وضعفه والظروف العويصة التي كانت تمر بها فرنسا. فأدى ذلك كله إلى اشتداد أوار الثورة التي كان يحمل لواءها ابن شهرة وأولاد سيدي الشيخ والشريف بوشوشة وغيرهم من الشرفاء، كما لاحت في الأفق بوادر ثورة عارمة هي ثورة المقراني والحداد التي اتسمت بشموليتها.

---

(1)– Louis Rinn. Histoire de L'insurrection de 1871 en Algérie, p. 88.

ومن الجزائريين المنفيين خارج بلادهم الذين استغلوا الظروف الحرجة التي كانت تمر بها فرنسا الأمير محي الدين بن الأمير عبد القادر الذي قدم من سوريا ليشارك إخوانه في الجهاد، وقد ظهر في تونس في نوفمبر 1870 متظاهرا بالعلاج، وأمام احتجاج قنصل فرنسا لدى الباي أعلن الأمير محي الدين نيته في العودة إلى سوريا، غير أنه وبعد بضعة أيام من الإبحار نزل في طرابلس ومنها توجه إلى توزر ثم إلى مدينة نفطة حيث الزاوية الرحمانية المركز الأساسي الذي استقبل فيه من طرف إخوانه المجاهدين وعلى رأسهم الزعيم البطل ابن ناصر بن شهرة.

ومن نفطة دخل الأمير محي الدين الجزائر رفقة ابن ناصر بن شهرة وشرعا في تحريض القبائل والأعراش وتسليحهم، وشاع يومها في الجنوب خبر قدوم الجيوش التركية والمصرية لنجدة المسلمين، ومما قام به الأمير محي الدين وابن شهرة أيضا كتابة العديد من الرسائل تدعو الناس إلى الجهاد وتحثهم عليه. وقد وجه البعض منها إلى رئيس زاوية تماسين علي باي آغا تقرت وورقلة، وإلى رؤساء وأعيان الطرود بسوف، وإلى الأغواط ومزاب، وإلى بوشوشة والمخادمة وغيرهم[1].

(1) – عن ملابسات وظروف وأسباب وأهداف دخول الأمير محي الدين بن الأمير عبد القادر إلى الجزائر وإعلانه الجهاد ضد فرنسا، وهل كان ذلك باستشارة والده أم لا، وهل كان قرار الجهاد فرديا أو عثمانيا نظرا للتقارب الذي كان بينه وبين العثمانيين، وعن الثوار الذين اتصل بهم في نفطة وفي الجزائر وغيرها من القضايا ينظر:

Louis Rinn. Histoire de L'insurrection de 1871 en Algérie, p. 88, 106.

أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ص. 216 وما بعدها.

وممن استغل ظروف الانقلاب الذي عرفته فرنسا في سبتمبر 1870 يهود الجزائر أيضا الذين بذلوا ما في وسعهم للحصول على الجنسية الفرنسية منذ سنة 1830 ولم يتسن لهم ذلك إلا بعد الانقلاب المذكور حيث حقق لهم هذا الحلم، اليهودي المحامي أدولف كريميو باستصداره للقرار المشهور بتاريخ 24 أكتوبر 1870م والقاضي بتجنيس يهود الجزائر بصورة جماعية وإجبارية مستغلا ظروف فرنسا الصعبة[1].

وقد أثار هذا القرار استنكار الجزائريين الذين اعتبروه محاولة من المستعمر لمسخ كل مظاهر ومقومات الشخصية الوطنية واعتداء على حرية الأديان في الجزائر وأنه مقدمة وخطوة نحو تعميم هذه الجنسية على كل المسلمين الجزائريين. وقد أشار إلى ذلك رين قائلا: "ولكن البعض وهم المرابطون رؤساء الزوايا رأوا في ذلك دليلا على تسامحنا الديني الذي حملنا على فرض قانوننا المدني على اليهود بدلا من قانونهم الديني. وكانوا يظنون بدون شك أننا يوما ما سنتصرف مثل هذا التصرف بالنسبة للقانون الديني للمسلمين. وهذا دليل على التفسير الغريب من طرف الأهالي في بعض الأحيان لبعض إجراءاتنا"[2].

ويعتبر هذا القرار القاضي بتجنيس اليهود الجماعي واحدا من الدوافع التي كانت من وراء ازدياد غليان الجنوب بالثورة واشتداد أوارها. وما إن حلت سنة 1871 حتى اندلعت في الشمال ثورة المقراني والحداد التي لم يتردد ابن ناصر

(1) –Julien (Charles–André). OP. cit, p. 467.

(2)– Louis Rinn. Histoire de L'insurrection de 1871 en Algérie, p. 92.

بن شهرة في الانضمام إليها متخذا الصحراء الشرقية كميدان للعمل رفقة عدد من المنفيين من أصحابه. ومما تجدر الإشارة إليه ونحن نتحدث عن علاقة ثورة ابن شهرة بالرحمانية، فإن ثورة المقراني والحداد التي انضم إليها ابن شهرة كان من ورائها الإخوان الرحمانيون، فبعد أن انطلقت الثورة في 16 مارس 1871 بقيادة المقراني جاء النذير العام يوم 8 أبريل من خلال إعلان الشيخ الحداد الجهاد المقدس انطلاقا من زاويته بصدّوق ذات الاتجاه المستقل والتي كانت تمثل الطبقة الشعبية الكادحة والمحرومة.

إن الجهاد المقدس الذي دعا إليه الشيخ أمزيان بن علي الحداد قد جرّ إلى الثورة أكثر من 120 ألف مجاهد موزعين على العديد من القبائل جلّهم من أتباعه الرحمانيين فشملت بذلك الثورة كل المناطق الشمالية من العاصمة غربا إلى القل وحتى باتنة شرقا، وحوصرت مراكز فرنسا وقلاعها في هذه المناطق. ويعود ذلك إلى الصلات الوثيقة روحيا وأدبيا والتي كانت تربط زاوية الشيخ أمزيان الحداد في صدوق بالزوايا الأخرى في المناطق التي شملتها الثورة سواء في منطقة القبائل الصغرى والكبرى، أو في الشمال القسنطيني، أو في العاصمة وضواحيها، أو في واحات الجنوب الشرقية.

ومهما قيل عن دوافع وأسباب ثورة 1871 خصوصا الأقلام الفرنسية التي عمدت إلى تشويهها وتزييفها فإنها لا تخرج عن نطاق الثورات الجزائرية التي سبقتها أو لحقتها من حيث هدفها العام. فارتماء الإخوان الرحمانيين في هذه الثورة بشكل قوي قد أكسبها صفة الشعبية والشمولية، وجعل سلطات الاحتلال تدرك خطورتها وتتخوف من تفاعلاتها. على أن دخول هؤلاء الإخوان الرحمانيين

في الثورة لم يكن بدافع تعصب ديني ضيق كما ادعت الرواية الفرنسية، بل كان هدفهم الأسمى هو طرد المحتل الأجنبي واسترجاع الحرية والانعتاق، تدفعهم إلى ذلك قناعتهم الدينية التي تحتم عليهم خوض الجهاد المقدس ضد عدو كافر جاء هو الآخر لإذلال هذه البلاد باسم العقيدة المسيحية الحاقدة.

ولكن رغم كل الحماس الذي عرفته ثورة 1871 والشمولية التي اتسمت بها إلا أنها آلت إلى ما آلت إليه كل الثورات الجزائرية الأخرى من الانكسار وعدم الانتصار على العدو الذي كان يفوقها في ترسانته العسكرية وهذا لكثير من الأسباب الذاتية والخارجية. فقد استشهد الشيخ المقراني في 5 ماي 1871، وفي جويلية ألقي القبض على الشيخ أمزيان الحداد الأمر الذي عجل بتوقف الثورة.

وبعد هذه النتيجة الأليمة للثورة قرر آل المقراني الانتقال إلى الصحراء حيث وجدوا في البطل ابن ناصر بن شهرة نعم الرجل الذي استقبلهم بحفاوة بالغة وأكرم ضيافتهم، وهو الذي كان دليلهم في الصحراء ورفيقهم إلى نفطة حيث القاعدة الخلفية وهي زاوية ابن عزوز الرحمانية. وقد بلغ عددهم أكثر من 500 لاجئ سياسي في تونس وتحت ضغط فرنسا اشترط باي تونس على هؤلاء اللاجئين الذين دخلوا بلاده أواخر 1871 أن يتفرقوا في البلاد ولا يستقروا على الحدود الجزائرية التونسية.

وبعد فشل ثورة المقراني والحداد وإلقاء القبض على الثائر الشريف بوشوشة تفرق الكثير من المجاهدين لاجئين إلى طرابلس وتونس، وبقي ابن ناصر بن شهرة وحده ينازل قوات العدو ويناوشها من الجريد، ولكن لأسباب قاهرة داخلية وخارجية لم يقدر على المواصلة. فبعد ربع قرن من الجهاد المستميت

والتنقل في صحراء الوطن طولا وعرضا والمشاركة في أي ثورة شريفة قادها غيور على دينه ووطنه، نجد ابن شهرة هو الآخر يغادر الأرض التي لم يذق فيها طعم الراحة وقد أعطاها كل حياته متجها إلى بيروت في 2 جوان 1875 صحبة رفيق الجهاد الشيخ الكبلوتي فمكث إلى جانب الأمير محي الدين بعض الوقت ثم انتقل إلى دمشق والتحق بالأمير عبد القادر هناك، وفي سنة 1884 وافته المنية وهو يحمل في قلبه غصة دفينة لأنه مات مغربا عن وطنه الذي ترك العدو جاثما عليه.

ومن دمشق تدخل الأمير عبد القادر لدى الوزير التونسي خير الدين لصالح ابن شهرة يزكيه في وكالة من أجل تصفية أملاكه التي خلفها بتونس، وكان ذلك عن طريق رسالة بعثها إليه يقول فيها: إن القائد بن ناصر بن شهرة الذي خرج بأمركم السامي من المواطن التونسية قد استوطن عندنا بالديار الدمشقية، وقد ترك ما كان عنده من أثاث ودواب في الوطن الذي كان فيه، والآن أرسل وكالة مفوضة شرعية لبيع جميع ذلك فالمرجو أن تساعدوه[1]. والرسالة مؤرخة في 8 محرم سنة 1293 هـ الموافق 4 فبراير 1876 م.

(1)- أرشيف الحكومة التونسية، صندوق 78، ملف 992، وثيقة رقم 22.

ثورات الرحمانية في منطقة الأوراس:

ثورة الصادق بن الحاج (1858 - 1859م)

تشكّل هذه الثورة فصلا آخر من فصول المقاومة الوطنية وحلقة جديدة من حلقاتها المتصلة ببعضها البعض، وتشكل أيضا استمرارا لتلك الثورات التي خاضتها الطرق الصوفية وخططت لها وحرّضت عليها. وقد اندلعت في زمن إلغاء الحكم العسكري في الجزائر وإنشاء وزارة مدنية للجزائر والمستعمرات (1858 - 1860م) التي أ سندها نابليون الثالث إلى ابن عمّه وألغى منصب الحاكم العام، وأحدث منصب القائد الأعلى للقوات البحرية والبرية وعيّن الجنرال ماكماهون عليه.

عاش زعيم الثورة الشيخ الصادق بن الحاج مرابطا في جبل أحمر خدّو قرب بسكرة بسفوح الأوراس الجنوبية بعيدا عن الاختلاط بالفرنسيين، وأصله من أولاد سيدي منصور وهو شيخ وزعيم أولاد يوب في الجبل المذكور. كان واحدا من الستة الذين أجازهم الشيخ محمد بن عزوز البرجي شيخ الطريقة الرحمانية فأصبح من مقدّمي الطريقة في واحة سيدي المصمودي قرب بسكرة[1].

ولمّا اندلعت ثورة واحة الزعاطشة في سنة 1849م، تهاطلت عليها النجدة من كل الجهات القريبة والبعيدة واشتركت فيها الخنقة وبسكرة وطولقة وأولاد جلال وبوسعادة وسريانة وغيرها، وساهم في إثارتها وقيادتها عدد من رجال الطرق الصوفية البارزين وفي مقدّمتهم الحاج موسى الدرقاوي الشهير، والشيخ عبد

(1)- Depont (O) et Coppolani (X). OP. cit, p. 410.

الحفيظ الخنقي صاحب الخنقة، والشيخ المختار من أولاد جلال، والشيخ الصادق بن الحاج الذي هبّ على رأس فرقة هامة ومعها سبعمائة بندقية للدفاع عن الواحة المحاصرة[1].

وهناك عدة أسباب كانت وراء هذه الثورة، فتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى أصداء ثورة الشريف ابن عبد الله وابن شهرة التي كانت تصل إلى الأوراس سيما وأنها كانت ما تزال مشتعلة يومئذ رغم سقوط الأغواط وتقرت بيد الفرنسيين. وكذلك القرارات غير الشعبية التي أصدرها الفرنسيون ومهدت لسخط الناس مثل المناداة على الأطفال المسلمين بحضور المدارس الفرنسية العربية في بسكرة، وتشديد الرقابة على زيارات ا لزوايا بينما كان الشيخ الصادق هو مقدّم الطريقة الرحمانية في زاوية سيدي المصمودي ومن أنصار الشيخ بوزيان زعيم ثورة الزعاطشة[2].

وعلى الرّغم من أنّ الشيخ الصادق كان من أتباع الطريقة الرحمانية ومقدّم إحدى زواياها في المنطقة، إلا أنّ الرّواية الفرنسية لم تستبعد ضلوع الطريقة السنوسية في إشعال فتيل ثورته، وهو ما ذهب إليه شارل فيرو الذي يقول إنّه بالإضافة إلى التعصّب الشديد الذي تميّز به الشيخ الصادق، هناك مبعوثون وصلوا من المشرق إلى منطقة الأوراس وأجروا اتصالات معه، في نفس الوقت الذي وصلت فيه بعوث مماثلة من المشرق أيضا إلى جبال القبائل الشرقية حيث ثار

(1) L.-Charles Féraud. Notes historiques sur la province de Constantine. Revue Africaine, 1886, p. 105.

(2)- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية. بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1992، ج 1، ص. 364.

سكانها ضد الفرنسيين في الوقت الذي أعلن فيه الصادق بلحاج الثورة في جبال الأوراس، وقد استنتج فيرو أنّ هناك تنسيقا وتوحيدا للنضال كانت وراءه الحركة السنوسية[1].

وما دمنا نفتقر إلى دليل تقيمه الرواية العربية الاسلامية حول هذا الرّأي، فلا سبيل إلى إنكار هذا الاستنتاج ولا نستبعد ضلوع السنوسية في هذه الثورة، إذ من المعروف أنّ السنوسية كانت من وراء إثارة الجنوب خصوصا ثورة الشريف بن عبد الله التي سبق الحديث عنها، كما أنّ التعاون في الجهاد ضدّ العدو بيّن الطرق التي عُرفت بعدائها للمستعمر كان قائما بين زعمائها وأتباعها وقد رأينا في مقاومة ابن شهرة خير دليل على ذلك التنسيق والتعاون.

لا شك أنّ الشيخ الصادق بن الحاج قد تألّم كثيرا لما حدث لواحة الزعاطشة سنة 1849 وتأثر لمصير سكانها المؤلم، فبدأ حركته بإرسال المبعوثين والرسائل وعقد الاجتماعات حيث كان يجري الحديث عن مقاطعة الفرنسيين والدعوة إلى الثورة ضدّهم وتنفير الناس من إدارتهم، وكانت هذه الحركة تتم في الخفاء بواسطة الدعاة والوسطاء مراعاة لعدة ظروف وتحسبا لأي طارئ حتى شهر نوفمبر 1858.

ولكن منذ هذا التاريخ أخذت الحركة في التطور واتخذت شكل العنف والتمرد وكان ابنه ابراهيم في طليعة المتحمسين والدعاة للثورة حيث وصفه شارل فيرو بالتعصب والعنف كما وصف والده من قبل، وقال عنه أنّه كان يستغل اسم والده في إثارة الناس وكتابة الرسائل الداعية إلى الجهاد وقراءتها علنا في الأسواق.

(1)- L.-Charles Féraud. OP cit, p. 105.

وكان من ضمن هذه الرسائل رسالة خاصة وجهها ابراهيم ابن الشيخ الصادق مع مبعوث يسمى بوقريب إلى سكان قرية عقبة، ولما حاول قراءتها على الناس في ساحة القرية اعترضه بعضهم يريد إذايته، فلجأ إلى دار مقدم الإخوان الرحمانيين هناك واعتصم بها، فكان هذا الحادث بمثابة الشرارة التي أشعلت الثورة[1].

استمرت الثورة طيلة الخريف، وشملت مناطق عدّة منها سكان جبل أحمر خدّو وبني بوسليمان وسيدي عقبة ومشونش وغيرها، بل كادت تعم كل الأوراس سيما وأنّ الشيخ الصادق قد أعلم الثوّار بأن القوات الفرنسية لا تستطيع الحضور إلى منطقة الثورة لأنها ما تزال منشغلة بالحرب ضد سكان جبال جرجرة بالقبائل التي شنّها عليهم الجنرال راندون عام 1857، وبالفعل فقد كانت تلك القوات ما تزال حتى ذلك الوقت تواجه صعوبات كبيرة في القضاء على مقاومة سكان المنطقة.

ولمّا استشعر الفرنسيون خطر هذه الثورة وخافوا من أن تصبح زعاطشة ثانية، قرّروا مواجهتها بقسوة وعنف وبأسرع وقت ممكن، وجنّدوا لها قوة ضخمة واسندوا قيادتها إلى الجنرال ديفو ومعه القائد الموهوب بن شنوف برجاله من القومية، ودارت بين الطرفين معارك عديدة ومناوشات استمرت حتى شهر يناير 1859، ومنها المعركة الكبيرة التي دارت في مشونش وكانت فوق طاقة الشيخ الصادق وأصحابه حيث تفوّق عليهم العدو عدة وعددا وضيّق عليهم الخناق، فحاولوا اللّجوء إلى الجنوب استعدادا لمواصلة الثورة.

(1)– L.–Charles Féraud. OP cit, p. 105 – 106.

ولكن القوات الفرنسية بمساعدة ابن شنوف اعترضت سبيلهم في حوض وادي العرب واعتقلوا الشيخ الصادق ومعه أكثر من ثمانين رجلا من عائلته وأتباعه يوم 20 جانفي 1859، واقتادوهم إلى معسكر الجنرال ديفو.

وباعتقال زعيم الثورة فقدت حركته قوتها المحرّكة، كما انقلبت القوات الفرنسية بعد ذلك على السكان العزل فقتلت منهم الكثير، وصادرت أملاكهم، وأحرقت ديارهم وخيامهم، كما فعلت بأهل الزعاطشة قبلهم وتلك عادة الفرنسيين تجاه الجزائريين في كل ثوراتهم إبان الاحتلال.

وانعقدت للشيخ الصادق ومن معه محكمة عسكرية حكمت عليه بالنفي والسجن خمس عشرة سنة، وعلى الآخرين عشر سنوات، وكان منفاه جزيرة كورسيكا، وبعد فترة أعيد إلى سجن الحراش. ورغم طلب مدير السجن التخفيف عنه لكبر سنّه والتزامه بشروط السجن وانضباطه وصبره، وذلك حسب التقرير الذي قدّمه عنه وعن رفاقه في 17 مارس 1861[1]، فإنّه ظل سجينا إلى أن وافته المنية سنة 1862[2].

وبقي ولداه إبراهيم والطاهر في السجن، وقد طلبا العفو عنهما بعد وفاة والدهما، لتشتت نسائهما وأراضيهما وأولادهما كما قال إبراهيم في رسالته التي وجّهها باسمه واسم أخيه إلى الحاكم العام بيليسييه في 26 مارس 1862، وفيها

---

(1)- عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2010، ج. 2، ص. 192. وفي هذا التقرير قائمة بأسماء رفاق الشيخ الصادق وأسباب محاكمتهم وسلوكهم في سجن الحراش.

(2)- Depont (O) et Coppolani (X). OP cit, p 410 – 411.

عبارات التشفع والخضوع وطلب العفو والغفران. وبعد عام من هذا التاريخ كتب إبراهيم وأخوه طلبا آخر من سجن الحراش في المعنى نفسه[1]، ولم يُفرج عنهما إلا بعد مدّة.

كما قامت القوات الفرنسية بتخريب الزاوية التي أسسها الشيخ الصادق في سيدي المصمودي حيث أمر الجنرال ديفو بهدمها تماما سنة 1859، بدعوى أنها كانت منطلقا للثورة وناديا للتعصب ضد الفرنسيين. وجاء في إعلان هذا الجنرال المؤرخ في نهاية 1858 لسكان قبائل أحمر خدو، وبني بوسليمان، ووادي غسيرة، وأولاد داود، أنّ الشيخ الصادق يضللهم ويكذب عليهم ويجتمع بالنساء ويقلل من هيبة فرنسا وجيشها، وأنّ الدين الإسلامي لا يبيح ما فعله الصادق بلحاج كما قال، وقد توعد هؤلاء السكان بمصير الزعاطشة[2].

ولكن القائمين على الزاوية أعادوا بناءها في تيبيرماسين شمال واحة المصمودي بالتعاون مع الشيخ الطاهر ابن الشيخ الصادق بعد خروجه من السجن حيث عاد إلى سيرة أبيه الذي ورث منه البركة الصوفية، وسرعان ما تكاثر أتباعها الذين حافظوا على تقاليد الشيخ الصادق في العداء للفرنسيين كما يقول لويس رين، مستدلا على ذلك بأن ظهور الشريف محمد بن عبد الرحمن سنة 1879 في الأوراس، زعيم الثورة الموالية، كان من خريجي هذه الزاوية.

---

(1)- يُنظر الملحق رقم 8 ورقم 9.

(2)- المرجع نفسه، الملحق رقم 10، ص 174.

انتفاضة محمد بن جار الله عام 1879

سبق الحديث عن ثورة الصادق بلحاج سنة 1859 بالأوراس والتي قامت بإيعاز من الطريقة السنوسية وتحريضها رغم انتمائه للطريقة الرحمانية، ولم يشهد الأوراس ثورة هامة إلاّ سنة 1879 بزعامة ابن جار الله، رغم أنّ المنطقة قد تخللتها بين التاريخين المذكورين عدة انتفاضات. وهناك عدة أسباب وعوامل سياسية ودينية واجتماعية واقتصادية كانت وراء هذه الانتفاضة، فالنظام العسكري قد أحكم قبضته على السكان وقهرهم، والطريقة الرحمانية المعروفة بجهادها ضد العدو قد ازداد تأثيرها وكثر أتباعها، واشتدت حدة الصراع بين العائلات المتنفذة من أجل مصالحها سيما بين عائلتي بوعكاز وبن قانة، وكانت الحالة الاقتصادية أكثر سوء لاشتداد القحط والجفاف وكثرة الضرائب وغيرها من الأسباب.

قاد هذه الانتفاضة شاب في الثلاثين من عمره يدفعه في ذلك حماسه الشديد ضد النفوذ الاستعماري وظلم أعوانه، واسمه الكامل محمد الصالح أمزيان بن عبد الرحمن من عرش بني بوسليمان، وعُرف في المنطقة باسم محمد بن جار الله، واشتهر بلقب الشيخ بوبرمة كما يقول لوسياني[1]، بسبب حديث البورمة له أثناء غليانها، وهذا من تصرفاته الخارقة للعادة التي ترويها العامة وتستغلها الرواية الفرنسية لتشويه الثورة وصاحبها واضفاء الطابع الأسطوري

(1)– D. Luciani. Un Souvenir de L'Insurrection de 1879. Revue Africaine, 1925, p. 194.

عليها، وهذا أبعد ما تكون عنه الطريقة الرحمانية وأتباعها الذين عُرفوا بالجهاد وتحرير الدين من الخرافات.

كان ابن جار الله من أتباع الطريقة الرحمانية، وقد تخرّج من زاوية تيبيرماسين التي أعاد تأسيسها الشيخ الطاهر ابن الشيخ الصادق زعيم ثورة 1859 بالأوراس إثر خروجه من السجن، لأن الفرنسيين كانوا قد هدموا الزاوية الأم بسيدي المصمودي بعد قضائهم على الثورة، وقد تكاثر أتباع هذه الزاوية وحافظوا على تقاليد الشيخ الصادق في العداء للفرنسيين كما يقول لويس رين، مستدلا على ذلك بأن ابن جار الله الذي اعتبره شريفا مزيفا كان من خريجي هذه الزاوية[1]. ولا شك أن فرع هذه الزاوية لم يؤسس طريقة خاصة وإنما هو امتداد للرحمانية سواء اعترف بشيخ أعلى أم لم يعترف، ولعله كان مستقلا أو كان تابعا لزاوية طولقة أو نفطة[2].

وبعد تخرّجه من الزاوية المذكورة اشتغل ابن جار الله بتدريس القرآن والإمامة في مسجد سيدي عيسى بقرية جار الله في بني بو سليمان، ثم التحق بقرية الحمام، وهي إحدى قرى أولاد داود، وسكن بها وتولى الأذان وشؤون الإمامة ووعظ الناس بمسجدها، وقد ساعده منصبه الدّيني هناك على احياء سيرة الشيخ الصادق وابنه، وتوسيع نفوذه والإكثار من الأنصار والأتباع والمريدين، والعمل على شحن القبائل وإلهاب الحماس الدّيني لديها من أجل المقاومة والجهاد.

---

(1)– Louis Rinn. Marabouts et Khouans, p. 460.

(2)– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، ص. 156.

انطلقت الانتفاضة في وقت غير متوقع بالنسبة للفرنسيين وقد فاجأت الكثيرين منهم سيما وأنها قد انفجرت بعد إرسال التقرير الشهري عن الأوضاع السياسية مؤكدا أنّ الهدوء التام كان يسود المنطقة وأنّ السيطرة على أهاليها باتت محكمة ونهائية، وكانت الشرارة يوم الثلاثين من شهر ماي سنة 1879 لمّا جاء أعوان قايد أولاد داود سي الهاشمي بن بوضياف لإلقاء القبض على الإمام ابن جار الله بتهمة التحريض على الثورة فتصدّى لهم أنصاره وقتلوا أحد رجال القايد وجرحوا آخر.

وعند حلول الليل أعطيت الإشارة بانطلاق الانتفاضة العامة وتمّ تحديد الهدف وهو القضاء على القياد الثلاثة، حيث توجهت مجموعة من أبناء قبائل اللحالح والطوابة وبني بوسليمان قوامها حوالي مائتي رجلا إلى العناصر لمفاجأة القايد سي الهاشمي بن بوضياف ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك لأنّه كان قد تحسّب للأمر وفرّ إلى باتنة. وبعدها تحول الثوار إلى برج أتكوت مقر قايد بني بوسليمان مصطفى باش تارزي واغتالوه هناك وكان ذلك في الواحد والثلاثين من شهر ماي[1].

وبناء على المعلومات التي قدّمها القايد الهاشمي بن بوضياف إلى السلطات الفرنسية، بعد فراره إلى باتنة، صدرت الأوامر إلى والده القايد محمد بن بوضياف بالذهاب إلى قرية الحمام مصدر الانتفاضة لاستعادة الأمن وقمع الثوار، وتمّ تزويده بقوات إضافية ومجموعة من الصبايحية وكان برفقته رئيس مكتب الشؤون العربية في باتنة الملازم كوربي، وفي طريقه إلى قرية الحمام توقف في قرية العناصر القريبة منها استعدادا لملاحقة الثوار، ولكن مجموعة من قبيلة

(1)- C. Noëllat. L'Algérie en 1882. Paris 1882, p. 105-106.

اللحالح فاجأتهم في منتصف ليلة الفاتح جوان وقتلت القايد بن بوضياف وثمانية من الصبايحية وجرحت آخرين ونجا الآخرون بأعجوبة[1].

لقد أعطت هذه الحادثة لابن جار الله دعما كبيرا ودفعا قويا حيث انضمت قبيلة بني بوسليمان بأكملها إلى أولاد داود الذين احتضنوا زعيم الثورة، كما انضم إليه أولاد علي بن افلوس من بني أوجانة بخنشلة، والسراحنة وأولاد سيدي محمد من أحمر خدّو، فتجمعت لديه قوات فاقت الألف مجاهد تمكن بفضلها من مهاجمة برج وادي التاقة واحراقه، وقتل الحسين بن عباس الابن الأكبر لقايد أولاد عيسى وهو محمد بن عباس زعيم القادرية في منعة مع خليفته دعاس واثنين من خدمهما وتسعة من قومية أولاد عبدي، وكان ذلك في ليلة السادس من شهر جوان.

واضح من خلال أحداث الفترة الممتدة من الثلاثين ماي إلى السابع جوان أنّ الانتفاضة قد تكللت بنجاح كبير ضد ممثلي السلطة الفرنسية وأعوانها سيما القيّاد منهم الذين كانوا السبب الرئيسي في اندلاعها، ولعلّه من المفيد هنا التذكير ببعض الأعمال الشنيعة التي ارتكبها هؤلاء القياد في حق السكان ودفعوهم إلى التمرد. فمصطفى باش تارزي الذي كان أول من قطعت رأسه، فقد كان منذ سنة 1876 محل شكاوى كثيرة صدرت ضده من طرف بني بوسليمان الذين كانوا يتوجهون إلى بسكرة لهذا الغرض، كما أطلق العنان لأولاده فتسبب أكبرهم في

(1)– Ibid, p. 106.

مظالم فاقت ما ارتكبه أبوه في حق أولاد أحمد بن محمود في نقاوس الذي صيّرهم فقراء بعد أن كانوا أغنياء، وتمّ تشتيتهم بالنفي والحبس داخل البلاد وخارجها[1].

أما القايد الهاشمي بن بوضياف الذي نجا من الموت فقد أجمعت كل الشهادات على أنه كان ماجنا ويقوم بتصرفات لا أخلاقية في حق نساء وبنات قبيلته، ومنها أنه ربط رجلا من الزحاحفة ووضع له اللجام واعتدى على زوجته على مرأى منه، وكذلك السطو على المواد الغذائية وفرض غرامات من غير تسليم التوصيلات لأصحابها. وفي رسالة تظلم مطولة ضدّه قدّمها جميع شيوخ أولاد داود وكبارهم إلى لجنة التحقيق أن الهاشمي قد أخذ منهم عنوة أربعمائة رأس من الغنم، ومائة رأس من المعز، وعشرين صاعا من القمح، كما ارتكب مع أبناء عمومته أعمالا شنيعة في حق القبيلة.

وأما محمد بن عباس قايد أولاد عبدي فالشكاوى والتصريحات ضده لا تقل مرارة وشناعة عن غيرها، فكثيرا ما كان يتجاوز صلاحياته إلى حدّ بعيد فيستولي على المياه وعلى أغراس الناس وهم في أشد الحاجة إليها، كما كان من أكثر الناس مجونا رغم كبر سنّه إذ كان لديه أزيد من ثلاثمائة خليلة في كل القبائل وأنه كان يستقدم من شاء من البنات، كما ترك الأمور بيد ابنه حسن وممثله دعاس وبعض خدمه الذين كانوا يحكمون بدلا عنه ويرتكبون التجاوزات خاصة

(1)- عبد الحميد زوزو، الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2010. مج 1، ص. 177-178.

ما تعلق بجمع الضرائب، وإذا ما تنقّل الناس إلى باتنة لتقديم شكاويهم يوقفهم دعاس ويرجعهم إلى قبائلهم[1].

انتشرت أخبار الهجوم الأخير على قايد أولاد عبدي بسرعة في أرجاء المنطقة وأدخلت الرّعب في نفوس الخونة من أعوان الفرنسيين وأحيت الأمل لدى الناس في موعد الخلاص، أما زعيم الثورة فقد تلقب بلقب المهدي محمد بن عبد الله ورأى أنّه قد آن الأوان لتعميم الانتفاضة فقرّر ارسال مبعوثيه إلى مختلف الجهات يحملون رسائله الداعية إلى الجهاد. ومنها الرسالة التي بعثها إلى علي بن العربي قايد الحراكتة يطلب منه تزويده بالرجال ويدعوه إلى الثورة، وأخرى إلى سي الحاج الطيب بن علي الشريف في باتنة وهو شخصية دينية متنفذة من أجل إقامة العدل ودحر الكفار.

كما وقعت رسالة مماثلة بين يدي حاكم بلدية عين مليلة المختلطة دومينيك لوسياني تسلمها من أحد مقدّمي الطريقة الرحمانية بالمنطقة الذي رجاه ألاّ يعلن عن اسمه، وكانت هذه الرسالة موجهة إلى كبار أولاد عيسى وقد جاء فيها: "الحمد لله وحده، يتعرّف به كبار أولاد عيسى، السلام عليكم والرحمة والبركة، من المسلم الإمام المهدي يخبركم أنّه قد جاءه النصر من عند الله لقتال الكفار، ولا بد لكم أن تقوموا بالجهاد لتكون كلمة الله هي العليا ومن كذب في هذا الأمر فقد كذب على الله ورسوله ولكم أجر عظيم بذلك، والسلام ممّن كتب عن إذنه محمد بن عبد الله المهدي نصره الله"[2].

---

(1)- المرجع نفسه، ص. 177.

(2)- D. Luciani. Op Cit, p. 192.

ويبدو أنّ رسائل أخرى مماثلة وجدت طريقها إلى زواوة في بلاد القبائل تدعو إلى الانتفاضة لتوسيع رقعتها للحيلولة دون تركّز القوات الفرنسية في منطقة واحدة وتشتيت قدراتها. وممّن استجاب لدعوة ابن جار الله زعيم الطريقة الرّحمانية في مدرونة سي الهاشمي بن دردور الذي سمح للإخوان التابعين له بالالتحاق بصفوف المجاهدين وذكر قائد الثورة بخير وقال إنّه في وسعه وضع حدّ للظلم.

وخلال يومي الثامن والتاسع جوان أقدم الثوار، رغم إمكانياتهم البسيطة المتمثلة في البنادق القديمة وبعض السيوف والعصي، على حرق رحا القايد بوضياف في قرية واد طوب قرب قرية الأرباع، ثم قاموا بمهاجمة المعسكر الفرنسي الذي كان يضم عددا من القومية والقناصة والصبايحية والرماة برئاسة الضابط كوربي، وكانوا عازمين على الاستفادة من عنصر المفاجأة ليلا، ولكن حرّاس المعسكر أجبروهم على التراجع ودارت المعركة حتى مطلع النهار حيث انسحب الثوار إلى المرتفعات المجاورة تاركين قرابة مائة قتيل في صفوفهم مقابل ستة قتلى وعشرة جرحى في صفوف العدو، وكان للنساء دور كبير في تشجيع الثوار على الصمود[1].

ونظرا لخطورة الثورة وتفاقم أوضاعها وتسارع أحداثها اهتم الفرنسيون بأمرها، فتشكلت ثلاث فرق عسكرية تحت إمرة قائد مقاطعة قسنطينة الجنرال فورجيمول لإرهاب الثوار وتخويفهم. انطلقت الفرقة الأولى من باتنة في الثاني

(1)- C. De Margon. Insurrection de la Province de Constantine de 1870 à 1880. Paris 1883, p. 181-182.

عشر جوان بقيادة الجنرال لوجرو صوب مواطن أولاد داود، وخرجت الفرقة الثانية من بسكرة في اليوم الموالي بقيادة الكولونيل كاجار وصعدت عبر وادي الأبيض مخترقة مضارب بني بوسليمان لنجدة الفرقة الأولى، بينما جاءت الفرقة الثالثة من خنشلة يرأسها الكولونيل قوم، وتحركت الفرق الثلاث صوب المنطقة المنتفضة وفق خطة مدروسة لمحاصرة الثوار والتضييق عليهم، فوقعت بعض الاشتباكات بين الطرفين في الخامس عشر والسادس عشر جوان انتهت لصالح العدو فتوقفت المعارك في اليوم الموالي بكل النواحي[1].

وجاء بعد ذلك دور القمع الشديد الذي مارسه الفرنسيون وأعوانهم واستمرّ حتى نهاية شهر جويلية، وأسفر عن احتجاز الرّهائن من القبائل المنتفضة، والإغارة على المواشي، ومصادرة الأراضي وحجزها، وفرض ضرائب الحرب التي تراوحت بين عشرة وعشرين مرّة قيمة الضريبة السنوية وغيرها من الاجراءات الانتقامية. كما أسفرت الانتفاضة على مقتل قرابة ستمائة ضحية كان أغلبهم في طريقهم إلى الجريد التونسي هروبا من الانتقام الفرنسي فسقطوا في صحراء خنشلة من شدة العطش والارهاق، وأُسر من بقي منهم على قيد الحياة وعلى رأسهم زعيم الثورة، فقدّموا إلى مجلس الحرب في قسنطينة فأصدر في حقهم أحكاما تتراوح بين الإعدام والأشغال الشاقة والحبس والنفي إلى كورسيكا في السادس عشر جوان 1880 أي بعد عام من انتهاء الانتفاضة، وكان التخفيف

(1)– Ibid, p. 183–185.

الوحيد الذي صدر في حقهم هو تحويل أحكام الإعدام إلى أحكام بالأشغال الشاقة[1].

قامت السلطات الفرنسية بتعيين لجنة للتحقيق مؤلفة من فرنسيين مدنيين فقط لم يسبق لهم العمل في الجزائر، ومقررها هو والي قسنطينة، وخلصت نتيجة التحقيق إلى اتهام القيّاد والمكاتب العربية العسكرية بأنهم السبب وراء الانتفاضة وكان ذلك تماشيا مع التيار الداعي إلى ضم الأوراس إلى الإدارة المدنية. ولعل أكثر التصريحات وضوحا في هذا الاتجاه تلك التي أدلى بها زعيم الثورة ابن جار الله من سجن قسنطينة قبل محاكمته في رسالة موجهة إلى مجلس الحرب توطئة لدفاعه، والتي صرّح فيها بأنّ آل باش تارزي ومن لفّ لفّهم هم السبب في الانتفاضة[2]. ومن جهتهم قدّم العسكريون تقريرا عن الانتفاضة شهدوا فيه بأنها امتداد لثورات سابقة مثل الزعاطشة وثورة الصادق بلحاج، وأن التعصب الديني هو الذي دفع ابن جار الله إلى ذلك، والغريب أن الجنرال فورجيمول هو الذي أمضى التقريرين فأين هي الحقيقة كما تساءل أحد الصحافيين الفرنسيين آنذاك[3].

---

(1) –Ibid, p. 195–206.

(2)– تقع هذه الرسالة المؤرّخة في 28 ماي 1880 في خمس صفحات وهي مترجمة عن العربية رغم عدم وجود النص العربي. عبد الحميد زوزو، مرجع سابق، الملحق رقم 12، ج. 2، ص. 182–187.

(3)– P. Bourde. A travers l'Algérie: souvenirs de l'excursion parlementaire (septembre–octobre 1879).Paris 1880, p. 156.

إنّ ثورة أهل الأوراس التي قامت ضد الظلم ومن أجل الحرية ونصرة الدين، وعلى الرغم من قصر أمدها الذي لم يتجاوز نصف شهر، وانحصارها في منطقة جغرافية محدودة وقبائل معدودة، إلاّ أن رصيدها الديني كان عميقا، يتجلى ذلك في تفاعل الرحمانيين معها في مختلف مناطق الجنوب، وفي زاوية نفطة بالجنوب التونسي التي كان متوجها إليها زعيم الانتفاضة. ولم يكن رصيدها السياسي أقل تأثيرا من الديني فقد ظلت المنطقة محل اهتمام كبير، وكانت سببا في مراجعة مسألة التنازع بين صفي بن قانة وبوعكاز، وفي تعميم الحكم المدني عل كل الجزائر.

الطريقة الشيخية

الطريقة الشيخية

يعرف أتباع الطريقة الشيخية طريقتهم بأنها "...هي طريقة إسلامية سنية صوفية، تحث على طاعة الله عز وجل والالتزام بالسنة المطهرة، وهي طريق قويم وصراط مستقيم تهدي إلى السبيل والهدى، جامعة بين الشريعة والحقيقة لأنها شيخية المشرب شاذلية المرجع محمدية الأصل والمنبع بسندها المتصل إلى الإمام سيدنا أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه، ثم منه إلى سيد الوجود النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أجمع القوم على طريقة الشاذلي...والعارف بالله تعالى والدال عليه، الولي الشهير، الشيخ سيدي أبو عبد الله عبد القادر بن محمد المعروف "بسيدي الشيخ "رضي الله عنه، هو الذي أسس الطريقة وسميت باسمه : شيخية أو بوشيخية، وذلك في القرن العاشر الهجري"[1] .

إن مبنى الطريقة الشيخية على طلب العلم، واحترام العلماء والفقهاء والفقراء، وكثرة ذكر الله تعالى " ...إذ هي من أقوم وأبسط وأنفذ وأقرب الطرق الصوفية إلى الله عز وجل، فمن سلكها وصل إلى الله تعالى مصحوبا بالسلامة محفوفا بالكرامة والأنوار، لأنها متمسكة بآداب الشريعة التي تحث على فضيلة الوسط بلا مجاهدة ولا كثرة الجوع، ولا كثرة السهر ولا طقوس، وبالتالي فإنها سليمة من كدورات جهلة المتصوفة، نسأل الله جل في علاه الحفظ والسلامة..."[2] .

يستشهد أتباع الطريقة بأقوال مؤسسها في قصيدته التي يشرح فيها تعاليم طريقته والمسماة بالياقوتة للدلالة على سنيتها وأصالتها. والطريقة الشيخية

---

(1) –أحمد بن عثمان حاكمي، الطريقة الشيخية في ميزان السنة، مطبعة مكاتب القدس، وجدة، 1996، ص. 20.

(2) –أحمد بن عثمان حاكمي، المرجع السابق، ص..20

فرع من فروع الشاذلية نشأت مع مؤسسها عبد القادر بن محمد المدعو سيد الشيخ والمتوفي سنة 1225هـ /1616 م ببلدة الأبيض سيد الشيخ، وينتهي نسبه إلى الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه، تعلم مبادئ اللغة العربية والقرآن والفقه على يد فقهاء من أسرته ثم مذهبهم الصوفي على يد الحاج بن عامر شمال الربوات ثم على يد الشيخ عبد الجبار بفقيق والشيخ أحمد بن موسى الكرزازي، استقر بعد ذلك بفقيق وأنشأ زاوية "العباد" واهتم بتكوين المريدين الذين ازدادت أعدادهم بازدياد شهرته[1].

خاض أولاد سيدي الشيخ مقاومة عنيفة دفاعا عن الوطن و الديار، فبعد أن رسمت الحدود بين الجزائر والـمغرب بموجب معاهدة لالة مغنية تمزقت على إثرها مصائر بعض القبائل المنتشرة على هذا الخط و منها قبيلة أولاد سيدي الشيخ[2]، كما نجحت فرنسا في استمالة سي حمزة بن بو بكر زعيم الفرع الشرقي من أولاد سيدي الشيخ بتعيينه سنة 1850 خليفة على الجنوب الجزائري.

أظهر الخليفة الولاء لفرنسا ووضع نفوذه في خدمتها، إلا أنها لم تطمئن إليه لما له من مكانة بين القبائل الصحراوية، فاستدعته إلى الجزائر العاصمة، للتحقيق معه متذرعة بشكاوى بعض سكان المنطقة، غير أنه لقي حتفه يوم 15 أوت 1861م .وادعى الفرنسيون أن زوجته دست له السم. وولت مكانه ابنه الأكبر بوبكر، برتبة "باش آغا" وهي أقل من رتبة خليفة لكنه سرعان ما قتل هو الآخر مسموما من قبل أتباعه في 22 جويلية 1862م.

---

(1)- عبد القادر خليفي، الطريقة الشيخية، ط2، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر،2010، ص. 26.

(2)- المرجع نفسه، ص. 33.

نصّبت فرنسا سي سليمان بن حمزة مكان شقيقه سي بوبكر، و عزلت القائد سي الزبير من آغوية ورقلة، بذريعة مرضه الـمزمن، وقامت بتعيين شقيقه سي لعلا بن بوبكر مكانه، وكان هذا الأخير متأكدا من أن وفاة سي حمزة وابنه بوبكر إنما هو عمل دبرته السلطات الفرنسية فأخذ يحرض ابن أخيه سي سليمان على مقاومة الاستعمار مستغلا بعض العوامل منها مثلا سحب فرنسا لبعض قواتها الرابضة بالجنوب الغربي لتدعيم مجهودها الحربي الاستعماري في أمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا.

أسباب مقاومة أولاد سيدي الشيخ:

سلك الاستعمار الفرنسي في عملية التوسع و بسط النفوذ العديد من الأساليب كاستغلال نفوذ أسرة أولاد سيدي الشيخ مطية للتوغل في الجنوب ،وحينما تيقن الزعماء من خطر هذه السياسة تصدوا له، وأعلنوا الجهاد ، إلا أنّ هناك دوافع أخرى دينية وسياسية واقتصادية عجلت باندلاع المقاومة يمكن حصر بعضها في النقاط التالية:

- رفض الاحتلال، وهو العامل الرئيس لكل المقاومات.
- إثقال كاهل السكان بالضرائب لتحطيمهم ماديا وتفقيرهم.
- سياسة فرنسا القائمة على فكرة "فرق تسد " بضرب وحدة الصفوف.
- محاولة فرنسا زعزعة نفوذ سي سليمان و الحد من نفوذه[1].

(1)– الزاوي خديجة، لمحة تاريخية حول أولاد سيد الشيخ، مجلة عصور، عدد18–19، وهران، ديسمبر 2012، ص. 426.

في خضم هذه الظروف وجه سي سليمان نداء إلى عائلته مؤكدا أن الفرنسيين الذين سمموا أباه حمزة وأخاه بوبكر، لن يتورعوا في قتله وعليه لابد من الاستعداد للمواجهة والشروع في التحضير لإعلان الجهاد، ويبقى السبب المباشر تلك الإهانة التي تعرض لها سي الفضيل وعدد من أفراد عائلة أولاد سيدي الشيخ يوم 29 جانفي 1864م في ساحة البيض على يد ضباط المكتب العربي.

المرحلة الأولى: 1864 - 1967

أعلن فيها سي سليمان الجهاد، بعد أن وافقه شيوخ الزاوية واستجاب له عدد معتبر من الأتباع والأنصار وكلف سي الفضيل بمهمة التعبئة و الاتصال بالقبائل وأتباع الطريقة البوشيخية المنتشرين عبر ربوع الصحراء.

وفي يوم 08 أفريل 1864 اندلعت المقاومة بالإغارة على مخيم للجيش الفرنسي في هضبة عوينة بوبكر شرق البيض مما أثار الارتباك و الهلع في صفوف القوات الفرنسية، كما انقض سي سليمان على العقيد بوبريتر وقتله، غير أنه لقي حتفه على يد الجند الفرنسيين في نفس المعركة.

خلف هذا الانتصار أثرا حسنا بين القبائل التي سارعت إلى الانضمام إلى المقاومة، خاصة بعد أن علمت بسقوط العديد من الضباط الفرنسيين، نذكر منهم العقيد "بوبريتر" والنقيب "إسنارد (ISNARD) "ونقيب الـمكتب العربي بتيارت

والـمترجم "كابيسو(CABISSOT) ، ونقيب الصبايحية "تيبولت (THIBAULT) " مع ملازمه الأول "بيران (PERRIN) "و ملازم القناصة "بوبيي[1].(BEAUPIED) ".

وبعد استشهاد سي سليمان بن حمزة بويع سي محمد قائدا، ولصغر سنه استعان بعميه سي الزبير وسي لعلا، وقد عرف عن هذا الأخير الحيوية والحنكة في ادارة المواجهة، بقدرته على التعبئة. كما تدعمت المقاومة يوم 17 أفريل بانضمام قبيلة أولاد شايب من دائرة بوغار تحت قيادة الآغا النعيمي ولد الجديد وحوالي خمسمائة فارس، بعد أن قاموا بهجوم مباغت على معسكر فرنسي، يقوم بمهمة التجسس وجمع الأخبار عن تحركات المجاهدين، وقضوا على الـملازم أحمد بن رويلة وضابطين فرنسيين و11 صبايحيا. وأمام هذه التطورات سارع الجنرال يوسف إلى تنظيم كتيبة في بوغار للسيطرة على القبائل الثائرة وتهدئة الأوضاع.

ومن أشهر المعارك التي خاضها سي محمد بن حمزة، معركة ابن حطب يوم 26 أفريل 1864م ضد فيلق الجنرال "مارتينو (MARTINEAU) "المتجه إلى البيض، وفي يوم 13 ماي 1864م وقعت معركة "ستيتن" بين المقاومين بقيادة سي محمد وقوات العدو بقيادة الجنرال "دلينيه"، فقد فيها المجاهدون العديد من الرجال، مما جعل سي محمد ينسحب إلى الجنوب، وتمكن بذلك الجنرال "دلينيه" من الانتقام من السكان العزل.

(1)- محفوظ قداش، جزائر الجزائريين تاريخ الجزائر 1830-1954، منشورات ANEP ، الجزائر، 2008، ص 196.

استغل المجاهدون ظروف اشتداد الحر، للانقضاض على الـمراكز الفرنسية وتأديب القبائل الموالية للاستعمار فهاجموا فرندة في 12 جويلية 1864 لتأديب الخونة، غير أن السلطات الفرنسية عززت مراكزها بتجهيز خمس كتائب منها كتيبة الجنرال "لوقران" و "دلينيه - مارتينو"، وكتيبة "جوليفي" ولم يحول ذلك من شن هجوم بزعامة سي محمد على كتيبة الجنرال "جوليفي" بعين البيضاء يوم 30 سبتمبر 1864م، وألحقوا بها خسائر جمة.

أصدرت الحكومة الفرنسية التعليمات للجنرال "دلينيه" والجنرال يوسف لفك الحصار عن هذه الجهات، وكلفت "شانزي "بمطاردة المجاهدين، فخيم الجنرال "دلينيه" بالبيض لمحاصرة المقاومين، ومراقبة تحركاتهم مما أسفر عن وقوع معركة غارة سيدي الشيخ يوم 4 فبراير 1865م، جرح خلالها سي محمد بن حمزة، و توفي متأثرا بجروحه يوم 22 فبراير من نفس السنة، فخلفه أخاه سي أحمد ولد حمزة، ونظرا لصغر سنه تولى سي بوزيد مهمة تنظيم المقاومة، طوال سنة 1865. وشهدت سنة 1866 عدة اشتباكات ومعارك برز خلالها العقيد "دي كولومب الذي حقق بعض الانتصارات نظرا لخبرته ومعرفته بالـمناطق الصحراوية، من أهمها معركة الشلالة في أفريل 1866[1].

المرحلة الثانية : 1867 – 1881:

لم تـثْن الهزائم الأخيرة من عزيمة أولاد سيدي الشيخ على مواصلة المقاومة، بل اعتصم المجاهدون بالجنوب والحدود الجزائرية الـمغربية لـمعاودة

(1)– محفوظ قداش، مرجع سابق، ص. 196.

القتال عن طريق الكر والفر، للتغلب على القوات الاستعمارية الضخمة التي لا يمكن صدها بأسلوب حروب المواجهة.

تعدّ الفترة الممتدة من 1867م إلى 1869م فترة قحط في الجزائر، حيث شهدت أزمات متتالية كالمجاعة و تفشي الأوبئة إضافة إلى زحف الجراد، مما أدى إلى هلاك العديد من الأهالي، ورغم ذلك فقد استمرت المقاومة ولو بوتيرة أقل، انطلاقا من الحدود، وبعد وفاة سي أحمد بن حمزة في شهر أكتوبر 1868م بتافيلالت خلفه سي قدور بن حمزة الذي تمكن من توحيد صفوف أولاد سيدي الشيخ وتنظيم المقاومة، ففي عهده وقعت معركة أم الدبداب قرب عين ماضي في شهر فبراير 1869، انتصر فيها العدو الذي زاد من تعزيز قواته بالمنطقة، فأرسلت عدة بعثات منها بعثة "وانمبفين (WIMPFEN) "التي تمكّنت يوم 19 مارس من ضرب قبيلة حميان.

لقد انعكست الأحداث الجارية في فرنسا وأوروبا سيما منها هزيمة باريس أمام بروسيا سنة 1870 وسقوط النظام الامبراطوري وقيام الجمهورية الفرنسية الثالثة ايجابيا على المقاومة مما شجعها على الاستمرار، ومن أشهر ما خاضته من معارك معركة ماقورة في 17 أفريل 1871 استشهد فيها أزيد من مائتي مقاوم غير أنها لم تستطع مواكبة مقاومة الـمقراني والشيخ الحداد.[1]

وفي 23 ديسمبر لحق الجنرال "أوصمانت" بالقائد سي قدور بن حمزة الذي اخترق صفوف القوات الفرنسية بكل شجاعة، نحو التل وقد أصابه في موقعة "ميقوب" ففرّ إلى الجنوب مع عمه سي لعلا. و بذلك تعد هذه المعركة بمثابة

(1)- محفوظ قداش، مرجع سابق، ص. 197.

الضربة القاضية، كونها آخر معارك أولاد سيدي الشيخ الشراقة ضد الاحتلال الفرنسي.

مقاومة الشيخ بوعمامة:

عانى الجنوب الوهراني على غرار المناطق الجزائرية الأخرى ويلات الاستعمار الفرنسي من خلال سياسته الجهنمية المبنية على ضرب الصف الواحد معتمدا في ذلك على الدور الكبير للمكاتب العربية التي نجحت بدورها في خلق البلبلة وإثارة أحقاد القبائل فيما بينها حتى يستتب لها الأمر، كما أنها استطاعت أن تتغلغل بين العائلات الكبيرة لخلق الفتن وهذا ما حدث بين فرع الغرابة الذي ينتمي إليه الشيخ بوعمامة وفرع الشراقة أبناء عمومته إلا أن الشيخ بوعمامة أدرك نوايا الاستعمار الفرنسي، فأعلن الجهاد لتخليص البلاد والعباد من براثن الاحتلال الفرنسي وقد استمر جهاده إلى غاية عام 1908.

نشأ بوعمامة في أسرة بدوية محافظة، كانت تتميز بالعلم والتصوف، بدأ يحفظ القران بالكتاتيب بالحمام الفوقاني(فقيق)، عُرفت عائلته بتقواها الديني، وحرصها الشديد على تطبيق شعائر الإسلام فهو من أحفاد الفقيه المتصوف عبد القادر بن محمد المعروف في الجنوب الغربي الجزائري بلقب سيدي الشيخ.

ويلاحظ أن الشيخ بوعمامة عاش في وسط أسرة كلها تتميز بالتصوف، ولا شك أن مثل هذا الوسط الاجتماعي قد أثر بشكل كبير في شخصيته، مما جعله يسلك نفس المسلك الذي اتبعه أجداده وهو طريق الزهد والتصوف، ومع ذلك عاش المرحلة الأولى من حياته في بيئة جغرافية وطبيعية حتمت على سكانها الخضوع لظروفها، فاحترف الرعي وفق الطرق التقليدية والزراعة المعاشية بوسائل

بسيطة، وتجارة القوافل في ظروف جد صعبة، والتي عرّضت العديد من الذين مارسوها للإغارة والسلب وذلك كبقية شباب المنطقة، وكانت تجارة القوافل تشكل همزة وصل بين الصحراء والتل الوهراني، والتي سمحت له بتوطيد علاقات مع أهل التل والصحراء، والاطلاع على أحوالهم، واكتساب تجربة وخبرة من خلال نشاطه التجاري سيكون لها الأثر البالغ في نشاطه السياسي والعسكري اللاحق[1] .

ترعرع بوعمامة في مجتمع سادت فيه الاضطرابات والفتن والنزاعات القبلية، وحب الزعامة والتسلط دون انتشار الوعي الثقافي، مما عرقل الأنشطة الاقتصادية، وجمد النشاط العقلي والثقافي عامة، تربى بوعمامة في رعاية والده السي العربي بن الحرمة الذي كان يحترف الرعي والتجارة والذي قرّر أن يجعل ابنه ملازما لعمه سي المنور الذي تلقى على يده تعليمه الأول وعلى يد الشيخ محمد بن عبدالرحمان أحد مقدمي الطريقة الشيخية والشيخ الشريف مصطفى بن محمد بن عبدالله والطيب بن يعقوب هؤلاء الذين زرعوا فيه النيات الطيبة من علوم الفقه والشريعة وحسن الخلق، فحفظ سورا عديدة من القرآن _ إلا أنه لم يتمكن من إتمامه كاملا _ وبعض الأحاديث النبوية الشريفة والشعائر الدينية الأساسية، والأوراد والأذكار الخاصة بالطريقة الشيخية، ثم المبادئ العامة للتصوف والزهد في الحياة، مما أهّله لتولي منصب مقدم[2].

---

(1)- عبدالحميد زوزو، ثورة بوعمامة1881-1908(جانبها العسكري1881-1883)،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،1981،ص. 07 .

(2)- محمد السناوي، أضواء على ثورة بوعمامة1881، مجلة التاريخ، العدد10، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1981، ص.07 .

لم يتعمق الشيخ بوعمامة في العلوم الدينية والصوفية مثل جده سيدي سليمان وسيدي الشيخ والسبب في ذلك هو أنّ التعليم في منطقته كان رتيبا سطحيا، يعتمد على حفظ القران دون تدبر وتفهم آياته، يقوم به معلمون كانوا في الغالب يفدون من تافيلات وكرزاز وقورارة، وإذا كانت هذه الدراسة بسيطة وفق مفهوم العصر الحالي فإنها اعتبرت حسب مفاهيم عصره ومحيطه الاجتماعي ثقافة ومعرفة عالية ميزته عن غيره بكل الخاصيات، فنال الإعجاب والتقدير .

وإذا كانت هذه نظرة المحيطين به من أتباع الطريقة الشيخية فإنّ تقارير الضباط الفرنسيين ذكرت أن أبا عمامة حفظ القران الكريم إلى جانب ممارسات أخرى هي مزيج من الخرافة والغرابة والغموض خاصة برجال الزوايا التي يحيطونها بالكتمان لما لها من تأثير على العقول وسلطان النفوس، وبالنظر إلى أنها مقياس والتفوق ومفتاح الاستلهام، وأداة اختراق.

إنّ العصر الذي عاش فيه بوعمامة لم يكن يزخر بحواضر متميزة بالعلم والعلماء في هذه المنطقة من الجزائر، فذهب بعض الباحثين إلى أنّ أبا عمامة زار قبل استقراره في مغرار التحتاني مدينة تلمسان وفاس وعدة مناطق في الجنوب الوهراني طلبا للعلم بينما ذهب البعض الآخر إلى أنه هاجر إلى المغرب الأقصى ليتابع تعليمه بجامع القرويين وأنه كرّس حياته في طلب العلم، والبحث في الأمور الفقهية المختلفة، ولكنّ اطلاعه الواسع قد يدل على أنه وصل المغرب بطريقة أو بأخرى، زادت من معارفه، وعمقت في فلسفته وفكره. وربما قد نهل من المصادر المهمة التي وقعت بين يديه، فأخذ ما كان يجب أن يأخذ لتثقيف نفسه والتفقه

في الدين، واطلّع على كثير من المعارف التي كان يرغب في التزود بها قبل الإقدام على مشروعه الثوري.

والراجح أنه لم يتمكن من بلوغ هدفه، ولم تكن ثقافته واسعة، ولم يحفظ من القرآن الكريم إلا بعضه، ويستنج ذلك من خلال خطابه الديني والسياسي الموجه إلى فئات المجتمع الذي كان يعيشه، حيث كان يلقيه باللغة الدارجة المحلية الخاصة بالمنطقة في كثير من الأحيان وكان يستشهد من حين لآخر بالآيات القرآنية، وبعض الأحاديث النبوية الشريفة، وكذلك من خلال كلمات وأسلوب رسائله التي كان يبعث بها إلى السلطات الاستعمارية الفرنسية كانت تكتب بألفاظ الدارجة المحلية تتخللها بعض الكلمات باللغة العربية الفصحى[1].

وربما تعمد بو عمامة توظيف اللغة الدارجة في خطابه وفي مراسلاته لكي تتفهمه مختلف شرائح المجتمع التي كانت غالبيتها أمية لا يمكنها استيعاب خلاف الدارجة .

تزوج الشيخ بوعمامة بربيعة ابنة عمه السي المنور، والتي أنجبت له سي الطيب في سنة 1870م. بحيث كان له رفيقا في بقية حياته وفي معاركه، وبعد إعلان مقاومته تزوج الشيخ بوعمامة عدة مرات وفي فترات متباعدة حسب الظروف والأحوال من قبائل مختلفة كالشعانبة في متليلي، ومن أولاد سيدي أمحمد عبد الله، والرحامنة نسبة إلى عبد الرحمان أحد أبناء سيد الشيخ، ومن قبائل مغرار، ولاشك أنه كان يهدف من وراء ذلك إلى تمتين الروابط مع العديد من القبائل بالمصاهرة لجمع الكلمة وتوحيد الصفوف اقتداء بسنة الرسول (صلى الله

(1)- تُنظر رسالته إلى حاكم عين الصفراء في الملاحق.

عليه وسلم)، وما أصعب بلوغ هذا الهدف في مجتمع مزقته النزعات والخلافات والأهواء والتنافس على الزعامة الكاذبة في الوقت الذي تكالب فيه قوى الاستعمار على احتلال البلاد والعباد.

ذهب بعض الباحثين أنّ بوعمامة عُرِفَ بالورع والحكمة وسداد الرأي ونفاذ البصيرة وحسن التدبير تأسيا بجديه القطبَين الصالحين سيدي الشيخ وسليمان بوسماحة. وكان يتميز بشرف نسبه وسمعته الطيبة، ونبل خلقه وسيرته الورعة ولطف تعامله مع الجميع وبالتقوى والصلاح والزهد والتقشف والتنسك، وقيل أنه منذ صباه حُبّب له التصوف والزهد والخلاء، وكان بوعمامة على خلاف بقية أفراد عائلته يتميز بالوعي السياسي والتفكير والاهتمام بمصير وطنه[1].

ورغم ثقافته المتواضعة، ودرجات التفقه غير العميق مقارنة بمشايخ الطرق العريقة كالأمير عبدالقادر وغيره من شيوخ الطرق الصوفية الأخرى؛ إلا أنه استطاع مجاراة أحداث زمانه نتيجة دهائه السياسي، وخبرته بالمنطقة، وكان صاحب خبرة ومجالسة ومعارف شفوية مهمة كالتي عُرف بها كبار القادة وعظماء الرجال، وكان يراسل شيوخ القبائل ويشاورهم في الأمر وكانوا يسدونه النصيحة فيما يقدم عليه من أعمال[2].

(1)- عبد الحميد زوزو، مرجع سابق ، ص. 38 .

(2)- تُنظر رسالته إلى أعيان الشعانبة في الملاحق.

الأوضاع الممهدة لمقاومة الشيخ بوعمامة:

إنّ المتتبع لتاريخ منطقة الجنوب الوهراني منذ مقاومة أولاد سيدي الشيخ يجد أن المنطقة كانت تعيش استقلالية في تسييرها لشؤونها الداخلية ومرد ذلك هو التمركز الضئيل جدا للمستوطنين في المنطقة، وحتى الجيش الفرنسي لم يكن يملك إلا مركزا واحدا في لبيض سيدي الشيخ فرع الشراقة، لكنه استطاع بعد معارك ضارية خاضتها ضده عائلة أولاد سيدي الشيخ من تشتيت هذه العائلة، فمن أفرادها من اضطر مكرها إلى الهجرة إلى المغرب الأقصى، ومنهم من نزح إلى ضواحي الجنوب الأقصى وتمركز في منطقة المنيعة.

والملفت للانتباه أنَ عزوف سكان المنطقة عن المقاومة التي كانوا قد أعلنوها عام 1864 لم يدم طويلا، حيث ظهر على مسرح الأحداث فرع أولاد سيدي الشيخ الغرابة من خلال الصمود الذي أثبته الشيخ سي معمر بن الشيخ الطيب رئيس فرع الغرابة في مقارعته للعدو الفرنسي في المنطقة بداية من شهر أفريل 1878، لكن هذا الأخير اضطر إلى الانسحاب والتسليم فوضع تحت الإقامة الجبرية، ولكن ما أن انتهت فترة 1878 -1880 حتى ظهرت شخصية مجاهدة أخرى من نفس الفرع وهي الشيخ بوعمامة الذي حمل لواء الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي ووقف في وجه التوسع في المناطق الصحراوية.

أسباب مقاومة الشيخ بوعمامة:

يكفي القول بأنّ رفض الشعب الجزائري للاحتلال الفرنسي يُعدَّ من أهم العوامل التي دفعت بالشيخ بوعمامة إلى الإعداد والتنظيم للعمل الثوري ضد

العدو بالجنوب الوهراني ومما لاشك فيه أنَّ هناك جملة من الأسباب ساهمت بشكل كبير في التعجيل بإشعال الثورة ومن أهمها ما يلي:

يعتبر مقتل الضابط الفرنسي واين برونر وهو برتبة ملازم أول وكان يشغل رئيس المكتب العربي لمنطقة البيض وذلك في 22 أفريل 1881 ،مع أربعة من حراسه من فرسان الصبايحية لمّا حاول جاهدا إيقاف نشاط الشيخ بوعمامة ـ يُعتبر ـ السبب المباشر في اندلاع المواجهة بين الشيخ بوعمامة والإدارة الاستعمارية الفرنسية.

لقد تأثر الشيخ بوعمامة بفكرة الجهاد ضد الصليبيين الغزاة المحتلين لكونه رجل دين وصاحب زاوية، هذا إلى جانب الأفكار الإصلاحية التي وصلت إلى المناطق المجاورة وأثرت تأثيرا مباشرا على الشيخ، وكان من أبرزها دعوة جمال الدين الأفغاني و السلطان عبد الحميد الثاني إلى بناء تحالف إسلامي في إطار الخلافة الإسلامية كأساس لتغيير أوضاع المسلمين وطرد المستعمرين وهي الأفكار التي وصلت إلى المغرب العربي كذلك عن طريق الوافدين من المشرق العربي، يضاف إلى هذا كله دور دعاة الطريقة السنوسية في إثارة سكان المناطق الصحراوية ضد تغلغل الاستعمار ومواجهته وقد كان لهذا الدور مفعوله على نفسية الشيخ بوعمامة، وهي عوامل كافية ليقوم الشيخ بوعمامة بحركته الجهادية ضد الاستعمار الفرنسي في منطقته.

إنّ تردي الأوضاع الاقتصادية في منطقة الجنوب الوهراني في تفجير الأوضاع واندلاع الثورة، خاصة بعد انتشار المجاعة التي أهلكت سكان المنطقة وأفقدتهم كل ممتلكاتهم ناهيك عن الغبن الذي تسببت فيه السياسة الجائرة

للإدارة الاستعمارية، ومنها منع بعض القبائل من التنقل ما بين 1879 و1881، خاصة قبائل آفلو والبيض و قبائل جبال القصور الرحالة وقد تولّد عن ذلك نوع من التذمر والاستياء الشديدين، فقد نجم عن منعهم من الترحال موت أعداد كبيرة من مواشيهم ووصلت نسبة الخسائر التي لحقت بمنطقة آفلو وحدها خلال هاتين السنتين ثلاثمائة رأس أي 80%.

كما عزمت السلطات الفرنسية على إقامة مركز عسكري للمراقبة في قصر تيوت بعد فشل البعثة الرسمية لدراسة مشروع مد الخط الحديدي عبر الصحراء في الجنوب الغربي لإقليم وهران عام 1879، وهو ما كان سيسبب الشلل التام لحركة هؤلاء الرحل[1].

مراحل المقاومة:

مرّت مقاومة الشيخ بوعمامة بعدة مراحل فرضتها التطورات التي واكبت حياته منذ تأسيسه للزاوية بمغرار، ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل كما يلي:

لم يعلن الشيخ بوعمامة الثورة على الاستعمار الفرنسي بمنطقة الجنوب الوهراني إلا بعد أن هيأ جميع القبائل الصحراوية عن طريق مريدي الطريقة الشيخية المنتشرين عبر كل المنطقة، ومنها قبائل الطرافي ورزاينة والأحرار و فرندة و تيارت، وقد وجدت هذه الدعوة صداها لدى قبائل عمور وحميان والشعانبة، كما استطاع الشيخ بوعمامة في وقت قصير أن يجمع حوالي ألفان وثلاثمائة جندي بين فرسان و مشاة .

(1)- محفوظ قداش، مرجع سابق، ص. 198 .

لقد وقعت أول مواجهة عسكرية بين الشيخ بوعمامة والقوات الفرنسية في 27 أفريل 11881 بالمكان المسمى سفيسيفة جنوب عين الصفراء، أسفرت عن انهزام الجيش الفرنسي واستشهاد بعض رجال الشيخ بوعمامة منهم قائد المعاليف وقائد الرزاينة. وأمام خطورة الوضع سارعت السلطات الاستعمارية إلى إرسال قوات إضافية إلى المنطقة لقمع الثورة والقضاء عليها وتمثل المدد الذي وصل إلى المنطقة فيما يلي:

- ثلاث فيالق من المشاة تحت قيادة العقيد إينوسانتي.
- فرقتين يقودهما القايد قدور ولد عدة.
- فرقة تيارت يقودها الحاج قدور الصحراوي.
- قافلة من ألفين وخمسمائة جمل ومعها ستمائة جزائري.
- قائد الشعبة العسكرية لمعسكر الجنرال كولينو دانسي وهو الذي تولى القيادة العامة لهذه القوة العسكرية.

أما المواجهة العسكرية الثانية بين الطرفين الجزائري والفرنسي كانت في 19 ماي 1881 بالمكان المسمى المويلك وتقع قرب قصور الشلالة بجبال القصور،

(1)- كان بوعمامة قد قرر سنة1881 الدخول في حرب مع القوات الفرنسية بعد جني الغلال وجمع المحاصيل، أي في فصل الصيف. لكن حدث أن قتل الملازم الفرنسي ويمبرينر الذي جاء يعتقل مبعوثي الشيخ بوعمامة إلى إحدى القبائل بتاريخ 22 أبريل من نفس السنة ففرضت الحرب على بوعمامة قبل الموعد الذي كان يخطط له/ ينظر: بوعلام بسايح، أعلام المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي بالسيف والقلم 1830-1954، منشورات وزارة المجاهدين ، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار ،الجزائر، 2010، ص. 145.

وكانت معارك عنيفة جدا اشتد فيها القتال بين الطرفين وكان النصر فيها حليف الشيخ بوعمامة رغم تفوق العدو في العتاد والعدة.

وحسب تقارير الفرنسيين أنفسهم فإنّ هذه المعركة خلّفت خسائر لكلا الطرفين، وقد قُدّرت خسائر الفرنسيين فيها بستين قتيل واثنين وعشرين جريح. وبعد هذه المعركة ظلّ الشيخ بوعمامة سيد الموقف حيث توجّه إلى الأبيض سيدي الشيخ مما ساعد الثوار في هذه الفترة على قطع خطوط التلغراف الرابط بين فرندة والبيض ومهاجمة مراكز الشركة الفرنسية الجزائرية للحلفاء، وقد قتل العديد من عمالها الإسبان وسبّب أزمة دبلوماسية بين الدولتين بعدما تدخلت إسبانيا لطلب الحماية لرعاياها وتعويض خسائرهم جراء هجمات أتباع بوعمامة على استثماراتهم بالمنطقة وأمام عجز فرنسا عن الرد المقنع اشتدت لهجة التخاطب بين البلدين[1] مما دفع بالسلطات الفرنسية إلى اتخاذ اجراءات لحماية مصالحها منها تجميع أربعة طوابير قوية في النقاط التالية:

- فرقة راس الماء أسندت مهمتها إلى العقيد جانين.
- فرقة الخيثر بقيادة العقيد زويني.
- فرقة تيارت وأسندت مهمتها إلى العقيد برونوسيار.
- فرقة البيض وكانت بقيادة العقيد تاديو ثم العقيد نيغريي[2].

(1)- بوعلام بسّايح، مرجع سابق، ص. 148.

(2)- أحمد بحري، الشيخ بوعمامة رمز التصوف والجهاد، مجلة الإرشاد، الجزائر، 2011، ص.20.

ولمواجهة انتصارات الشيخ بوعمامة المتتالية قامت السلطات الفرنسية بتحركات سريعة تمثلت في إرسال قواتها نحو الجنوب الغربي من أجل تطويق الثورة والقضاء عليها وبالتالي تتوسع في المنطقة وتبسط نفوذها على كل قصور الجنوب الوهراني. لقد تمّ تكليف العقيد نيغريي بمهمة معاقبة القبائل التي شاركت مع الشيخ بوعمامة في الثورة وكانت البداية بنسف زاوية سيدي الشيخ الكبير المتواجدة بالأبيض سيدي الشيخ، تلتها المجازر الرهيبة التي قام بها جيش الاحتلال في حق السكان العزل من أهالي الطرافي والربوات بمنطقة البيض انتقاما لمشاركتهم في الثورة، ونفس الجرائم ارتكبت ضد سكان الشلالة الظهرانية .

وفي الأبيض سيدي الشيخ ارتكبت أعمال شنيعة على يد السفاح نيغريي في 15 أوت 1881 الذي قام بتفجير قبة سيدي الشيخ ونبش قبره وهو استهزاء بالجوانب الروحية للشعب الجزائري وعاداته وتقاليده.

وما بين سبتمبر وأكتوبر عام 1881 تعرّضت القوات الفرنسية بقيادة كل من الجنرال كولونيو والجنرال لويس إلى هجومات المجاهدين قرب عين الصفراء نتج عنها سقوط العديد من القتلى والجرحى بين الطرفين ، كذلك قام السفاح لويس بتحطيم القصرين اللذين كان يمتلكهما الشيخ بوعمامة وهما قصر مغرار الفوقاني وقصر مغرار التحتاني، كما دمرت زاوية الشيخ بوعمامة أيضا وقتل العديد من السكان العزل.

ومن التطورات الهامة التي حصلت خلال هذه الفترة كذلك هو التحاق الشيخ سي سليمان بن حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ الغرابة إلى ثورة بوعمامة

على رأس ثلاثمائة فارس، واتجه مع قوته إلى جنوب غرب عين الصفراء ومنها إلى منطقة البكاكرة للضغط على القبائل الموالية للاستعمار الفرنسي.

وأمام تزايد القوات الاستعمارية وتوافد الدعم لها من كل منطقة ازداد الضغط على الشيخ بوعمامة فاضطر إلى الانسحاب متجها إلى منطقة فقيق بالمغرب الأقصى، حيث قلّ نشاطه وتفرق أتباعه وأنصاره، وقد انضم البعض منهم إلى السي قدور بن حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ الشراقة، أما البعض الآخر فقد انضم إلى صفوف الشيخ سي سليمان بن حمزة قائد أولاد سيدي الشيخ الغرابة أما باقي المجاهدين فقد مكثوا بمنطقة فقيق وضواحيها. وفي 16 أفريل 1882 لاحقت قوات الاحتلال الشيخ بوعمامة في الأراضي المغربية، لكنه ردَ عليها بهجوم عنيف في شط تيغري تكبّد العدو فيه خسائر فادحة في الأرواح وأجبره على الانسحاب .

لقد كان لهذه الهزيمة وقع كبير في الأوساط العسكرية الفرنسية وزادت من جهة أخرى الثورة صمودا وتحديا وأثبتت تفوقها مرة أخرى على القوات الفرنسية.

وكان من نتائج المرحلة الأولى من الثورة ما يلي:

1- استمرار الحكم العسكري في الصحراء وتدعيمه وتجدد الصراع بين الجناحين العسكري و المدني في الجزائر، بحيث راح كل جانب يتهم الجانب الآخر بسوء التصرف والإهمال، ويحمّله مسؤولية الحوادث وكذلك ذهاب بعض الموظفين الوسطاء الأهالي ضحية لهذا الصراع كما كان الحال بالنسبة للحاج قدور بن صحراوي، آغا قبائل الأحرار.

2- شعور الولاة العامون بضرورة مراجعة اتفاق 08 مارس 1845 بشأن الحدود الجزائرية الغربية، وتحديد معالمها بشكل واضح وكامل وخاصة بالنسبة للناحية الواقعة جنوب قصور فقيق التي يراها الفرنسيون بأنها غير واضحة المعالم في نص الاتفاق الذي اعتبرها منطقة صحراوية غير آهلة.

3- القضاء على خرافة كون عهد الثورات في الجزائر قد انتهى بفشل ثورة المقراني سنة 1871 وانتفاضة الأوراس سنة 1879.[1]

4- تحريك دعائم نظام الحكم المدني في الشمال و إشعار غلاة المعمرين المسيطرين على جميع دواليبه باستمرار روح المقاومة

5- تحرك الجزائر الإسلامية ضمن الدائرة الإسلامية الواسعة، والتعبير عن رفضها لجميع أساليب التغلغل الاستعماري وشجب أعماله الرامية الى احتلال كل من تونس ومصر والسودان.

6- إلحاق منطقة بني ميزاب إلحاقا نهائيا، وإلغاء نظام الحماية بسبب التحاق بعض القبائل التابعة لهذه المنطقة بالثورة كالشعانبة مثلا. [2]

7- نشاط الدبلوماسية الفرنسية بالتنسيق مع العسكريين في الجزائر، بتدخلاتها لدى القصر العلوي بغية الحصول على ضمانات بعدم تقديم الدعم والتأكيد للثوار ضد فرنسا، بل وممارسة الضغط عليهم بموجب المادة الرابعة من اتفاق 18 مارس 1845. لكن وبحكم استمرار ثورة بوعمامة طويلا فقد شكّلت حوادثها جانبين

(1)- عبد الحميد زوزو، محطات في تاريخ الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2010، ص.161.

(2)- المرجع نفسه، ص. 162.

مهمّين: كانت ورقة ضغط في يد الدبلوماسية الفرنسية اتجاه السلاطين العلويين، وورقة عمل وتحرك اتجاه الأطراف المتهمة بالقضية المغربية.

8- انتشار أخبار الثورة التي تناقلها مختلف الصحف الإسلامية منها والدولية، والتي لم تخل منها تقارير القناصل والدبلوماسيين المعتمدين بشمال أفريقيا، والتي كانت تعطي صورة على الأقل عما كان يجري في الجزائر، وتترجم موقف السكان من الاحتلال الفرنسي، أما عن الخسائر المادية التي أسفرت عنها الثورة فتتمثل بوضوح في الأضرار التي لحقت بالشركة الفرنسية الجزائرية للنقل بالسكك الحديدية، والتي كانت أداة دعم للاستعمار ووسيلة مساعدة على قمع ثلاثمائة هكتار بالهضاب العليا في مقابل مدِّها خطا جديدا طوله 241 كلم، يمتدَّ من أرزيو الى الهضاب العليا مرورا بسعيدة، وفقا للاتفاق المبرم بين الشركة والحكومة بتاريخ 20 ديسمبر 1873.[1]

أما المرحلة الثانية فقد عرفت مقاومة الشيخ بوعمامة خلال هذه المرحلة فتورا ملحوظا بعد استقراره في مسقط رأسه الحمام الفوقاني بفقيق التي وصلها في جويلية 1883، حتى يتمكن من تنظيم صفوفه للمستقبل، وهذا ما جعل السلطات الاستعمارية تتخوف من تحركاته الكثيفة لذا سارعت في إرسال برقية موقعة من طرف الجنرال سوسيي قائد الفيلق التاسع عشر إلى حكومته في باريس يدعوها إلى الضغط على السلطان المغربي لطرد الشيخ بوعمامة من الأراضي المغربية لأنه يشكل خطرا على المصالح الفرنسية في المنطقة .هذا التحرك دفع الشيخ بوعمامة إلى مغادرة المنطقة، ولجوئه إلى إقليم توات واحتمى بسكان واحة

(1)- عبد الحميد زوزو، المرجع السابق، ص. 162.

دلدول مع نهاية عام1883، واستقر هناك إلى غاية عام 1894 حيث أسس زاوية له وشرع في تنظيم الدروس الدينية لمواصلة الجهاد ووقف زحف التوسع الاستعماري في الجنوب الغربي، حيث قام بمراسلة مختلف شيوخ القبائل الصحراوية لإعلان الجهاد ضد الكفار ومقاومتهم .

كما كان لهذا النشاط صداً واسعا بين القبائل الصحراوية، خاصة قبائل التوارق الذين اقترحوا عليه الانتقال إليهم ليتعاونوا في الجهاد ضد العدو الفرنسي، كما آزرته وانضمت إليه بعض القبائل المقيمة على الحدود الجزائرية- المغربية .

لقد حاول الاستعمار الفرنسي خنق الثورة من كل الجهات وبكل الوسائل والتوسع في الجنوب وذلك عن طريق إقامة المؤسسات الاقتصادية وإنشاء المراكز التجارية في كل من إقليم توات وتيديكلت.

وأما المرحلة الثالثة فتعتبر بداية النهاية لمقاومة الشيخ بوعمامة، ففي خضم هذه الأحداث استطاع الشيخ أن يكسب العديد من الأنصار ويحظى بثقة سكان المناطق الصحراوية، وهذا ما جعل السلطات الاستعمارية تفكر في استمالته بكل الوسائل فقامت بالاتصال به عن طريق المفوضية الفرنسية بمدينة طنجة المغربية عام 1892 للتفاوض حول قضية منحه الأمان مقابل العدول عن المقاومة والاستسلام لكن المفاوضات انتهت بدون نتيجة.

إنّ الصلات الودية والطيبة التي كانت بين الشيخ بوعمامة والسلطات المغربية أثارت قلق وتخوف السلطات الاستعمارية الفرنسية، خاصة بعد الاعتراف به زعيما لقبائل أولاد سيدي الشيخ ومشرفا على كل المناطق الصحراوية مما دفعها مرة أخرى إلى محاولة كسب ودِّه لتسهيل مهمتها في التوسع وبسط نفوذها على

المناطق الصحراوية، لذلك قرر الوالي العام لافريار في 16 أكتوبر 1899 منح الشيخ بوعمامة الأمان التام دون قيد أو شرط. ومع مطلع القرن العشرين دخل الشيخ بوعمامة المغرب الأقصى واستقر في منطقة وجدة، الأمر الذي جعل السلطات الفرنسية في الجزائر تتنفس الصعداء بتخلصها من أحد أشد أعدائها مقاومة .

إن السنوات التي خاضها الشيخ بوعمامة في الجهاد عرقلت بشكل كبير التوسع الاستعماري في أقصى الصحراء خاصة الناحية الغربية منها ،رغم الحصار الكبير الذي حاولت السلطات الاستعمارية فرضه على المقاومة بقيادة الجنرال ليوتي.

نتائج مقاومة الشيخ بوعمامة:

1- كانت ثورة الشيخ بوعمامة تحديا كبيرا لسياسة الجمهورية الثالثة والتي كانت ترمي إلى إتمام عمليات الاحتلال الشامل للجزائر، واستطاعت أن تعطّل وتعرقل المشاريع الفرنسية في الجنوب الغربي.

2- تمثل ثورة الشيخ بوعمامة المرحلة النهائية من استراتيجية الزعامات الوطنية في مواجهة الاستعمار الفرنسي عن طريق المقاومات الشعبية، التي تعتمد أساسا على العامل الديني في تعبئة الجزائريين لمقاومة الاحتلال.

3- تعتبر ثورة الشيخ بوعمامة من أعنف المقاومات الشعبية خلال القرن التاسع عشر بعد مقاومة الأمير عبد القادر .

4- كشفت ثورة بوعمامة ضعف الفرنسيين في مواجهة المقاومة مما جعلها تبحث عن الحلول السياسية لإخماد نار الثورة خصوصا مع المرحلة الثانية 1883 -

1892 حين ظهرت قضية الأمان الذي كانت تبحث عنه السلطات الفرنسية من بوعمامة الذي رفضه من خلال المراسلات والمفاوضات التي كانت تسعى إليها فرنسا .

5- الخسائر البشرية والمادية هي الأخرى كانت من أبرز النتائج التي تمخضت عن الثورة.

6- عجلت الثورة بإتمام مشاريع السكك الحديدية في المنطقة وربط الشمال بالجنوب.

7- إنَّ مقاومة الشيخ بوعمامة حتى وإن لم تحقق أهدافها في طرد الاستعمار من المنطقة بسبب العقبات التي اعترضتها منها على وجه التحديد عدم التمكن من توحيد فرعي أولاد سيدي الشيخ وكذلك ضغوط السلطان المغربي عبد العزيز على الثورة وحصرها في الحدود، إلا أنها أثبتت قدرتها على المقاومة وطول النفس وعرقلة التوسع في المنطقة .

الطريقة الطيبية

الطريقة الطيبية

كانت الطريقة الطيبية ممثّلةً في الغرب الجزائري من طرف مقدمها الحاج التهامي بن عمر الذي سجن من طرف بايات الغرب العثمانيين حيث تعرض كثيرا لمضايقاتهم لعدم ارتياحهم لأعماله ونشاطاته، وهذا برغم من أن هذه الطريقة تسترضيهم كما هو الشأن بالنسبة للطرق الصوفية عموما، على أننا نجد أحد بايات الغرب الجزائري وهو الباي حسين قام بشراء دار بستين مثقالا من الذهب وجعلها وقفا على الزاوية الطيبية بتلمسان وذلك سنة 1173هـ.[1]

وترجع هذه الطريقة في أصلها الى مؤسسها الفعلي و الروحي الشيخ مولاي الطيب بن سيدي محمد بن سيدي مولاي عبد الله الشريف الوزاني الذي كان مولده عام 1101هـ – وتوفي سنة 1181هـ بمدينة وزان بشمال المغرب وينتهي نسبه الى الشيخ مولاي محمد 1040هـ ـ 1120هـ و هو العلامة الصوفي مؤسس الزاوية الوزانية قبل أربعة قرون بوزان مولانا عبد الله الشريف العلمي الذي ولد عام 1005هـ بتزروت مقر قبيلة بن عروس بشمال المغرب بجبل العلم وتوفي ليلة الخميس أو الجمعة 12 شعبان عام 1089هـ بزاويته وهو ابن مولاي ابراهيم التازي العلمي (ت 1017هـ) وهو ابن سيدي موسى (الثاني) ابن سيدي الحسن بن سيدي موسى (الأول) بن سيدي ابراهيم (الأول) ابن سيدي يملح المدعو المليح وهو أخ لمولاي عبد السلام بن مشيش ابن سيدي مشيش العلمي بن سيدي ابا بكر بن سيدي علي (المثنى) بن سيدي حرمة بن سيدي سليمان (المدعو سلام) ابن

(1)– صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت، 2002، ص. 228.

سيدي مزوار بن سيدي علي (الاول) المدعو حيدرة ابن سيدي محمد بن الأمير مولاي إدريس الأزهر بن الأمير مولاي إدريس الأكبر ابن سيدي عبد الله الكامل بن مولاي الحسن المثنى ابن مولاي الحسن السبط ابن الإمام علي كرم الله وجهه ومولاتنا فاطمة الزهراء بنت سيدنا ومولانا محمد الرسول صلى الله عليه وسلم[1].

أما عن أوراد الطريقة الطيبية فقد اعتمدت مثلها مثل الطرق الصوفية المنتشرة بالجزائر أورادا وأذكارا تكاد تشبه أوراد وأذكار باقي الطرق الأخرى فاعتمدت مثلا اوراد الطريقة الشاذلية وبعض فروعها مثل الحزب الكبير وحزب البحر ووظيفة الشيخ زروق ودلائل الخيرات وحزب الفلاح كما اعتمدت ايضا الصلاة المشيشية وحزب الامام النووي كما وضع مؤسسها عبد الله الوزاني حزبا ووردا منسوبين اليه .

يتكون هذا الورد في غالبيته من جمل وعبارات دينية يرددها الاخوان أثناء الصلوات غالبا من ذلك تسبيح الله وحمده (سبحان الله وبحمده) مائة مرة صباحا ومساء والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم وأزواجه وذريته خمسين مرة صباحا، وعبارة اللهم صل على سيدنا محمد النبي الامي وعلى اله وصحبه وسلم) مائة مرة صباحا ومساء والشهادة (لا اله الا الله) مائة مرة صباحا ومساء[2].

كما حافظت زوايا الطريقة الطيبية بالجزائر على تبعيتها للزاوية الأم بوزان فكانت لها بذلك أراضي زراعية شاسعة بجوار منطقة بوغرارة وتلمسان وقد

(1)- بومدين بوزيد وآخرون، مرجع سابق، ص. 24.

(2)- المرجع نفسه، ص.51.

استطاع الشيخ سيدي الحسني الذي ينحدر من سلالة الشيخ الشريف الوزاني مولاي عبد الله الشريف الذي ورث عنه العلم والصلاح على منهاج المتصوفة فراح ينشر العلم والمبادئ الطريقة الطيبية بين أوساط أهل الجزائر غربها وشرقها وشمالها وجنوبها متمسكا في ذلك كله بتدريس كتاب الله وسنة نبيه صلى الله علية وسلم الى جانب تدريس علوم الفقه والشريعة.[1]

وقد تأسّست الطريقة في بداية أمرها بوزان والتي كانت تُعرف بدار الضمان بالمغرب الاقصى واشتهرت عند عامة الناس وعند المحبين لأهلها خصوصا أهل البيت بعد مولد الشيخ الحسني، الذي ولد في حدود عام 1227 هـ الموافق لعام م1812 بمدينة وزان بالمغرب وهناك تزوج بالشريفة رقية بنت الشريف الحاج عبد الله بن محمد التوهامي بن علي بن احمد بن القطب الرباني مولاي الطيب وانجبت له رحمة ومحمد وأحمد والتوهامي وزينب والعربي. وفي عام 1287 هـ الموافق لعام 1872[2] انتقل الشيخ سيدي احمد الحسني من وزان إلى الجزائر واستقر بوهران مع زوجته رقية التي توفيت قبله بسنتين في حدود عام 1319هـ الموافق لعام 1901 فتزوج بعدها بآمة الله زوليخة بنت عبد الله بن داود فأنجبت له رغم كبره محمد التومي وقد مات صغيرا هو وأخته التومية فاطمة وشقيقتها خدوجة ولم يعش من الأولاد والبنات المذكورين سوى أحمد وشقيقته زينب.

---

(1)- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1854) دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، مج4، ص. 96.

(2)- بوزيد بومدين وآخرون، مرجع سابق، ص. 72.

لقد كان الشيخ الحسني كباقي العلماء المتعطشين لنهل العلم من أفواه العلماء فقد صال وجال بين بلدان وأقطار العالم الإسلامي فدرس في كل من القرويين وجامع الزيتونة وهذا ما أهلّه فيما بعد إلى تأسيس زاويته الشهيرة والتي هي امتداد للطريقة الطيبية فالتفّ حوله المريدون والأتباع لينهلوا من علمه وبركته.[1]

توفي الشيخ في عام 1321 هـ الموافق لعام 1903 م بوهران عن عمر يناهز 94 سنة ودفن بزاويته الكائنة قرب المدينة الجديدة، وبعد وفاة الشيخ الحسني ولمواصلة حمل مشعل العطاء الروحي والسلوك التربوي خلفه ابنه الشيخ سيدي احمد بلحسن المولود عام 1868 والمتوفي يوم 28 ديسمبر من عام 1936 م عن عمر ناهز ثمانية وستين عاما وخلّف ولدين هما سيدي محمد ومولاي عبدالله المتوفي يوم السبت 4 ديسمبر من عام 1999 م والذي خلّف بدوره ابنه البكر مولاي احمد بدر الدين والابن الاصغر مولاي الطيب الذي تقلد مسؤولية الزاوية وهو شاب لا يتجاوز عمره الخامسة والثلاثين على رأس الطريقة الطيبية .

ولقد كانت للشيخ أحمد بلحسن عدة لقاءات مع الشيخ عبد الحميد بن باديس خلال زيارته الى مدينة وهران عام 1930 قبل عام من تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ثم بمدينة عمي موسى قرب وادي ارهيو في بداية 1930حيث بنى بها زاوية تابعة للطريقة الطيبية والتي التحق بها العديد من المريدين والاتباع .[2]

---

(1)- بوزيد بومدين وآخرون، مرجع سابق، ص. 73.

(2)- المرجع نفسه، ص.73.

ثورة بومعزة:

من أشهر أعلام الطريقة الطيبية الذين قادوا لواء مقاومة المستعمر الشريف محمد بومعزة الذي قاد ثورة سماها الفرنسيون بثورة "الطرق الصوفية" عمت منطقة جبال الظهرة والونشريس وحوض الشلف وكانت من الضراوة بحيث جنّدت لها فرنسا عددا من جنرالاتها واقترفت في سبيل إجهاضها جملة من المجازر والمحارق في حق الأبرياء العزل.

أصل هذا الرجل من أولاد خويدم الموجودين بناحية وادي شلف بنواحي مدينة الأصنام واسمه محمد بن عبد الله وكان يعرف بأبي يوسف وأبي غزالة وينسبه علال الفاسي إلى المغرب الأقصى استنادا إلى رأي الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسن، فيقول أنه من مراكش من أولاد سيدي الطيب بنواحي وزان وأنه دخل الجزائر حوالي سنة 1250هـ/1835 م وكان لا يظهر أمام الناس إلا مستصحبا عنزة يجرها معه فتكنى بها [1]

نزل بومعزة بقبيلة سنجاس سنة 1261هـ/1845م فوجد أهلها مناهضين لرئيسهم وشيخ عشيرتهم فاستغل الفرصة لفرض زعامته عليهم بإشعال الفتنة بين هذا الشيخ وأتباعه إلى أن قاموا بعزله متهمين له بالخيانة ثم قتلوه وسيدوا عليهم بومعزة الذي أظهر لهم بعض الخوارق وسار بينهم سيرة الصالحين فعظموه وأطاعوه فاشتهر بين العشائر وذاع صيته وكثر أتباعه، فغزا بهم فرقة من الجيش

(1)- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ج. 4، ص. 206.

الفرنسي كانت تقيم بواد الفضة قرب واد الشلف فهزمها لكن الدائرة كانت عليه في موقعة لاحقة فاختفى عن الأنظار زمنا[1].

ومن شدة المظالم التي ارتكبها المستعمر؛ شهدت منطقة الظهرة بما فيها مازونة وحوض الشلف انتفاضة قبيلة صبيح فتقدم إليهم بومعزة وعرض عليهم قيادة حركتهم فأجابوه، وعُرفت هذه الانتفاضة بانتفاضة الظهرة، واستطاع هذا الزعيم خلالها أن يكبّد القوات الفرنسية خسائر فادحة [2].

بدأ بومعزة انتفاضته بالهجوم على القبائل المعادية له، أو التي لم تُعرّ اهتماما لحركته، وركّز على القيّاد الذين عينتهم السلطات الفرنسية على المناطق التابعة لنفوذها، مما دفع هذه السلطات إلى مواجهته في معركة قرب عين مران يوم 14 أفريل 1945م.

وقد كان لسكان مازونة دور في هذه المعركة لقرب موقعها من مدينتهم، بأن أرسلوا أفواجا من المتطوعة لنصرة بومعزة، وكان لدورهم الأثر البارز في نقل الانتفاضة إلى تنس ومنها إلى مدينة الأصنام(شلف) ذاتها [3] .

وما لبثت هذه الثورة أن عمّت منطقة شلف، ومنها إلى الونشريس، فلم تبق قبيلة في المنطقة إلا والتحقت ببومعزة، مما دفعه إلى الهجوم على مدينة

---

(1)- المرجع نفسه، ص.207.

(2)- طاهر جنان، مازونة عاصمة الظهرة ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2005م ، ص. 27.

(3)- محفوظ قداش، مرجع سابق، ص. 109.

الأصنام (Orléans ville) إلا أنه عجز عن افتكاكها من الفرنسيين بسبب قوة مدافعها [1] .

وأمام الفشل في مواجهة كبيرة مع العدو الفرنسي، غيّر بومعزة من طريقة حربه، واكتفى بسياسة الكر والفر، ومهاجمة حلفاء الفرنسيين بشكل أساسي، فنجحت هذه الخطة الجديدة، وعجزت القوات الفرنسية رغم العدد الكبير من المفارز المسخرة لمطاردته، أن تضع حدا لتهديداته، بل ازداد التفاف القبائل والطرق الصوفية من حوله، وازداد خصومه، خوفا ورهبة منه، خاصة بعدما استطاع الظفر باثنين من القياد الذين عيّنتهم فرنسا وقتلهما[2] .

خصّص بيرار في كتابه (مدينتي تنس وبومعزة) قسما كبيرا لوصف سجالات بومعزة مع الجيش الفرنسي، ومنها قصة قضائه على الآغا حاج أحمد أغا ونشريس، الذي قدم إلى مازونة ليصطحب خطيبة ابنه محمد لزوجها، فاعترضه بومعزة الذي لم يلق كبير مقاومة من قبل الآغا .

وسبب تهاون الآغا في أخذ الحيطة هو الخضوع التام لدى قبائل صبيح وما جاورها، ثم الإشاعة التي انتشرت عن مقتل بومعزة مما جعله يكتفي برفقة

---

(1)- المرجع نفسه، ص. 109 .

(2)- Y. Loukil , Mazouna ancienne capitale du Dahra Alger : imprimerie algérienne 1912 , Mazouna ancienne capitale du Dahra Alger: imprimerie algérienne 1912 , p.p .21 - 22.

150 فارسا فقط، أغلبهم من القياد وعلية القوم، ترافقهم نساء الآغا بحليهن ولباس الزينة تكريما للقادمة الجديدة [1].

لم يكن بومعزة ليفوّت مثل هذه الفرصة، التي سيحقّق من خلالها جملة من الفوائد، أهمها القضاء على واحد من ألّد أعدائه، وإلحاق الإهانة به، وبمن يخدم من السلطات الاستعمارية، والفوز بقدر من الغنائم التي يحويها ركب العروس من حلي ولباس وجياد وغيره ... وأخيرا الزيادة في تضخيم الصورة الأسطورية التي حظي بها حتى ذلك الحين في نفوس القبائل الداعمة له التي بدأ الوهن يدب إليها بعد طول فترة المقاومة، وعجزه عن تحقيق أملها في طرد المحتل.

وفي طريقه إلى مواطن قبائل صبيح؛ التقي الشريف ببعض أنصاره الذين أخبروه بأن الآغا محمد بن الفرندي قائد قبائل صبيح موجود قرب عين مران، في عدد قليل من رجال مخزنه معه حوالي عشرة من الصبايحية، لجمع الضرائب المفروضة على رؤوس الأغنام، فأسرع إليهم واستطاع القضاء عليهم في ظلام الليل. [2]

ألبس بومعزة رجاله ثياب الصبايحية الحمراء، ليضلل الآغا الذي لقيه عائدا من مازونة في صباح اليوم الموالي، فلم يحتط لمن لقيه، ظانّا أن الصبايحية أصحاب المعاطف الحمراء هم رجال صديقه الآغا ابن الفرندي خرجوا يلقوا ركبه تكريما له، فكانت المفاجأة ووقع الجميع في يد رجال بومعزة الذي غنم زيادة على

(1)- M. Jh. P.L. Bérard, Les deux villes de Tenes et Bou Maza, Challamel Aine Librairie, Paris , 1864 , p. 76 .

(2)- M .Jh. P.L. Berard, op. cit , p. 78 .

الجياد والبغال وحمولتها مجموعة من النساء اللواتي أسرع سكان مازونة لشراء حريتهن منه[1].

وتبعا لهذا العجز في القضاء على بومعزة، وتأديبا للقبائل التي ساندت ثورته؛ حدثت محرقة غار الفراشيش في شهر جوان 1845م بأمر السفاح بيليسيه [2].

وغير بعيد عنها في الجغرافيا ولا في التاريخ، وبالضبط في: 12 من شهر أوت؛ تم ارتكاب جريمة أخرى من جرائم الحرب بقيادة الكولونيل سانت أرنو في مغارات الصبيحة على بعد 5 كيلومتر من عين مران [3].

وتفصيل محرقة غار الفراشيش كالآتي : في شهر يناير 1845م؛ وقعت معركة كبيرة بناحية الظهرة، شاركت فيها عدة طرق صوفية، منها القادرية، والرحمانية، والدرقاوية، والطيبية، وعرفت عند الفرنسيين بانتفاضة الطرق الصوفية.

وقد شاركت قبيلة أولاد رياح التي كانت تقطن جنوب تنس في هذه الثورة فغزاها بيليسيه وأحرق كل ما فيها؛ مما استدعى فرار القبيلة وهي تحارب إلى ناحية غـار الفراشيش[4]، للاحتماء فيه من الخطر الفرنسي، فاجتمع داخل الغار

---

(1)– Ibid , p. 78 .

(2) أصبح جنرالا ثم مارشالا ثم حاكما للجزائر فيما بعد خلال الستينات.

(3) محفوظ قداش، مرجع سابق ، ص.111.

(4) يقع هذا الغار في منطقة تسمّى بالنقمارية قرب عشعاشة ولاية مستغانم حاليا.

أكثر من ألف شخص رجالا ونساء وأطفالا، مصطحبين معهم ما يستطيعون حمله من مال، وما يسوقونه من حيوانات [1].

حاصر الفرنسيون الغار من جميع الجهات، وطلبوا من القبيلة الاستسلام، وأمام رفضها وإصرارها على عدم الاستسلام؛ قرّر الفرنسيون القضاء على كل من في الغار، واختاروا لذلك أسلوب الخنق بالدخان .

استغل العقيد الفرنسي ظلام الليل؛ وجلب تعزيزات عسكرية ضيّق بها الحصار على الغار، وضاعف من إيقاد النار التي جمع لها أكوام الحطب من الغابة المجاورة، ثم أحاط مداخل الغار بها، وأضرم النار فيها، واستمر على هذه الحال إلى الليلة الثانية [2].

وكانت هذه المجزرة رهيبة إلى درجة أنها هزّت الجزائريين، وأثارت ضجة في البرلمان الفرنسي آنذاك، ويذكر عبدالقادر بن عيسى المستغانمي في كتابه "مستغانم وأحوازها" أن الفنان جاهونو رسم لوحة زيتية سنة 1845 م ، تعبر عن هذه الواقعة المهولة، وسماها بمغارات الظهرة [3].

وقد أثار بومعزة الرعب في جيش الاحتلال، وفي القبائل التي تحالفت معه مثل قبائل صبيح، وقوات الآغا الموسوس حاكم الونشريس، والقايد حاج صدوق

---

(1)- وكان هذا يوم 17 يونيو.

(2)- إسماعيل العربي، المقاومة العربية تحت لواء الأمير عبد القادر، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص. 285 .

(3)- عبد القادر بن عيسى المستغانمي، مستغانم وأحوازها عبر العصور تاريخيا وثقافيا وفنيا، ط.1، المطبعة العلاوية، مستغانم، 1996، ص. 31 .

حاكم منطقة مديونة، الذي قتله بومعزة هو وقائد قبائل صبيح القايد بلقاسم، كما استطاع أن يصد هجومات المقدم ميلينيت على تحصينات مستغانم .

لكن اجتماع قوات هذا القائد (ميلينيت) مع قوات " سانت أرنو " قائد الأصنام (orleansville) ، والكولونيل " جيري "، والرائد " برت " قائد تنس، اضطرت بومعزة إلى التراجع ومحاولة الابتعاد عن المواجهة قدر المستطاع [1].

وبعدها التحق بدائرة الأمير في المغرب الأقصى، حيث أقام فترة من الزمن ثم عاد إلى منطقة الظهرة التي شهدت انتصاراته الأولى، وهناك حاول النهوض من جديد، لكنه فشل بسبب القمع الوحشي من طرف جيش الاحتلال والذي أشعل منطقة الظهرة لهبا كاد يفني الحياة فيها[2].

وأمام هذه الوحشية، والفارق الكبير في الإمكانيات، وحجم الخسائر التي لاقاها سكان مازونة والظهرة عموما سلم بومعزة نفسه للجنرال "سانت أرنو" وذلك بتاريخ: 13 ماي 1847م، فدفعه إلى المارشال " بوجو" الذي حمله إلى فرنسا وسجن عدة سنوات، بعدما شملت ثورته عدة مناطق، وتنقل في نواحي عديدة في المنطقة كالظهرة والشلف وافليتة والونشريس، مستعملا أساليب كثيرة فكان يظهر ويختفي بسرعة، وكان العدو يطارده في جهة؛ فإذا به يظهر فجأة في جهة أخرى.

---

(1)- نفس المرجع، ص. 31 وما بعدها.

(2)- M. Belhamissi, Mazouna une petite ville une longue histoire, Sned: Alger, 1981, p. 60.

الطريقة القادرية

الطريقة القادرية

"إنَّ صيحة جهاد واحدة تكفي لجمع السكان حول المرابطين والتوجه بهم لمواجهة العدو"، هي عبارة أحد الملاحظين الفرنسيين حول قدرة الطرق الصوفية على التعبئة الشعبية، والدور الذي يمكن أن تؤدّيه في هذا الصدد، كانت القادرية أحد هذه الطرق التي لبّ مريدوها هذه الصيحة، إذ لم يختلف نشاط أتباعها عن غيرهم في مقاومة الاستعمار الفرنسي، ونشاطهم يندرّج تحت غطاء الدور السياسي والديني لعموم الطرق الصوفية بالجزائر، والتي مثَّلت عاملا نافذا في البناء الاجتماعي لجزائر القرن التاسع عشر، كمرجعية دينية مؤثرة في طبقات المجتمع.

يجرّ الحديث عن الطريقة القادرية إلى الحديث عن مصطفى الغريسي ثم عن محي الدين[1] والد الأمير، فأثرهما بارز في تمكين هذه الطريقة، أما ابنه الأمير عبد القادر فالحديث عنه سيكون من جهة الجبهة المميزة التي أنشاها في القتال، بدأت بوضع صورة واضحة المعالم حول الاستعمار الفرنسي وجهاده، وصولا إلى تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة.

---

(1)- محي الدين بن مصطفى الجزائري الحسني (1190 هـ – 1249 هـ) (1776م-1883م) نشأ في حجر والده وتثقف على يديه ورحل إلى مستغانم فاخذ عن علمائها وحضر الكتب المطولة على فضلائها عكف في آخر حياته على بث علوم الشريعة والحقيقة وألف في التصوف كتابا سماه: " إرشاد المريدين ". فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة 1985، ص. 27.

تعريف الطريقة القادرية

تنسب الطريقة القادرية في أصلها إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (471هـ/561هـ) استقر أتباعها في بلاد الشام والعراق ومصر، ساهمت الطريقة القادرية وأتباعها بصورة كبيرة في انتشار الإسلام في إفريقيا، وكان ظهورها في الجزائر قبل مجي العثمانيين الذين حرصوا على دفع حركة هذه الطريقة إلى الأمام بعد دخولهم إلى الجزائر في بادئ الأمر[1]، والحديث عن القادرية من جهة التعاليم هو حديث عن الشاذلية، إذ أشارت المصنفات إلى ارتباط تعاليم الطريقتن حتى أطلق عليها بالطريقة القادرية الشاذلية.

يظهر من تتبع تاريخ الطريقة القادرية انتماءها إلى القسم الخلواتي أحد أقسم الطرق الصوفية، وهو الجانب المميز في هذا النمط، ومدلولها ما يتخذه شيوخ الطريقة من أوراد يتم ترديدها عقب الأذكار، وادعاءهم الانفراد بنمط معين من المعرفة الدينية بأسرار غيبية خاصة تحت مسمى الحقيقة.

تحاول الكتابات الفرنسة أن تجعل أذكار القادريين نوعيةً، فتحصر مدلولها في العلم والأخلاق والصبر والإتقان وغيرها من المقامات، ولخّصوا تعاليمها في أفكار أخلاقية وفلسفية كأنها قاعدة لمختلف الطرق التي جاءت بعدها"[2].

ألمح الدكتور أبو القاسم سعد الله في تاريخه إلى أن الحجاج كانوا يعتقدون جزما أن زيارة ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني يكاد يعلو إلى مرتبة الركن، من خلال توجّههم إلى بغداد وتقديم الهدايا لحراس الضريح كخطوة مكملة

(1) تغير موقف العثمانيين تجاه الطريقة القادرية في نهاية حكمهم بالجزائر.

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ج4، ص. 44.

للحج"[1]، وظاهره اتصال روحي واجب، فرغم وجود فروع للطريقة بالجزائر، إلا أنّ الإجازة والسلسلة ترد من بغداد التي كانت تستفيد من مقدمي هذه الفروع من الأوقاف والعطايا[2].

ينسب تأسيس الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (471 - 561 هـ = 1078 - 1166 م) بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد، محيي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي: من كبار الزهاد والمتصوفين. ولد في جيلان (وراء طبرستان) وانتقل إلى بغداد شابا، سنة 488 هـ فاتصل بشيوخ العلم والتصوف، وبرع في أساليب الوعظ، وتفقّه، وسمع الحديث، وقرأ الأدب، واشتهر. كان يأكل من عمل يده. وتصدّر للتدريس والإفتاء في بغداد سنة 528 هـ وتوفي بها. له كتب عديدة منها " الغنية لطالب طريق الحق، و "الفتح الرباني" و "فتوح الغيب" و"الفيوضات الربانية"[3]، كان الشيخ عبد القادر الجيلاني من الفقهاء على وفق مذهب الشافعية والحنابلة، تقلّد فيهما مراتب أهلته للإمامة وللفتوى على وفق أصولهما.

ظهور الطريقة القادرية في الجزائر

تعتبر الطريقة القادرية من أقدم الطرق ظهورا في ربوع العالم الإسلامي من وجهة عامة، وكذلك الشأن بالنسبة لوجودها في الجزائر، ولا تختلف الطريقة القادرية عن غيرها في ارتباط ظهورها ونشاطها بظهور الزوايا التي كانت تعمل

(1) المرجع نفسه، ج.1، ص. 513.

(2)- المرجع نفسه، ج.4، ص. 43.

(3)- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002م، ج.4، ص. 347.

على تبني الطرق الصوفية وانطواء جميع أعمالها وتعاليمها تحت غطاءها، وربما هو مسلك يجعل الطريقة الصوفية ممنهجة العمل، لذا فإن الطريقة الصوفية ظهرت في الجزائر مع ظهور زاوية القيطنة[1]، إذ كانت موطنا أولا لتعاليم القادريين، وكان ظهورها على يد مؤسسها الشيخ مصطفى بن المختار الغريسي سنة 1200، لكن هذا لا يمنع من وجود أرضية سابقة لهذه الخطوة من جهتين اثنتين:

- وجود زاويا في بعض المدن الجزائرية كتلمسان وقسنطينة وبجابة"[2]، وكانت محط نظر ومراقبة السلطات الاستعمارية إذ تعرضت كل مؤسسة دينية لمحاربة شديدة طيلة الفترة الاستعمارية.

- انتشار تعاليم الطريقة القادرية وظهور روايات متفرقة عن أخبارها، كالتي ذكرها الورتلاني حين زار قبرا منسوبا لعبد القادر الجيلاني ببجاية، وما ذكره صاحب كتاب كعبة الطائقين محمد بن سليمان"[3]

تؤكد مجمل الكتابات أن انتقال الطريقة القادرية إلى الأمير كانت من جهة جده مصطفى الغريسي الذي أخذ مسائل الطريقة عن الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي[4] ، وكانت رحلته إلى بغداد مُشجعا في تأسيس الزاوية بالجزائر.

---

(1)- القيطنة تقع غرب مدينة معسكر على ضفاف وادي الحمام المعروف بحمام بوحنيفية.

(2)- نصر الدين بن داود، الطريقة القادرية وأثرها في جهاد الأمير عبد القادر، ص. 48، مقال منشور ضمن أعمال ملتقى دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية، وزارة المجاهدين.

(3)- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج.1، ص. 513.

(4) يحي بوعزيز، الطريقة القادرية والأمير عبد القادر، مجلة مسالك، مؤسسة الأمير عبد القادر، الجزائر، العدد الثالث، 1998م، ص. 22.

انتشرت الطريقة القادرية في منطقة التل الوهراني، حيث تقيم القبائل العربية المعتَزّة بأصولها والمشهورة بشدة فرسانها وهذا ما جعل أغلب المنتسبين إليها ذوي طبيعة أرستقراطية"[1]، وتعتبر العيساوية إحدى الطرق التي تفرّعت عنها وتنسب إلى الشيخ عيسى بن محمد المكناسي، والعمارية التي تنسب إلى الشيخ عمار بوسنة"[2]، وتشير بعض الدراسات أنّ عدد الزوايا التابعة للطريقة القادرية قد بلغ 29 زاوية ب 268 مقدم و 14574 مريدا وزاوية الأمير إحداها"[3].

عمل إذا الشيخ مصطفى الغريسي على تأسيس الزاوية بهذه المنطقة القريبة من مدينة معسكر، كانت معالم علمه وصلاحه ظاهرة من خلال أعماله، وهو من العلماء العاملين، وكانت زيارته لبغداد ـ موطن تواجد ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني ـ في إحدى رحلات حجه انطلاقا فعليا وحافزا في بناء زاوية القيطنة تبعا للطريقة القادرية، ورغم أن القدر سبقه بالوفاة"[4]، فإنّ ارتدائه للخرقة القادرية ساهم في دفعه لتلقين الدروس والأذكار والأوراد القادرية، شكّلت

---

(1) – M. Emérit ,L'Algérie à l'époque d'Abdelkader , Collection de documents Inédits, Paris Larose, 1951.p.p.201-202.

(2)– سعيدوني ناصر الدين،الأمير عبد القادر من خلال عصره، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2000، ص. 114.

(3)– بن ساعد عائشة، البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2004، ص. 55.

(4)– توفي مصطفى الغريسي عائدا من رحلة الحج قرب درن بقرى طرابلس يوجد قبره عند عين بساحل البحر تسمى عين عزالة نقش على حجرها عبارة :"هذا قبر سيدي الحاج مصطفى الغريسي"/ مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق محمد صغير بناني وآخرون، شركة دار الأمة الجزائر، ط3، 1988م، ص. 46.

بمجموعها حواشي الطريقة التي أخذها عن الشيخ الكيلاني يقظة لا مناما في ما يُترجم مسمى الكرامة"[1]

لم تثن وفاة الشيخ مصطفى عزم ولده محي الدين الذي انتسب بقوة إلى العمل الصوفي من جهة والده وعمل على استكمال مسالك طريقته، فكانت كل اهتماماته منصبة على أمور الزاوية التي ذاع صيتها أيّما ذيوع ومكّنه اهتمامه من بلوغ "درجة المشيخة في تلقين الأوراد القادرية، والتف حوله المريديون من ربوع شتى كمراكش وسوس وشنقيط والبرقية،"[2] وكانت ساعتئذ موطنا ـ كغيرها من الزوايا ـ لتعليم مسائل الدين، والمشهور آنذاك أن الزوايا احتفظت بقدر مميز من الاهتمام بتعليم المريدين والعامة مبادئ الدين، ويكفي في ذلك اشتهار أحدهم بالنبوغ الديني فيعمد إلى تأسيس مركز لاستقبال الزوار والغرباء والأتباع ومباشرة عملية التعليم، مع العلم أن زوايا الطريقة القادرية تركزت في مواطن التقاء أجناس مختلفة مدنيين وقرويين، كمرابطين يدافعون عن القانون العقيدة الإسلامية"[3]

(1)- بلهاشمي بن بكار، كتاب مجموع الحسب والنسب والفضائل والتاريخ والأدب، مطبعة ابن خلدون، 13 الشارع الوطني، تلمسان، 1381هـ، 1961م، ص. 338.

(2)- مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، تحقيق، يحي بوعزيز، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م، ص. 48.

(3-) Ahmed Nadir, Les ordres religieux, Revue Algérienne des sciences juridiques ,économiques et politiques, épisode 4 (1972) p. 831.

وهو الأمر الذي استيقنه محي الدين وعمل على تلقينه لابنه عبد القادر الجزائري الذي كانت هذه الزاوية محلا واسعا لتشبعه بأفكار الجهاد والمقاومة الشعبية، تقدمت هذه الأفكار بعمق إلى تأسيس قواعد الدولة الحديثة.

العديد من الكتابات الأكاديمية تؤكد على أهمية الرحلات في توثيق السير، وكما كانت رحلة الحج رابطا لانتقال جد الأمير إلى بغداد واتصاله بشيخ الطريقة القادرية هناك، كان لابنه محي الدين ولحفيده الأمير نفس المنهج، حيث زارا أماكن عديدة بعد رحلة الحج حيث بدأ بدمشق وأخذا الطريقة النقشبندية عن الولي الصالح الشيخ خالد المجدوي ثم إلى بغداد حيث أخذا الطريقة العلية القادرية على يد السيد محمود الكيلاني"[1].

إنّ ما يفرضه الواقع الذي تعيشه الجزائر آنذاك فرض على شيوخ الزوايا ضمان بقاء وسيرورة أعمال الزاوية بعد وفاتهم، مع ما تُمليه القناعات الدينية في ممارسة شعائر الدين من خلال طرق التصوف، هو ذاته الأمر الذي دفع بمحي الدين إلى تعليم إبنه محمد السعيد الذي تولى شؤونها غداة وفاة والده، في حين انشغل الأمير بالمقاومة الشعبية ضد المستعمر"[2].

(1)- بلهاشمي بن بكار، المصدر السابق، ص. 36.

(2)- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج.1، ص. 514.

ثورات الطريقة القادرية

الظاهر أنّ الكتابات التاريخية الفرنسية اجتهدت في تصوير مقاومة الأمير عبد القادر على أنها مقاومة قادرية[1] تصوفية طموحية[2]، نجحت بهذه الفكرة في تأليب زعيم الطريقة التجانية محمد الصغير التجاني ضد الأمير، وهذا الحكم لم تفرق فيه هذه الكتابات بين المكانة الكبيرة لمحي الدين (والد الأمير) والتي اكتسبها باعتباره زعيما روحيا، ومسلسل أحداث المقاومة التي استكملها الأمير.

لا يفضَّلُ أبو القاسم سعد الله في تاريخه نسبة قيام المقاومة الأميرية تحت غطاء الطريقة القادرية، فهو يرى أنّ الإلتفاف الشعبي حول شخص الأمير وسّع نطاق المقاومة وأخرجها إلى النطاق الوطني من نطاق الطريقة، لكنه في ذات الوقت يُشيدُ بدور والده محي الدين في تجميع المقاومة تحت الغطاء الروحي[3]، حين حارب الأتراك.

والفكرة على محوريتها تجعل مسألتين في الحسبان، العاطفة الصوفية للمجتمع الجزائري تجاه الشيخ محي الدين شيخ الطريقة، ومقاومة الأمير عبد القادر بما شملته من عاطفة صوفية ووطنية، ونطمئنُ لهذه الفكرة حين نقرأ لناصر الدين سعيدوني ما يفيد[4] أنّ الدراسة الواعية لشخصية الأمير عبد القادر لا تكتمل

---

(1)- شاركت بعض الطرق الصوفية إلى جانب الأمير في مقاومة الأمير كالرحمانية والذرقاوية والطيبية والشيخية.

(2)- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص. 44.

(3)- المرجع نفسه، ج4، ص. 44.

(4)- سعيدوني، المرجع السابق، ص. 186.

دون التعرض لجانبها الصوفي الذي غطى مساحة واسعة من مجمل حياته انطلاقا من الزاوية مرورا بالمشرق، ثم نما هذا الجانب بين جدران السجن بفرنسا، ومع كثرة اطلاع الأمير على كتب الصوفية، لكن إقامته بالحجاز مدة سنة ونصف كانت نقطة تحول ظاهرة في سلوكياته الصوفية التي عبر عنها في إحدى قصائده[1].

العديد من المؤلفات[2] تناولت الحديث عن دور الطرق الصوفية في المقاومة الشعبية مما يُلهُم تقديم من يرى لباس القادرية على مقاومة الأمير على حساب الرأي الثاني، وإمعانا للطرح الثاني لم يلتفت الدكتور سعد الله إلى هذه النقطة في ثنايا حديثه عن القادرية، واهتمّ بالحديث عن فروعها وانتشارها في ربوع الجزائر، ربما يتعزَّزُ هذا الطرح بغياب سمات هذه الطريقة في مراحل المقاومة، ولأنّ التعليم الديني العميق للأمير لم يدفعه إلى اعتقادات ناشئة للطريقة فلا يبدو أنه اعتمد مثلا على ترديد أوراد الطريقة القادرية خلال معاركه، أو اتخاذها مدخلا للنصر أو غيره، أو اعتقاد أن النصر يكفله شيخ الطريقة، والظاهر أن تتبع مراحل المقاومة يُشعر بقوة الاتجاهين معا: الوطني من خلال شخصية الأمير، والصوفي من خلال صياغته لبعض الأقوال والحكم، وعليه فإعمالهما معا أولى من إهمال أحدهما، ولا مزية في القول أن الطريقة القادرية قد "اندمجت في تيار الحركة الوطنية واستعملت نفوذها الروحي للدعوة إلى الجهاد ضد الفرنسيين"[3]

---

(1)- هي القصيدة التي مطلعها: أمسعود جاء السعد والخير واليُسر وولّت جيوش النحس ليس لها ذكر.

(2)- أشار حمدان خوجة إلى هذه القضية.

(3) صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت، ص. 145.

من المهم الإشارة إلى بعض التصريحات الفرنسية[1] التي تتجه إلى اعتبار الطريقة القادرية أساسا في مقاومة الأمير، منها ما ذكره المؤرخ الفرنسي مارسيل امري بعد حديثه عن الدور السياسي والاقتصادي للطرق الصوفية:"...إن معظم الثورات التي وقعت خلال القرن التاسع عشر في الجزائر كانت قد أُعدت ونُظِّمت ونُفِّذت بوحي من هذه الطرق الصوفية، فالأمير عبد القادر كان رئيسا لواحدة منها وهي الجمعية القادرية"[2]

يبدو أن القادريين قد شكّلوا عائقا واضحا للمشروع الاستعماري، فلم تزل تعمل على تضييق دائرة الاتصالات بين فروع الجزائر والزاوية الأم ببغداد، وتعطيل حركة جمع المال ونقلها إلى الشيخ الأكبر بالعراق، ووضعت في الحسبان أنّ الوزن والخطر اللذين حظيت بهما الطرق الصوفية لدى الحكام العثمانيين كالذرقاوية بقيادة الأحرش والتيجانية في تمردها، ظاهران بقوة في صورة القادريين آنذاك، فأرادت السلطات الاستعمارية أن تعاملها بالحذر والحيطة تماما كما فعل الأتراك، خصوصا وأن هذه الطرق وعلى رأسها القادرية قد حملت لواء الجهاد ضد المستعمر بعد استسلام "السلطة المركزية وهزيمة الجيش الرسمي"[3]

لقد أجبر الأمير السلطات الاستعمارية على التفكير بجدية في تغيير مناهج القتال، إذ عمدوا إلى اعتماد سياسة الأرض المحروقة، لكنها كانت مزية للأمير الذي اعتمد بدوره على سياسة حرب العصابات رغم التكلفة الباهضة التي لحقت

---

(1)- ذكر العقبي العديد من هذه التصريحات، ص. 72.

(2)- المرجع نفسه ، ص. 77 .

(3)- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.4، ص. 30 .

بجيوشه"[1] ، ومع ذلك فإنّ ما تتطلبه حرب العصابات من أموال وجنود هي النتيجة المُربحة التي امتلكها الفرنسيون وافتقدها الأمير، ولأنّ السلطات الاستعمارية كانت تعي جيدا من تحارب لم تشكل هذه الخطوة ارتياحا طويلا، فبطول الوقت تمكنت السلطات الاستعمارية من إسقاط الزمالة في إشارة إلى نهاية المقاومة لكن قائد العملية الجنرال دوق أومال في رسالته إلى كوفييه فلوري يقول :"لقد حققت نجاحا لم أكن أحلم به أبدا وإنني أخشى المبالغة في نتائجه، إنه بحق قضية موفقة جدا ولكنها ليست نهاية الحرب مع الأمير"، الذي أرسل بدوره إلى الجنرال بيجو مخاطبا إياه:" إنّ الضرر الذي اعتقدت أنك ألحقته بنا لم يكن سوى بمثابة أخذ كأس ماء من بحر، وإنّ عملكم لا يتجاوز الأثر الذي يتركه الطائر لمّا يلامس بجناحيه موجة من أمواج البحر".

عملت السلطات الفرنسية على تشتيت الطريقة القادرية من أجل إضعافها، ونجحت في تفريعها إلى ستة فروع متنازعة في ما بينها، تدّعي كل منها الشرعية الصوفية، كخطوة ناجحة في إضعاف الثورات القائمة باسمها، وربما تكون السلطات الفرنسية قد استفادت من حملات القادريين ضد الحكام الأتراك بقيادة محي الدين والد الأمير، وعليه يكون من المناسب المرور بسرعة على قيادات الشيخ محي الدين في قالبه الصوفي القادري لهذه التجمعات ضد العثمانيين على النحو التالي:

(1)- سعيدوني، المرجع السابق، ص. 165 .

ثورة محي الدين بن مصطفى بن المختار الحسيني:

وهو من أبرز شيوخ الكفاح بمنطقة معسكر، تُشير المصادر التاريخية أنّ الطريقة القادرية كانت تحظى باهتمام وعناية العثمانيين لكنّ هذه الثقة تزعزعت في أواخر عهد العثمانيين بالجزائر[1]، ويترجم هذا الزعم أنّ الشيخ محي الدين بن مصطفى لم يلق معاملة تُحسب لصالح العثمانيين في رحلته للحج، حيث عمد الباي حسن حاكم إقليم وهران إلى منعه من أداء الفريضة مع ولده الأمير عبد القادر، وهو إجراء أقل ما يوصف به أنّه احتياطي بالنظر إلى العلاقة التي تربط العثمانيين بالقادريين، وسببها ثورة ذرقاوة والرحمانيين ضد الحكم العثماني، فكان لزاما على العثمانيين أن يتخذوا موقفا مشابها من كل الطرق الصوفية، ولعل المصادر التاريخية لم تحفظ مكتوبا أنّ الطريقة القادرية ممثلة في شخصها محي الدين قد قامت بثورة ضد الحكم العثماني.

معركة خنق النطاح الأولى بوهران:

كانت هذه المعركة فرصة مناسبة لظهور قيمة الشيخ محي الدين بين أتباعه في انتسابهم للطريقة، فحملوا معه شعار الجهاد ضد الفرنسيين، وبالناحية الغربية لوهران كانت معركة خنق النطاح الأولى سنة (1831م).

(1)- سعيدوني، المرجع السابق،ج1، ص. 188.

تُوقفُ مصادر التاريخ أنّ أسباب هذه المعركة هو تعيين الجنرال بواي حاكما لوهران والذي عمد إلى إحداث الفتن بينه وبين المخزن[1] من زمالة وهران، لكنه لم يضرب لردة فعلهم حسابا، ربما كان للخلافات التي دبت بين المسلمين آنذاك"[2]، أثرا سلبيا على تلاحمهم، الأمر الذي جعل جهود الشيخ محي الدين تكون على نمطين:

ـ إقرار الصلح بين المسلمين قدر الطاقة والاستطاعة

ـ العمل على توحيد الصفوف تحت راية الجهاد

ظاهر هذه الجهود لم يكن سهلا، وتمكن الشيخ محي الدين من حشد حشود معركة الجهاد التي أسفرت عن خسائر معتبرة قي الجانبين، اكتفى صاحب طلوع سعد السعود بوصفها قائلا:" واشتد القتال بينهما ودام إلى العشية بالاشتهار فمات من النصارى خلق كثير، ومن المسلمين كذلك فضلا عن الجريح بالتكثير"[3].

(1)- المخزن، الحكومة، قبائل معينة معفاة من الضرائب في مقابل خدمة الدولة عند الفتن الداخلية أو الحروب الخارجية/ أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية ظ1860م، 1900م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1، ج. 1، ص. 614.

(2)- المزاري الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق يحي بوعزيز، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م، ج.2، ص. 94.

(3)- المصدر نفسه، ج. 2، ص. 96.

معركة رأس العين بوهران

أعاد الشيخ محي الدين ترتيب الجيوش الإسلامية ممثلة في الدوائر والزمالة[1] والغرابة والبرجية والعبيد الشراقة وبني شقران والحشم ممثلين بذلك المخزن، واجتمعوا لحرب الفرنسيين، وانطلقوا على مسار وادي الحمام ثم سيق ثم تليلات، لكن الشيخ محي الدين لم يرد بدأ جبهة القتال قبل أن تتم مراسلة القائد الفرنسي وخياره بين الإسلام أو دفع الجزية أو القتال.

كان علي بن زرقة أحد رجالات وداي الحمام رسولا لمحي الدين لكنّ غيابه دفع بمحي الدين إلى بدء المعركة بعد انضمام جماعات المخزن.

ثورة الأمير عبد القادر:

ولد الأمير عبد القادر بقرية القيطنة بمدينة غريس الواقعة غرب معسكر عام (1222 هـ -1807 م) حفظ القران الكريم وشرع في تعلم العلوم الشرعية في الزوايا والمساجد على أيدي شيوخ معسكر. ثم أرسله والده إلى مدينة وهران عام(1821) فتعلم الفلسفة والشعر والعلوم الرياضية والجغرافية والطب مواصلا بذلك مشواره العلمي والمعرفي، كان رفيق والده إلى الحجاز لتأدية مناسك الحج ثم إلى دمشق وبها لزم دروس العلماء وحلقاتهم في العلم والذكر، ثم اتجه إلى القاهرة، ورغم قصر مدة إقامته به إلا أنه اتصل بشيوخها وعلمائها، ثم انتقل إلى البقاع المقدسة ليَتمّ تأدية حجته الثانية سنة (1827م)، وكان هذا المشوار كافيا في

(1)- مجموعة خيام متنقلة تضم أهل قبيلة أثناء الحروب بحثا ع ملجأ أو هربا من العدو/ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج.1، ص.613.

تكوين شخصية رجل مضطلع على أوضاع البلدان العربية كان لها أثرها في مسيرته العلمية والفكرية والجهادية.

سبقت الإشارة أنّ محي الدين والد الأمير عمل على تلقين ابنه وتعليمه، ولأن الأمير عبد القادر لم يكن شخصا عاديا في نمط أداءاته الجهادية، فواضح جدا أن الطريقة القادرية التي مثلتها الزاوية آنذاك كانت محكا كافيا في صقل شخصية الأمير، ساهمت بشكل كبير في تكوين شخص غير عادي يصعب رسم حدوده بسهولة مقارنة بالظروف التي عاشتها الجزائر ساعتئذ، ويكون مناسبا القول أنّ قيادة الجيش بأمر والده محي الدين دلت على انتقال التربية الصوفية أيضا، هذا التأهيل القيادي والصوفي سيظهر بجلاء في وقفات الأمير المُستقبلية، هذه الوقفات التي نشأت بخلفية الزاوية التي أسّسها الشيخ مصطفى جد الأمير.

ولأنّ مهام الزاوية لم يقتصر على التعليم الديني فحسب، فقد أصبحت مسائل صدِّ العدو وردِّ اعتداءاته دروسا تربوية تُلقى على المريدين والأتباع، والحق أنها مسائل من صميم الدين باعتبار الجهاد فريضة على المسلمين، خاصة وأنّ البيئة الجزائرية آنذاك كانت سامحة للحديث عنه ومبرراته متوفرة بقوة.

إنّ المتتبع لشخصية الأمير سيكون حتما أمام ظاهرة فكرية نمطية، تسمو إلى مصاف الشخصيات التجديدية، فالأمير في نظراته للجهاد يكون قد قدَم تصورا لقضايا الجهاد، ومع صعوبة مسائله فإنّ الأمير عبد القادر من خلال ثورته ضد المستعمر يكون قد فتح بابا في مسائل السياسة الشرعية، وقد جمع التسولي مسائل الأمير في الجهاد وسماها: "أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عيد القادر في

الجهاد"، تضمن أحكاما جهادية فقهية عالية[1]، شملت جميع أنواع الجهاد النابعة من الوقائع التي حدثت في عصر الأمير.

ولأن هذه الأسئلة كانت موجهة إلى المولى عبد الرحمان ين هشام، فقد دفعت بمحقق الكتاب إلى اعتبار نظرات الأمير في الجهاد مظهرا مبكرا من مظاهر يقظة المغرب الحديث وواقعه السياسي والاجتماعي ووحدته المنشودة"[2].

الحديث إذا عن ثورة الأمير عبد القادر ضد المستعمر تحت غطاء الطريقة القادرية هو حديث عن فقه الجهاد، لا عن حمل السلاح فحسب، وحديث عن محطات لم تتكرر في ثورات الجزائريين ضد الاستعمار، ربما تكون هذه الأمارات قد ظهرت في شخص الأمير خلال جولاته القتالية مع والده محي الدين بوهران، كخنق النطاح الأولى والثانية يوم كان حاملا للراية، وانتهج في ذلك خطة عسكرية كانت ناجحة مقارنة بسن الأمير آنذاك، إذ عمد إلى تقسيم الجيش إلى "خمس فرق: اثنتين منها للقتال، واثنتين للدفاع، والخامسة كامنة وراء العدو"[3].

لا يبدو هذا النمط من التخطيط عاديا في مقاليد الحاكم العسكري، لعله دافع قوي لاجتماع الناس حول شخص الأمير ومطالبة والده الذي صرح بتعبه بعقد البيعة إلى ولده عبد القادر، وكانت رغبة محي الدين في شخص مصطفى بن

---

(1)- التسولي علي بن عبد السلام، أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد، تحقيق، عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح، دار الغرب الإسلامين ط1، 1996م، ص1.

(2)- التسولي، المصدر السابق، ص. 1.

(3)- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر، رائد الكفاح الجزائري، سيرته الذاتية وجهاده، عالم المغرفة، الجزائر، ص. 45 .

اسماعيل ابتداء لولا رفض هذا الأخير، ويبدو أنّ شدة ارتباط الأمير وولائه لوالده دفعت الجماهير الشعبية إلى الميل إلى شخص الأمير، هذا الولاء الذي يظهر في رحلة الحج وقيادته في قتال العدو قبل البيعة، ثم إنّ قبول بيعة المسلمين بدلا عن والده لم يبق في إطار الولاء الديني فحسب بحسب طبيعة هذه المواقف، بل هو ظاهرة اجتماعية دينية"[1]، أطلقت وبُحرية للكتابات التاريخية الحديث عن شخصية واسعة النطاق، متنوعة الجوانب، مع حق الاحتفاظ بالدقة التي تفرضها شخصية الأمير من خلال قيادته الدينية والروحية والعسكرية والسياسية والاجتماعية.

معركة خنق النطاق الثانية بوهران:

كان يُفترض لهذه الواقعة التي كانت سنة (1832م) أن تُدرج ضمن جهاديات إمارة محي الدين، لكنّ قيادة الأمير وغياب والده[2] فرضت إدراجها في صفحات الأمير القتالية، خاصة وأنها الوقعة التي سبقت البيعة بقليل، حين أمّره محي الدين على رأس الجيش، وحقق الأمير فيها نصرا رغم الخسائر البشرية، ومع ذلك فقد كانت نقطة تحول مهمة في حياة الأمير من الشاب الجندي في الوقعة الأولى، إلى الشاب المُعيّن من قبل والده، إلى الأمير القائد الأول للجهاد بطل المقاومة الجزائرية.

---

(1)- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر ،القسم الأول دار الغرب الإسلامي، الجزائر ، ج. 1، ط. 3، 1990م، ص. 129.

(2)- يقول صاحب طلوع سعد السعود:" وغنما تأخر سيدي محي الدين عن الحضور بهذه الوقعة لأمر عاقه كالصاعقة:/ ج2، ص. 101.

يظهر أن سوء الأحوال السياسية جعل أهالي إيالة وهران يفكرون في قيادة حكيمة يمتنعون بها، ويعمدون إليها في الخلاص من أي عدوان خارجي، فأشاروا ببيعة محي الدين[1]، والظاهر أن المصادر حينما تؤكد على هذه الرواية قد توحي أنّ محي الدين لم يَقُدْ أية معركة في السابق، وواقع الأمر خلاف ذلك، وخنق النطاق ورأس العين شاهدتان على ذلك، ولعل قيادته في السابق إنما باعتباره شيخا للزاوية التف حوله المريدون فما كان يجب النزوح إلى غيره ـ وهو الكفء آنذاك ـ وتجاربه في "محاربة الحكام الأتراك قبل الفرنسيين"[2] تثبت هذه الكفاءة.

يبدو أن المحاولات الشعبية في بيعة محي الدين دفعت إلى عقد اجتماع بالمنطقة المعروفة بسهل غريس شارك فيه الأعيان ورؤساء القبائل والعلماء يعرضون عليه القيادة للمرة الثانية"[3].

انعقد الأمر إذا برفض محي الدين لصالح الأمير عبد القادر، "فعقد البيعة له أهل الحل والعقد من العلماء والشرفاء والأولياء والأعيان، وكان ذلك يوم 13 رجب 1248هـ الموافق ل 28 نوفمبر 1833م 4 وسنه آنذاك لا يزيد على الرابعة

(1)- يحي بوعزيز، ثورات القرن التاسع عشر، عالم المغرفة، الجزائر، 2009م، ص. 36.

(2)- يحي بوعزيز، ثورات القرن التاسع عشر، ص. 36.

(3)- مجلة الثقافة، العدد 75 مطبعة احمد زبانة الجزائر سنة 1983، ص. 220.

(4)- قد ترد بعض الاختلافات في تاريخ البيعة والمعتمد أنّ الأمير بويع مرتين: بيعة خاصة في شهر نوفمبر بغريس سنة 1832، والثانية عامة بمسجد الباي بمعسكر في شهر فيفري سنة 1833.

والعشرين بحضور والده محي الدين"[1]، ثم عقدت له البيعة العامة بمدينة معسكر قي 13 رمضان 1248 الموافق ل 04 فيفري 1833م.

كانت تعاليم الزاوية القادرية راسخة في مبادئ الأمير، لذا فقد عمد في أسلوب مبايعته إلى الطريقة التي جاءت عليها بيعة الرضوان، واقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولعل اعتياد القبائل على حياة الاستقلالية[2] دون التبعية عطّلت شيئا ما الأمير في إخضاع القبائل تحت سلطته فقد اعتمد في ذلك على الوازع الديني، ربما هو واحد من الأساليب التي اختطها الأمير لنفسه، لاعتقاد سليم أن التعبئة الشعبية باسم الدين والجهاد ضد المستعمر يمكن أن تؤسس جيشا من عدم، مع ما كان يمتلكه الأمير من قدرات في مقدمتها المكانة التي ورثها عن والده محي الدين.

من الضروري التنبيه أن الأمير عبد القادر أضحى في تاريخ الجزائر قضية فكرية شاغلة، وحتى في الكتابات الغربية لا تزال شخصية الأمير تشغل الرأي الخاص من الباحثين والمهتمين، وكانت الإشارة قد سبقت إلى الاتجاه الوطني في مقاومة الأمير، لكن الدراسة ستعتمد أكثر على إبراز الاتجاه الصوفي الطرقي، وهما في الأساس متلازمان، وعلى فرض تتبع مراحل تطور الشخصية يكون الأمير قد انتقلت إليه ثقة الجماهير من خلال والده محي الدين، وهذا الأخير يكون قد اكتسبها من خلال زعامته الروحية تحت عطاء التصوف والطرقية، وبالنظر إلى التعاليم الأخلاقية والفلسفية التي أرادت الكتابات الفرنسية أن تحصر فيها تعاليم

(1)- يحي بوعزيز، طلوع سعد السعود، ص. 105.

(2)- يحي بوعزيز، ثورات القرن التاسع عشر، ص. 37.

القادرية، واجتهاداتها في تقزيم المقاومة الأميرية والتشكيك فيها، تكون قد سقطت من خلال قناعات الأمير وأقواله التي أسّست لفلسفة أخلاقية حقيقية في نظره للقضايا.

هذه الفلسفة التي جعلت الجنرال بيجو يصرح بقوله: "الحرب مستمرة ومنذ قدومي إلى الجزائر لم أحظ بانتصار واحد على الأمير عبد القادر، هل تعلمون أين تكمن قوته .....إنها في إيمانه بأنه صاحب حق"[1].

إنّ السرد العادي لأحداث المقاومة سيجعل الموضوع ذا طبيعة روتينية، وقد عقدت فيها مؤتمرات و ملتقيات وصنفت فيها كتب ومجلات، وأوفت الأمير حقه وزيادة، وعليه فإن اهتماما بالغا بقدرة الأمير الصوفي على استيعاب شريحة واسعة من الناس هو الأهم في هذه الدراسة، إذ لم تظهر ردوده على الجهات الفرنسية من جهة القتال فحسب، بل من جهة القناعات التي ترجمها إلى أقوال، وتتجه هذه الدراسة إلى إبراز اثر الطريقة القادرية في جهاد الأمير.

إنّ الطريقة التي بويع بها الأمير زيادة على دلالاتها السنِّية[2] هي صورة من صور الإلتفاف على شخص محل إجماع شعبي، وهي قريبة من صورة الإلتفاف حول شيخ الطريقة الذي يحظى بلا شك بقيمة روحية ومعنوية في نفس المريدين.

ذاته الأمر يمكن الحديث عنه إزاء الأمير الذي استطاع استيعاب قدر واسع من الشرائح، وتمكَّنَ من لم شمل العروش والقبائل تحت راية الجهاد، ويمكن

(1) الأميرة بديعة الحسني، وما بدلوا تبديلا، تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير ودولته، دار الفكر، دمشق، ط1، 2002، ص. 161.

(2) تشابه مجرياتها مع بيعة الرضوان.

باطمئنان وصفه أنه كان أخلاقيا حتى في جهاده، فحين يقول:" ليس المقصود من الجهاد والقتال إتلاف العباد ولا تخريب البلاد ولا الرغبة في الأموال وإنما المقصود دفع الفرد والملأ إلى كلمة حق ولو أمكن حصول ذلك من غير قتال حرم القتال"[1].

لا يبالغ هذا النص إذا اعتُبر واحدا من ردود الأمير[2] على بعض من غمز ولمز بمبايعته[3] وهو رد على السلطات الاستعمارية التي ادعت أن جهاد كان تحت لواء القادرية وأنه رغبة في المكانة السياسية.

تعتبر بيعة الأمير عبد القادر إذا نقطة تحول في تاريخ مواجهة العدوان الخارجي، وبداية واضحة لظهور دولة الأمير، فالخطوة أساسية في تنظيم الشأن السياسي للدولة، كانت بمثابة الانتخاب الشعبي لرجل الإجماع، تمكن الأمير بموجبها من كسب سهولة التصرف في الشؤون بمقتضى الإمارة، وقد سعى إلى إقناع مختلف القبائل الجزائرية بعد تمكنه من جلب قبائل الإقليم الغربي، وعليه ستكون البيعة وخطابها أساسا ضامنا في نجاح دولة الأمير، خاصة وأن شروطها وظروفها كانت على وفق البيعة النبوية التي كانت في ما بعد أساسا واضحا في نجاح دولة المدينة المنورة.

الحديث عن البيعة إذا سيندفع بشيء من العمق إلى استنطاق الأحداث التاريخية التي رافقت الأمير في حياته، وربما ستكشف أن تصرفات الأمير قد

---

(1)- الأميرة بديعة، المرجع السابق، ص. 6.

(2)- لا دليل لدينا على اعتباره أول النصوص ورودا لكنه مما يُستأنس به في أحوال الأمير.

(3)- المزاري، طلوع سعد السعود، ص. 106.

ساهمت بشكل وافر في تطوير سريع لمفهوم الوطنية، وإخراجه من النظري[1] إلى التطبيقي[2]، وإعادة قراءة هذه الأحداث المحورية في نطاقها العربي سيجد شخصية الأمير قد تعدَّت "تدعيم التفكير الوطني الجزائري، إلى تدعيم الفكر القومي العربي"[3] وهي المسألة التي جعلت مقاومة الأمير تتخطى الأبعاد والاهتمامات الوطنية إلى الأبعاد والاهتمامات العربية والأجنبية أيضا.

العقد والنقض بين الأمير والسلطات الفرنسية:

الصلح أو معاهدات الهدنة لقاءات تجري بطلب من أحد الطرفين المتنازعين، يُلجأ إليها عادة رعاية للمصلحة العامة للطرفين، أو نظرا لتضرر أحدهما، في الغالب تعتمد على شروط معينة في إقرارها وقبولها، والنظر إلى مسيرة الأمير الجهادية يوقف على محطاته الإنسانية في هذا الشأن، ويوقف على فكره وفلسفته الجهادية، والتي لم تنطلق من مجرد حمل السلاح ضد المستعمر، بل من قناعات كانت محكا واضحا ومُفسرا لسرَ السبق عند الأمير، ربما جانب الالتزام الأخلاقي في عقد المعاهدات لا علاقة له بالدين لكنه تصرف شريف من قبيل رعاية القيم الإنسانية، والتي أكدنها جميع الشرائع السماوية، لكنّ الدين الإسلامي جعل منها في قمة الهرم، وكان الأمير إزاء هذه المعاهدات على جانب من الإلتزام لحظة العقد، وعلى جانب من الحيطة والحذر مدة عقدها، وعلى جانب من الاستعداد بعد نقضها.

---

(1)- كما يراها أحمد خوجة مثلا.

(2)- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، ص. 130.

(3)- المرجع نفسه، ص. 130.

قد لا نبالغ إذا اعتبرنا ـ من خلال شخصية الأمير الصوفية ـ أن الأمير كان يعتمد على خلفيته الإسلامية ويستحضر تربيته الصوفية التي تلقاها بين أحضان الزاوية القادرية في كل محطاته الجهادية، وهذا ما تؤكده حفيدته الأميرة بديعة حين تقول:" إنَّ العناصر الاعتقادية كانت في مقدمة مكونات شخصية الأمير عبد القادر، فإيمانه بالله ورسوله وامتثاله للتعاليم الإسلامية وزهده في ملذات الدنيا جعلته يصل إلى أعلى مستوى في قوة الاعتقاد وعمقه وانتمائه إلى الطريقة القادرية ساعده على تحمل المشاق"[1].

لم يمر على بيعة الأمير زمن طويل إلا أنّ شهرته القتالية وانتصاراته ألزمت حاكم وهران آنذاك دي ميشيل على إبرام اتفاقية الهدنة في 28 فيفري 1834م، اعترف فيها بإمارة الأمير على كامل البلاد إلا مدينة الجزائر ووهران وأرزيو ومستغانم فتبقى تحت حكم الفرنسيين"[2].

إنّ السياسة الجهادية والقيادة الحكيمة للأمير عبد القادر تجعل من هذه المعاهدة لا تنحصر في شخص الأمير فحسب، لكنها تمثل جانب الدولة الجزائرية في العلاقات الخارجية، ساهمت هذه القيادة والسياسة في تشديد الخناق الاقتصادي ودفعت بالجنرال دي ميشال إلى التمويل عن طريق البحر"[3]، وهي وضعية محرجة بالنسبة للجنرال الذي لجأ إلى عقد هذه الهدنة، فالحاجة إليها بين الطرفين على

(1)- الأميرة بديعة، فكر الأمير عبد القادر الجزائري، حقائق ووثائق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط. 1، دمشق، 2000، ص. ص. 135، 136.

(2)- يحي بوعزيز، ثورات القرن التاسع عشر، ص 39/ الأمير عبد القادر، ص. 51.

(3)- إسماعيل العرب، العلاقات الدبلوماسية في عهد الأمير عبد القادر. مطبوعات الجامعية،الجزائر، 1982 ص. 23.

السواء، ولجا بموجبها الأمير إلى قبول الهدنة، وفي عبارته ما يوضح ذلك حين يقول:" ... إنّ ديننا يمنعنا عن طلب الصلح ابتداء ويسمح لنا بقبوله إذا عرض علينا وأنّ الثقة التي منحتمونا إياها في تحريركم حملتنا على أن نبدأكم بالمخايرة وأن المفاوضة التي تطلبونها يقضي الأمر أن تكون مبنية على شروط محترمة منا و منكم ولا يحصل اتفاق إلا إذا صممتم على عقد صلات ودية دائمة بيننا و بينكم"[1].

وبين الرجلين يرد النص المترجم من الفرنسية إلى العربية بالصيغة التالية:" إن الجنرال قائد القوات الفرنسية في مدينة وهران وأمير المؤمنين Le prince des fideles سيدي الحاج عبد القادر بن محي الدين قررا الشروط التالية:

توقف الأعمال العدائية بين الفرنسيين والعرب ابتداءا من يوم 26 فبراير 1834م وأن الجنرال قائد القوات الفرنسية والأمير عبد القادر لن يهملا شيئا لتثبيت هذا الاتحاد والصداقة، التي يجب أن تكون بين شعبين اقتضت إرادة الله أن يعيشا تحت نفس السيادة، ولهذا الغرض فإن ممثلين مرسولين من قبل الأمير عبد القادر يقيمون في وهران ومستغانم وأرزيو ومن أجل تفادي الاصطدامات بين الفرنسيين والعرب فإن ضباطا فرنسيين يقيمون في معسكر..."[2].

(1)- محمد بن عبد القادر الجزائري, تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج.2، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية بيروت الطبعة الثانية منقحة 1384 هـ-1964م ص. 177.

(2)- تشرشل شارل هنري، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، ص. 88.

كانت هذه الرسائل مُقدمة ضامنة لتثبيت نصوص ومواد المعاهدة، وزيادة على اللقاءات التي أجراها كل طرف مع حاشيته، عـمد الأمير إلى إرسال ممثلين عنه إلى الجنرال ديميشال وهما "السيد ميلود بن عراش[1] وزير خـارجيته، والسـيد الآغا خـليفة بـن محمود[2] يحملان توصية تفيد باحترام بنود الاتفاقية بعد صدورها، على أن تُجرى المفاوضات خارج مدينة وهران"[3]

من جهته عقد الجنرال ديميشال اجتماعه مع كبار ضباطه لوضع شروط المعاهدة المزمع عقدها، خلُص الاجتماع إلى تحرير النقاط التالية:

- توقيف إلحرب ابتداء من يوم المعاهدة.
- احترام عادات وتقاليد وشعائر المسلمين.
- إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين.
- الإبقاء على حرية الأسواق التجارية.
- الإلتزام بإرجاع كل هارب فرنسي.

---

(1)- ميلود بن عراش هو شيخ عرب معسكر ومن المقربين للأمير وممثله، أرسله في عدة مهام سياسية و اقتصادية إلى الجزائر العاصمة وباريس، كان وزيرا للخارجية في الحكومة الجزائرية خلال عهد الأمير / مجلة التاريخ عدد خاص، المركز الوطني للدراسات التاريخية مطبعة أحمد زبانة الجزائر، سنة 1983، ص. 147.

(2)- خليفة بن محمود فهو رئيس قبيلة الغرابة بمعسكر وقنصل الأمير بميناء أرزيو خلال الهدنة مع ديميشال 1834 مجلة التاريخ، ص. 147.

(3)- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر ، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ، الجزائر، سنة 1982 ، ص. 52 .

- حرية تنقل المسيحيين مرهونة بجواز سفر مختوم من جهة القنصل عبد القادر والجنرال ديميشال"[1].

وبعد الانتهاء من تحرير الشروط وانقضاء المشاورات تم تحديد أسماء ثلاث شخصيات تكون مراسيلا رسمية لهذه الشروط إلى الأميرعبد القادر وهم السادة: مردوخي[2] وبوشناق[3] وعبد الله عصبون[4]. وقد سبقت الإشارة أن المعاهدة بقدر ما ناسبت مصلحة الفرنسيين، فإنها ستخدم الأمير من جهة استغلال الظروف في بناء الدولة، وألهمته صياغة شروط قوية تمهيدا لنصوص المعاهدة تمحورت في ما يلي:

- حرية شراء وبيع السلاح مع مستلزماته من بارود وكبريت.
- حصر التجارة في ميناء أرزيو عند سلطة الأمير، مع اقتصار شحن البضائع في هذا الميناء فحسب، على أن تحصل مدينتا وهران ومستغانم على الضروري من الحاجيات.

---

(1)- بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري دار النشر بيروت الطبعة الثانية 1403هـ-1983، ص. 90.

(2)- مردوخي عمار أو في بعض المراجع مرتغاي تاجر يهودي بوهران ومن عائلة معروفة بمدينة معسكر كان يحمي شقة الأمير/ مجلة التاريخ ص. 147.

(3)- بوشناق وفي بعض المراجع لو جناح كلفه الجنرال ديميشال بالوساطة مع الأمير وقد قام بنفس الدور مع الجنرال كلوز يل أثناء المفاوضة مع حسين باي حاكم وهران قبل الاحتلال/مجلة التاريخ ص. 149.

(4)-عبد الله عصبون وفي بعض المراجع حسبون من أصل سوري كان قائد لفرقة خيالة للمماليك بمصر قبل قدومه مع الجيش الفرنسي ضمن الحرس الإمبراطوري رقي إلى درجة رائد ثم عين مترجما سنة 1830/مجلة التاريخ ص. 149.

- إعادة الفارين مقيدين، مع التعهد بمنع المجرمين من اللجوء، وسلب القائد العام لمدينة الجزائر من سلطته على العرب الوافدين إليه برضا رؤسائهم.
- تمكين الراغبين من العودة إلى ديارهم دون قيد أو شرط[1] وعلى وفق هذه الشروط تمت صياغة المعاهدة والاتفاق على بنودها.

يكون من المهم الإشارة أنّ الأمير عبد القادر في هذه المعاهدة كان يدرك جيدا أبعادها في حال ضمنت مستوى الأمن من الغدر، وإدراكه الواسع للتعاملات الفرنسية جعلته على مستوى من الاستعداد للحالات الطارئة، ترجم هذا الزعم ما أقدمت عليه السلطات الفرنسية ممثلة غي شخص جنرالها تريزيل من نقض للعهد، وإعلان الأمير الحرب من جديد في نداء وثيق للجهاد، ظهرت فيه معاني الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم من جديد حين نقض بني قريظة العهد فأعلن عليهم الحرب.

المؤرخون الفرنسيون يؤكدون على مستوى الأمير عبد القادر في التعامل إزاء هذه الهدنة، قال أحدهم:" كان يقيم العدل بحزم فيتخذ مع أعدائه القدماء التسامح، كان الأمن مسيطرا تماما على الطرق في كل ولايته، الأمر الذي جعل الأهالي يرددون هذا المثل: يستطيع الطفل أن يطوف ملكه منفردا على رأسه تاج من ذهب دون أن يصيبه أذى، ....كان ذكيا حازما وعاملا مجدا لا يبدأ عملا إلا

(1)- عز الدين اسماعيل وآخرون، الأمير عبد القادر، دار العودة، بيروت، 1957، ص. ص. 71-72.

أكمله، لقد كان يتمنى أمرا واحدا وهو أن يُكمل كل مشاريعه الخلاقة التقدمية قبل مفارقة الحياة"[1].

إنّ تحليلا بسيطا لهذه الاعترافات الفرنسية تؤكد أن الطرف الفرنسي أيضا على خبرة بشخصية من يحارب، فاستعداد الأمير للحرب وإعلانه للجهاد بعد نقض العهد يُعيد إلى الواجهة التربية الصوفية في معاني المجاهدة، وتُظهرَ التزامه بنصوص مبايعته، لخصها في نداء جامع بقوله:" هيا بنا أيها المسلمون إلى الجهاد، وهلموا إليه باجتهاد، وارفعوا عن عواتقكم برود الكسل، وأزيلوا من قلوبكم دواعي الخوف والوجل، أما علمتم أن من مات منكم مات شهيدا، ومن بقي نال الفخار وعاش سعيدا"[2].

لم يكن دي ميشيل يدرك أن السلطات الفرنسية ستعتبره فاشلا في معاهدته مع الأمير عبد القادر حين لم تعجبها الشروط المُقدمة، فاضطروا إلى إقالته عن مدينة وهران واستبداله بالجنرال تريزيل[3] عام 1835م، الذي لم يكن راضيا على إخضاع الأمير لمدينتي المدية ومليانة[4]، فعمل على إقناع الحاكم درالون[5] آنذاك

---

(1)- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر، ص. 52.

(2)- الأمير محمد، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، مطبعة الإسكندرية، 1903، ج. 1، ص. ص. 150- 151.

(3)- تريزيل جنرال فرنسي من مواليد باريس (1786-1860) اكتسب شهرة في الجزائر ويصوره خاصة في معركة المقطع 1835 وأصبح وزيرا للحرب في فرنسا سنة 1835 /بسام العسيلي، المرجع السابق ص. 82.

(4)- لم تحمل بنود المعاهدة نصوصا تمنع الأمير من دخول إقليم التيطري.

(5)- دارلون: (1765-1844) عين حاكما للجزائر سنة 1834 بعد إلحاق الجزائر إداريا بفرنسا/ شارل هنري، المصدر السابق ص. 87.

بالاستيلاء على عاصمة الأمير، حيث قبل دارلون شريطة تنفيذ شروط التفاوض مع الأمير وكانت بتاريخ 03 جانفي 1835م.

إنّ كل إقدام من السلطات الفرنسية في تغيير سياسة التعامل مع الأمير قد يوحي في بعض جزئياته على هزائم معنوية، فمعركة المقطع تبدو نتيجة حتمية لنقض المعاهدة، بعد إقالة دي ميشيل وتعيين تريزيل، وهو المُقدم على عملية النقض، والباحث عن فرصة للقيام بذلك، وكانت أرضية الزمالة وقبائل الدوائر مساعدة تماما بإعلان ولاءها للفرنسيين، أما نصوص التعديل فجاءت على النحو التالي:

- الاعتراف بالسيادة الفرنسية.
- حصر سلطة الأمير داخل إقليم وهران من وادي الشلف من منبعه إلى مصبه حتى واد أرهيو ومنه إلى منطقة كوحيلة.
- السماح لجميع الأوروبيين الفرنسيين داخل إقليم وهران دون أي شرط
- اعتبار التجارة حرة للجميع داخل هذه الأيالة (المقاطعة).
- عدم تصدير الأمير للبضائع من الموانيء التي يسيطر عليها الفرنسيون.
- إطلاق الرهائن ودفع الجزية لحكومة باريس تكون بمثابة اعـتراف بالسيادة الفرنسية[1].

من جهته عمل الأمير على تعديل شروطه وفقا لما يلي:

---

(1)- أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847 الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع، طبعة الأولى سنة 1983، ج.1، ص. ص. 151 – 152.

- الإقليمان الخاضعان للأمير يظلان تحت سلطته وأما سائر البلاد التابعة للحاكم العام فتظل تحت سلطته.
- يعين الأمير أو يعزل خلفائه في المدية وملیانة مع اطلاع الحاكم العام على ذلك واتخاذهما وسيلة للاتصال بينهما.
- حرية التجارة والاحترام المتبادل بين الطرفين.
- للأمير حرية شراء كل مستلزماته الحربية من الجزائر.
- تبادل تسليم الفارين بين الطرفين.
- اطلاع الحاكم العام على زيارات الأمير إلى قسنطينة وبيان الهدف منها.[1]

في قراءة سريعة لهذه التعديلات يظهر المكر الفرنسي من جديد الذي ألزم الأمير الاعتراف بالسيادة الفرنسية، ومع ذلك فقد تمكّن الأمير من بسط نفوذ واسع على المقاطعات الغربية[2]، واستفاد من إعادة ترتيب الجيش وتنظيمه وهو الدافع إلى مسرح أحداث إيجابي بالنسبة للأمير بعد الهدنة.

لم تّدُم معاهدة دي ميشيل عاما كاملا حين نُقضت، ولم يدم على إثرها هذا النمط من المكر، فقد ألحق الأمير بالقوات الفرنسية هزائم نكراء في معركة المقطع في 12 جوان 1835 توحي بدقة أنّ الأمير حين قبل بالهدنة لأجل إعادة ترتيب الجيش كان يضع هذا النمط من المفاجآت في الحسبان، والظاهر أنّه اغتنم الفرصة على الوجه اللازم، والانتصار في أول لقاء بعد الهدنة دليل واضح.

---

(1)- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق ج.1، ص. 153.

(2)- مع استثناء وهران ومستغانم.

كما يبدو واضحا أن مواجهة الأمير الشرسة في معركة المقطع تجاوزت مفهوم الحرب ضد فرنسا، إلى مفهوم التخلي عن الالتزامات الأخلاقية مع شخص الأمير، إذ لم تغب أخلاقيات الأمير في حياته الحربية أو السياسية أو الاجتماعية، ورغم أن فرنسا كانت تدرك بوضوح أن التعامل مع الأمير لم يكن بالأمر الهين، وربما وجدت في هدنته حلا سريعا في تكميد جراحها، وأن مهادنته تعني التزامه التام وعدم غدره وهي المدركة أيضا أن التربية الروحية والتعاليم الدينية التي تلقاها الأمير تمنعه من الحيلولة أو الغدر، وبالمقابل سارعت فرنسا إلى التفكير في العكس، ولم تكن في أي من مراحل تعاملها خليقة أو ملتزمة، ودليل هذا أن حماقات تريزيل رغم أنها لم ترحم فرنسا في لقاء المقطع، ودفعت بحاكمها العام آنذاك دوري ديرلون الذي جاء باحثا عن فرص التعايش إلى مزج تعليقه على تريزيل بتبييت نية جديدة تحسبا لأي تعايش فاشل، فعلق على تصرف هذا الجنرال قائلا:" كم يؤلمني أن أعرف أنك قمت بحركة هجومية بعد أن أوصيتك مرارا وتكرارا بأن تتجنب كل ما من شأنه أن يعكر صفو السلام وأنا لم أفهم كيف تسرعت بهذا الشكل، واغتنمت أول فرصة للتدخل بالسلاح، وأما هروب مصطفى والكولغوليين فقد تكون ذات فائدة في حالة ما إذا واجهتنا ضرورة قصوى لقطع العلاقات مع عبد القادر، ولكنني سأنتظر نتيجة المفاوضات التي سيجريها الكومندران لاموريسيار بالنيابة عني، وسيحاول هذا الضابط الحصول على تنازله عن القبائل التي تقيم في ضواحي وهران، ولكنه إذا وقع ما لا أنتظره، وأصبحت كل محاولة للصلح مستحيلة، فإني أفضل أن تقوم بهجوم خاطف على العدو

وتضطره إلى الدخول في ترتيبا معنا، بدلا من أن تعسكر في مكان بعيد عن وهران، حيث يمكن أن تتعرض مواصلاتك للانقطاع"[1].

يبدو أن ظهور الأمير عبد القادر في سلسلة المقاومات الجزائرية شكّل عائقا واضحا في البناء الفكري الفرنسي، وفي السياسات التي انتهجتها في ظل بسط النفوذ والسلطة، حيث وجدت نفسها إزاء انتصاراته أمام موقف مضطرب وغير ثابت، دفعها إلى إبرام اتفاقيات الصلح والهدنة[2]، وواضح إزاء هذا الوضع أن الحديث عن ذكاءات الأمير لن تكون في موطن دون آخر، فذاتها القيادة التي انطلقت من زاوية صغيرة بالقيطنة ـ رغم انتماءها إلى طريقة واسعة النطاق ـ هي ذاتها التي توصلت إلى تأسيس معالم الدولة الجزائرية الحديثة في وقت مبكر مقارنة بالظروف التي كانت تسير عليها الجزائر آنذاك.

الحديث عن معاهدات الأمير هو ملامسة قريبة وإضافة لانتكاسات السياسة الفرنسية، فإذا كانت هزيمة معركة المقطع سببا في إقالة الجنرال تريزيل وتعويضه بالجنرال كلوزيل[3]، (كان حاكما عاما آنذاك) لم يُضِف هذا الموقف للفرنسيين قوة تُذكر رغم مضاعفة عدد الجيوش حيث حشد كلوزيل قرابة 11000 جندي.

---

(1)- محمد الطيب العلوي مظاهر المقاومة الجزائرية من عام 1830 حتى ثورة نوفمبر 1954، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ط. 2، الجزائر، 1985م، ص. 44.

(2)- كانت هذه المعاهدات فرصة جيدة بالنسبة للأمير في إعادة ترتيب الجيش.

(3)- الجنرال كلوزيل (1772 – 1842) كان في الأركان العامة الفرنسية 1813، أصبح حاكما على الجزائر1837- 1837 ثم عزل/ أديب الحرب، المرجع السابق ،ج. 1، ص. 203.

سببان اثنان يمكن الاعتماد عليهما في تحديد ضعف السياسة الاستعمارية المضطربة، إذ يبدو أن تمكُّن كلوزيل من احتلال مدينة معسكر لم يكن لقوته أو ذكاءه، بل لفراغ ساحاتها من تواجد الأمير الذي أخلى المدينة من كل شيء، وما عمدت إليها قبائل الدوائر والزمالة المتنصرة من حرق وتخريب، لكن الأمير تصدى لكلوزيل وأخرجه من المدينة بعد يومين من دخولها وأعاد ترميم وإصلاح ما أفسده هؤلاء[1]

يرتبط الحديث عن معاهدة تافنة بالجنرال بيجو الذي ظهر دوره في هذه المرحلة، ولم يختلف هذا الاختيار[2] الفرنسي في مجابهة الأمير عن غيره من الجنرالات، إذ تدفع القيادة الأميرية في كل مرة السلطات الفرنسية إلى نفق ضيق، فإضافة إلى هزائم كلوزيل أمام حامية قسنطينة، كان الجنرال بيجو في مواجهة مع جيوش الأمير في معركة وادي تافنة التي فقد فيها حوالي 3500 من رجاله، وخرج عنه ما يقارب 500 رافضا ومنددا بفكرة الاحتلال من أساسها[3].

وقبلها كان الجنرال كلوزيل قد وجّه جيوشه إلى تلمسان رغبة في إخضاعها ولم تكن تحت سلطة الأمير، واحتلها في جانفي 1836م، لكن سياسة الاحتلال والإخلاء التي انتهجها قدّمت للأمير فرصة حصار تلمسان وإعادة القبائل الجنوبية الخارجة عن الطاعة، وتمكّن من هزيمة الجيوش الفرنسية عند مصب نهر تافنة، مما استدعى الاستنجاد بالجنرال بيجو الذي تمكّن من فك الحصار عن الحامية

(1) يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر، ص. 55.

(2) الخيارات الفرنسية في استبدال القادة كانت تنم عن اضطراب واضح في السياسة العسكرية،

(3) يحي بوعزيز، المرجع نفسه، ص. 56.

الفرنسية مستعينا بنهر تافنة وهزيمة الأمير في معركة وادي السكاك في جويلية 1836

جاءت الرغبة في عقد المعاهدة من الطرفين، وكان الأمير راغبا فيها، وفي تبادل للنيات بين الطرفين ظهرت العبارات التالية: "أستطيع أن أعرض عليك السلام بصراحة نبيلة لأنني أحس في نفسي بقوة تامة بتكوين جيشي و بنشاطي وحيويتي الشخصية إنّ قوتي في هذه المدة تبلغ ثلاثة أضعاف قوتي في السنة الماضية ... و الفرنسيون مثل الرومان لا يعقدون الصلح إلا حينما يشعرون بالقوة... إذا كنت تنصت إلى صوت الإنسانية والحكمة فابعث إلي برجال تثق بهم ليحملوا إلي مقترحاتك أحولها إلى ملك فرنسيس"[1].

وكانت عبارة الأمير ردا على الرسالة[2]:" إنني أشد رغبة في حصول العافية وأشدهم بغضا لسفك الدماء بدون موجب شرعي وإنها (فرنسا) لتعلم أنني راغب في عقد الصلح وإقامة دعائمه على أساس قوي لا يتضعضع"[3]. كانت هذه العبارات أرضية سابقة لعقد الصلح، وأعقبت هذه النية شروط الطرفين لإبرام الاتفاقية، فقد أبرقت السلطات الفرنسية بشروطها إلى الأمير متضمنة ما يلي:

- الاعتراف بالسيادة الفرنسية.
- تحديد منطقة نفوذ بنهر الشلف (شرقا).

---

(1)- محمد الطيب العلوي مظاهر المقاومة الجزائرية من عام 1830 حتى ثورة نوفمبر 1954 دار البعث للطباعة و النشر الجزائر الطبعة الأولى 1406هـ-1985م.

(2)- كان ابن دران مبعوث الأمير إلى الجنرال بيجو.

(3)- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص. 143.

- دفع الجزية لفرنسا (ضريبة سنوية).
- تسليم الرهائن كعربون (ضمان) وتنفيذ أية معاهدة مستقبلية يمكن الاتفاق عليها[1].

لم ترق هذه الشروط لتطلعات الأمير الذي اعتبرها دعوة مباشرة للدخول تحت حكم الفرنسيين، وأطلق عبارته المشهورة:" إن المسلمين لا يرضون أن يكونوا تحت حكم الإفرنج"[2] ودفعت بالجنرال بيجو إلى إعادة النظر في الشروط ووافق عليها الأمير بعد عقده بمجلس الشورى وموضحا لموقفه إزاء ما يحدث قائلا:" لا أريد أن اسمع أحدكم يتهمني بالرغبة في عقد الصلح مع المسيحيين، إن قضية السلام والحرب هي قضيتكم وأنتم الذين تبتون فيها"[3] ثم أرسل الأمير تنازلاته التالية:

- التخلي عن البليدة.
- عدم المطالبة بأية سلطة على مسلمين المقيمين في المنطقة الفرنسية.
- بعض التوسع في الحدود الفرنسية"[4].

وبناء على هذا صيغت معاهدة تافنة التاريخية ووقعها الطرفان يوم (30 ماي 1837) وصادق عليها لويس فليب ملك فرنسا في (5 جوان 1837) على 15 مادة،وهذه نصوصها باختصار:

---

(1)- تشرشل هنري، المرجع السابق، ص. 110.

(2)- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر مرجع السابق ص. 143.

(3)- تشرشل هنري، المرجع السابق، ص. 116.

(4)- المرجع نفسه، ص. 117.

- الاعتراف بسلطة فرسا على مدينتي الجزائر ووهران.
- يبقى لفرنسا في إقليم وهران كل من مستغانم ومزغران وأراضيهما، ووهران وأرزيو وأراضيهما، وفي إقليم الجزائر فمدينة الجزائر مع الساحل، وأرض متيجة، والبليدة وأراضيها.
- اعتراف فرنسا بإمارة الأمير على إقليم وهران والتيطري، والقسم الذي لم يدخل في حكم فرنسا من إقليم مدينة الجزائر شرقا.
- ليس للأمير حكم ولا سلطة على المسلمين من اهل البلاد المملوكة لقرنسا، ويباح للفرنسيين أن يسكنوا في مملكة الأمير، ويباح للمسلمين استوطان البلاد التابعة لفرنسا.
- يجوز للعرب المستوطنين قي الأراضي الفرنسية ممارسة الديانة بحرية.
- أن يدفع الأمير للعساكر الفرنسيين ما اتفق عليه من الشعير والحنطة على ثلاث أقساط في السنة.
- للأمير حق شراء الأسلحة من فرنسا.
- للكراغلة[1] حق التمتع بممتلكاتهم بحرية إذا أرادوا استوطان إحدى المدن الإسلامية، ولهم حق البيع إذا اختاروا الانتقال إلى فرنسا.
- أن تتخلى فرنسا عن ميناء رشقون وتلمسان وقلعة المشور، ويتعهد الأمير بنقل الذخائر الحربية الفرنسية من تلمسان إلى وهران.

---

(1)- من المنشقين لصالح فرنسا عن الأمير بمدينة تلمسان وهم أتراك من أب تركي وأم جزائرية.

- حرية التجارة بين الطرفين.
- تبادل الاحترام بين الطرفين والالتزام بحفظ أملاك الفرنسيين الموجودة في بلاد العرب.
- رد المجرمين من الطرفين بالتبادل.
- أن لا يعطي الأمير قسما من الشاطيء للدول الأجنبية إلى بموافقة فرنسا.
- أن لا تباع المحصولات إلا في الأسواق الفرنسية.
- أن تعين فرنسا في المدن التي يملكها الأمير وكلاء للنظر في قضايا رعاياها، وللأمير ذات الحق"[1].

تشير مختلف الدراسات التاريخية التي اهتمت بمقاومة الأمير عبد القادر ومعاهداته للسلام إلى الفروق بين النصين العربي والفرنسي لمعاهدة تافنة، وربما تعتبر في دلالاتها إحدى تجاوزات فرنسا في التعامل مع الأمير، وقد أجمل الدكتور يحي بوعزيز في كتابه حول ثورات القرن التاسع عشر هذه القراءات في أربع ملاحظات[2]:

- وجود فرق بين تاريخ النص الفرنسي للمعاهدة والذي كان يوم 30 ماي 1837، أما النص العربي فكان بتاريخ 01 جوان 1837، مما بوحي أن الفرنسيين أملوا نصوصها على الأمير.

(1)- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر، ص. ص. 57، 58.

(2)- يحي بوعزيز، ثورات الفرن التاسع عشر، ص. 44.

- أن النص الفرنسي يحمل ما يفيد أن الأمير قد اعترف بالسيادة الفرنسية دون النص العربي.
- أن النص الفرنسي أفاد أن المؤن التي يقدمها الأمير لفرنسا سنوية مفروضة عليه دون النص العربي.
- أن النص الفرنسي وسع في المناطق التي حددتها المعاهدة في الناحية الشرقية بين أراضي الأمير والبلاد الخاضعة لفرنسا"

أما مسألة الاعتراف بالسيادة الفرنسية فقد وصفته الأبحاث والكتابات التاريخية بأنه غير واضح وغامض[1] فالنص العربي المنشور في التحفة يفيد أن الأمير يعترف بسلطة دولة فرنسا على مدينتي الجزائر ووهران"[2] في حين نشر مارسيل إميري البند باللغة العربية مفيدا أن الأمير عبد القادر يعرف حكم سلطنة فرنسا في إفريقيا"[3].

في إشارة مهمة تجنحها بعض الأبحاث التاريخية أن الجنرال بيجو عمل في هذه المعاهدة على إبقاء الأمير في تبعية دائمة لفرنسا والحد من سلطاته"[4]، ومع ذلك فإن مصير المعاهدة لم يختلف عن دي ميشيل إذ تعرضت للنقض وإعادة التعديل، ومن أهم الأسباب هو سكوت نصوص المعاهدة عن مصير الإقليم الشرقي

---

(1)- بن جبور محمد،الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الأمير عبد القادر، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2012 . 2013 ص. 173.

(2)- محمد بن عبد القادر، المصدر السابق، ص. 277.

(3)- M, EMIRIT le texte arabe du traité de TAFNA, R,A , V,94, Alger. 1950, p. P. 97-96.

(4)- بن جبور محمد، المرجع السابق، ص 174.

ومنطقة قسنطينة، إذ لا تزال آنذاك النيات الفرنسية في احتلالها قائمة، مع حرصها على عدم دفع الأمير إلى إعادة التعديل بهذا الاحتلال، ومع تدخلات الجنرال فالي أصبح من الواقع الحديث عن التعديل، وأعد مشروعا يقضي بتوسيع سلطات فرنسا إلى الشرق، ومنحها الحق في إقامة خط مواصلات بين أرزيو ومستغانم، وحاول إجبار الأمير على التوقيع، إلا أن الأمير وجد الحرب حلا سريعا للقضاء على الطموحات الفرنسية الغير منتهية، لذا عمد إلى إلغاء المعاهدة والعودة إلى ميدان الحرب.

الحديث عن سياسة الأمير في هذه الاتفاقيات هو حديث عن دبلوماسية سياسية وأخلاقية في آن واحد، ويتضح بعمق أن الأمير كان حريصا على التعامل مع العدو بحذر وحيطة، وأنه يندفع إلى الحرب في الوقت الذي يراه مناسبا، ويجنح للسلم في الوقت الذي يراه مُلزما.

من المفيد الإشارة أن شخصية الأمير في التعامل مع هذه المعاهدات يكون قد استصحب معه تربيته الصوفية والدينية، وكان عاملا بالشورى كأرضية مُلزمة بعد الاتفاق، كما هو واضح في معاهدة تافنة التي دفعته بسببها استشعاره لحجم المسؤولية على عقد اجتماع عاجل بمدينة معسكر"[1] ، وراسل الفرنسيين برسالة قال فيها:" بينما كنا معكم في حال سلم ومعاهدة فلم نشعر إلا وقد فعلتم ما ينافي ذلك وتجاوزتم الحدود المعلومة بين بلادنا وبلادكم من غير إذني ولا تقدم مخابرة في ذلك ولا علم، والحال إن فعلكم هذا هو نفسه ناقض للمعاهدة مبطل لها،

(1) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص. 159.

وبناء عليه ‘اقول لكم أنني عزمت على استئناف الحرب والله المستعان، فارفعوا وكلائكم من بلادي وأنذروا قومكم المقيمين فيها والمسؤولية عليكم وحدكم"[1].

يمكن في ختام الحديث عن هذه الاتفاقات التدليل بقول الدكتور أبو القاسم سعد عن دبلوماسية الأمير حين قال:" إلى جانب ذلك عُرف الأمير بالمهارة الدبلوماسية وبالذكاء وسعة الاطلاع على أحوال العصر، وأثبتت المعاهدتان اللتان وقعهما مع فرنسا حقا براعته وحنكته، فهو سواء في معاهدة ديميشال (1834) أو معاهدة التافنة (1837) كان الرجل الذي يدافع عن مبادئ واضحة ويهدف إلى أبعد من نظرته كما يقولون، كما كان هدفه بالدرجة الأولى اعتراف العدو به ممثلا للشعب الجزائري في أحلك الظروف. وهدفه الثاني منع الفرنسيين من الاستقرار في الجزائر مهما كان الثمن وهو لذلك رفض كل الرفض الاعتراف بالسيادة الفرنسية على الجزائر، وهو الأمر الذي كان الفرنسيون حريصين عليه إلى أقصى الحدود، وقد بلغ الأمير أوج قوته وسمعته السياسية بعد معاهدة التافنة التي اعترفت به في الواقع السيد غير المنازع في البلاد "[2].

رحلة الأمير إلى المغرب:

أهمية هذه المحطة في حياة الأمير تظهر في الأتعاب التي صاحبته فيها، فبعد معاهدة تافنة عمل الأمير على التفرغ لبناء دولته التي يراها، فاهتم

(1)- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، 1980، ج.4، ص. 166.

(2)- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر ، ج.1، ص. 130.

بالجانب العسكري كتدريب الجيش وتسليحه، وإنشاء الحصون والقلاع، والجانب الزراعي من تشجيع للفلاحين وتربية المواشي، والجانب التعليمي كاستقدام العلماء واهتمام بالطلبة وشراء الكتب، وغيرها من الدعائم التي تعين بشكل أو بآخر.

كانت هذه الخطوات مصدر إزعاج حقيقي للفرنسيين الذين يدركون تماما أن تمكّن الأمير من بناء دولته تعني خروجهم من الجزائر، لذا عمل الجنرال بيجو على إضعاف القرى والمداشر التابعة لسلطة الأمير، فبدا بالهجوم على تاكدمت عاصمة الأمير الجديدة، ثم احتل مدينة معسكر في ماي 1841م، ثم زحف على مدينة سعيدة واحتلها كذلك"[1].

وذات الأمر شهده إقليم الجزائر حين استولى الفرنسيون على شرشال والمدية وملیانة، شكّلت بمجموعها ضغوطا واضحة دفعت بالأمير إلى نقل قواته إلى جبال الونشريس، واتخذ لنفسه عاصمة متنقلة من الخيام قسمها إلى ثلاثة أقسام هي:" الزمالة (حي الأمير الخاص)، والدائرة (حي خاص بالجنود)، والحلة (قسم خاص بالجيش)[2].

اتضح للأمير في هذه المرحلة أن الضرورة ملحة في البحث عن حلفاء ضد الاستعمار، وكان لجوؤه إلى المغرب دافعا ملحا لذالك، "وقد أشارت العديد من المصادر يأن الأمير كان يتردد إلى الأراضي المغربية من أجل استنهاض القبائل لمؤازرته في حربه ضد الفرنسيين، ولهذا كلف خليفته البوحميدي الولهاصي بتعزيز

(1)- يحي بوعزيز، ثورات القرن التاسع عشر، ص. 49.

(2)- يحي بوعزيز، ثورات القرن التاسع عشر، ص. 49.

الصلات والروابط مع القبائل في شرق المغرب وحثها على الجهاد"[1] مع أنّ السلطان عبد الرحمان كان متحفظا من معاهدة التافنة التي أوهمه رجال المخزن بأنها تحالف مع العدو[2] وكانت قناعتة متقدمة في ذلك، وقد كان قد راسل السلطان عبد الرحمان قائلا: " لما رأى عدو الله (الفرنسيون) ما بلغه من المشقة وما لحقهم من الحصار والقتال...طلب الصلح من المسلمين على مال يدفعه للمجاهدين، فأجبناه أن نستريح لمثلها، ونستعد بالسلاح والكراع لنيلها، وجعل الله في ذلك للمسلمين صلاحا ولأمور الدين نجاحا"[3].

في إطار تفكير الأمير الموحد في محاربة العدو، كان السلطان المغربي يفكر في كيفية الحد من توسع دائرة الأمير، وعليه فقد عمل على استدراجه للقضاء عليه[4] لولا تفطن الأمير الذي ظل يعمل بعيدا عن نظر رجال المخزن"[5]، والسبب الذي سجله التاريخ في تخوف السلطان المغربي من تواجد الأمير بالمغرب يعود إلى

---

(1)- Decosse Brissac , les rapports de la France et du Maroc pendant la conquête d'Algérie 1830 - 1847, Paris, 1931, p. 43.

(2)- Nadir A. Les ordres religieux et la conquête française 1830 .1851, in Revue algérienne des sciences juridiques, économiques et politique, 4/ 1972, p. 841.

(3)- عبد المجيد التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، (1831 . 1871) الدار التونسية للنشر، تونس، 1972، ص. 224.

(4)- يبدو أن حنكة الأمير وإيمانه تجعلانه يحسن الظن بالسلطان الذي عمل رجال المخزن على تضليله.

(5) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص. 224.

الدعاية البريطانية[1] التي صورت أن حدود إمارة الأمير[2] ستعزل السلطان ويحل مكانه، ومع زيادة الضغوط الفرنسية على المغرب تدفع الظروف بالأمير إلى اللجوء إلى المغرب في نوفمبر 1843م، مما جعل الاصطدام حتميا بين المخزن والأمير"[3]، وعملت بعدها القوات الفرنسية على مواجهة السلطان المغربي وهزيمته في معركة إيسلي قي 14 أوت 1944م.

حاولت السلطات الفرنسية التضييق على السلطان عبد الرحمان وجرّته إلى إبرام معاهدة طنجة في 10 سبتمبر 1844م، والتزم بموجبها بملاحقة الأمير باعتباره خارجا عن القانون"[4] في الحدود الجزائرية والمغربية على حد سواء، ورغم ذلك فالسلطات الفرنسية زادت من حدة حربها على السلطان فضربت طنجة وموغادور[5] وألحقت خرابا كبيرا بمراكش بقيادة الجنرال بيجو، مما اضطر السلطان المغربي الجنوح إلى الصلح وعقد مع الفرنسيين اتفاقية لالا مغنية في مارس 1845م تحدَّدت بموجبها الحدود الجزائرية المراكشية، في هذا الوضع المتأزم سيجد الأمير نفسه مضطرا إلى الاتصال بعلماء مصر شاكيا لهم الضرر الذي لحقه من السلطان المغربي.

---

(1)- عادل الصلح، سطور من الرسالة تاريخ حركة استقلالية قامت في المشرق العربي عام 1877م، دط، بيروت، ص. 51 -55.

(2)- زاد من حدة هذا الادعاء أنه كان بالمغرب آنذاك من نادى من القبائل بإمارة الأمير وغزل السلطان، رغم أن الأمير عمل على إخضاع القبائل الثائرة ضد السلطان لصالح السلطان.

(3)- عادل الصلح، المرجع السابق، ص. 224.

(4)- سعيدوني، المرجع السابق، ص. 224.

(5)- PAUL AZAN. L' Emir Abdelkader 1808 – 1883, Paris, 1929, p. p. 199, 205.

كلُّ هذه الظروف التي أصبح الأمير بموجبها مطلوبا مطاردا مستدرجا من قبل السلطان المغربي الذي اقتنع في وقت سابق أنَّ سبب تحركات الأمير شرق المغرب كانت لاستدراج فرنسا إلى الأراضي المغربية وبموجبها تندفع السلطات المغربية إلى الدفاع عن أراضيها، إلا أن الضغط الفرنسي على شخصه كان قويا، ـ في ظل هده الظروف ـ كان تفكير الأمير منصبا حول بناء دولته واستكمال مشروعه الحضاري، ومواصلة كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي، تمكَّن من الإفلات من تخطيطات السلطان المغربي وعاد إلى الجزائر سنة 1845م، وواجه كافيبناك بسيدي إبراهيم وألحق به هزيمة معتبرة في سبتمبر 1845م.

تذكر بعض الدراسات الفرنسية التاريخية أن كافيبناك بعث برسالة إلى دي لاموريسيير يوم 30 سبتمبر 1845 قال فيها:" لقد أصبح عبد القادر سيدا في البلاد الجبلية ما بين الحدود الشمالية وتافنة السفلى لقد حشد فيها كل المهاجرين من تافنة إلى الدوابر، ومن البحر إلى جبال الجنوب، ولم يبق هناك أحد، إنه نجاح هائل لعبد القادر"[1].

يمكن في ختام الحديث عن الطريقة القادرية اعتبار هذا الاعتراف كفيل بالقول أن تميز الأمير عبد القادر يكمن في تحديه للمحن، ولعل تعاملات السلطان المغربي تعد من أبرزها، وردود الأمير تعود بنا إلى نظرته مع التعاملات الإنسانية التي استقاها من خلفيته الصوفية كأساس رسمي في توجهات الأمير الجهادية والفكرية والتنظيرية والتنظيمية.

(1-) P . AZAN , Op. cit, P. 214.

وعليه فالحديث عن الأمير ومقاومته التابعة والنابعة من صميم طريقته الصوفية وخلفيته الإسلامية، تدفع لاستنتاج أن نجاحات الأمير خلال مسيرته الجهادية تكشف أيضا عن خلفية بعض الأحداث التي ينتقدها البعض ومن شأنها الإنقاص من شخص الأمير، كاتصاله مثلا بالماسونية، أو توقيف مسيرة الجهاد في لحظة غير منتظرة تعبر عنها بعض الكتابات التاريخية بالاستسلام.

أما اتصاله بالماسونية قد يُلمح أن الأمير رأى في ذلك ضرورة معينة في ذلك الوقت[1]، ويشير سعيدوني أن رسالة الأمير في هذا الانتماء يكمن في إمكانية تواصل الفكر الإسلامي مع أي حركة إنسانية لا تنكر العقيدة ولا تتعارض مع مبادئ الشرع، ولا تبطن أهدافا سياسية ولا عقائدية، وأن لحظة الانتماء هي لحظة التفكير في هذا النمط من الاتصال، وأن لحظة انفاصله عنها هي لحظة الحكم باستحالة نشر العقائد المناهضة للإسلام في الأراضي العربية والإسلامية"[2].

أما قضية إنهاء الحرب فتبررها عبارة الأمير كما أوردها مصطفى بن التهامي، حيال حديثه عن القبائل التي ناشدت الأمير الاستمرار في الجهاد، فكان رده:"إني كنت أجاهد على ديني وعلى بلادي ولما رضي أهل الوطن بموافقة النصارى انحزنا لسلطان المغرب مرادنا بذلك أننا جميعا مسلمون للواحد منا ما للجميع وعليه ما عليه، وحيث حصروا الإسلام عندي فالواجب مني على الله أدينه، وعند عجزي لا عتاب علي، فالآن أردت أن أستريح من تعب الركوب والمشاق، ولا تحصل

(1) –سمعنا هذا التأويل للدكتور أبو القاسم سعد الله في الملتقى الدولي حول الأمير عبد القادر الذي نظمته كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران.

(2) –سعيدوني، المرجع السابق، ص. 191.

لي تلك الراحة إلا بالمشي إلى مكة، أو المدينة أحج وأجاور وأخرج من عهدة هذا الأمر كله ولم يبق في قلبي من الملك شيء....."[1].

كانت هذه العبارة تعبيرا صريحا من الأمير على إنهاء الجهاد، حيث عمل على تبليغ السلطات الفرنسية ممثلة في الجنرال لاموريسيير الذي قبل بشروط الأمير التي تضمنت ما يلي:

- أن يقدم له تعهدا مكتوبا بحرية التنقل مع من أراد من أتباعه إلى الإسكندرية أو عكا.
- أن تضمن هذا التعهد شخصية فرنسية معهودة.
- أن يعطي عهد الأمان لجميع رفاقه الإداريين وجنوده ويسمح لكل منهم بالإلتحاق بقبيلته.
- أن توقع هذه الشروط حال القبول بها بطابع القيادة.

كانت هده الشروط كافية لتوقف مسيرة الأمير الجهادية، وحيث كان الاتفاق على نقله إلى المشرق غيرت فرنسا اتفاقها بنقله إلى طولون بفرنسا في شهر جانفي 1848م، وبعد إقامته مدة بفرنسا، انتقل إلى القسطنطينية ثم إلى دمشق سنة 1856م والحجاز رغبة في أداء فريضة الحج، كما زار بيت المقدس وطاف بمختلف البلدان والأقطار الإسلامية، كما كانت له جولة إلى بيروت والأستانة وفرنسا، ثم عاد إلى دمشق حيث لازمه المرض إلى أن توفي بها في 24 ماي 1883م.

(1)- مصطفى بن التهامي، المصدر السابق، ص. 174.

وأخيرا وليس آخرا قد تكون مقاومة الأمير عبد القادر أكثر المقاومات التي تترجم دور القادرية في المقاومة الشعبية، وربما يغيب ذكر القادرية في الكتابات التاريخية التي تناولت الحديث عن الأمير عبد القادر، إذ يفضل بعضها الحديث عن الأمير السياسي والعسكري، فإن بعضها تناول الحديث عن الأمير الصوفي القادري، ولا يمكن بحال إغفال الأرضية التي انطلق منها الأمير أو والده قبله في الجهاد وهي زاوية القيطنة بولاية معسكر، كما لا يبدو انتصار القائلين أن القادرية اندمجت في تيار الحركة الوطنية واستعملت نفوذها الروحي للدعوة إلى الجهاد ضد الفرنسيين، وربما يقوى القول أن القادرية في مراحلها الجهادية الأولى جمعت بين جانبين: الوطني من خلال شخصية الأمير، والصوفي من خلال صياغته الخلفية الدينية التي تلقاها عن والده بزاوية القيطنة، وأنتج كلاهما رجلا فريدا ومقاومة شعبية متميزة.

الملاحق

الملحق 1: نداء السيد المختار بن الحاج محمد شيخ الطريقة الرحمانية في زاوية الهامل خلال الحرب العالمية الأولى

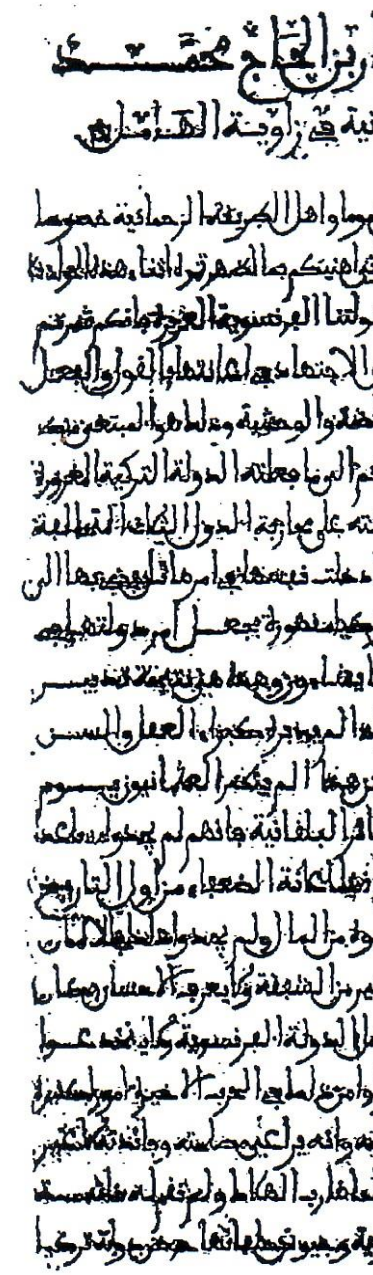

نداء من السيد المختار بن الحاج محمد
شيخ الطريقة الرحمانية في زاوية الهامل

على الاخوان معه بواسطة ضباطه المستولين على العثمانيين وعلى هذا
نحن سكان القطر الجزائري نفجع سيرة تركيا في هذا الشان كما فجع
اخواننا المسلمون في جميع العالم وكذا رجال دولة تركيا انفسهم
الذين لهم نكوص يد ولقد اخطأت دولة تركيا خطأ فاحشا انكره
عليها شيوخ الاسلام في سائر الاقطار وندموا على سيرتها الفاسدة
جميع ذوي الاراء النيرة اما نحن مسلمو الجزائر فما علينا الان فنتهز
هذه الحادثة فرصة جديدة لنبين ونثبت لدولتنا الفرنسوية
العزيزة محبتنا الصادقة ونعينها بقصارى الجهد على اعدائها فانها
تسال لنا كما هو معروف في الاذهان مزايا لا تحصى وهذه مدة تقرب من
قرن ونحن بفضلها رقود في مهد العافية والامن وبينا المال والاولاد
ولم ينغص عيشنا منغص فاين هذا الوقت من وقت استيلاء الترك
على القطر الجزائري فقد حدثنا اباؤنا عن ابائهم بانهم لم يناموا في
وقتهم عافية ولا امنا لا على انفسهم ولا على اموالهم مع ارتكاب
الفضائح والقبائح والفضائع وحينئذ فكيف لا يجب علينا
معاشر مسلمي القطر الجزائري ان نراعي احسان دولتنا الفخيمة
ونشكر الله على العافية بوجودها فان الشكر يستلزم المزيد
وسنرى من دولتنا الفخيمة في المستقبل اكثر مما رايناه في الماضي
من خيرها وعليه فنحبكم ايها الاخوان ان تكونوا مع دولتنا يدا
واحدة وتنصروها على اعدائها بجميع انواع النصر والمعونة في
الجميع قبولا هذه النصيحة والسلام

من عبد ربه المختار بن الحاج محمد شيخ زاوية الهامل

الملحق 2: نداء السيد محمد الصغير بن الشيخ المختار شيخ الطريقة الرحمانية في أولاد جلال خلال الحرب العالمية الأولى

نداء السيد محمد الصغير بن الشيخ المختار

شيخ الطريقة الرحمانية في زاوية أولاد جلال

اخواننا

ان دولة الالمان المعروفة بالتوحش والفظاعة قد اوقدت نار
الفتنة واشهرت الحرب على دولتنا الفرنسوية المحبوبة وعلى حليفتيها
انقلتيرا وروسيا وكان العالم كله يختار السلم عن الحرب عدا المانيا
لعنها الله كدرت السلم خدمة لمطامعها الفاسدة وتبعتها
حليفتها دولة النمسا وقد اكثرتا من الحيل والدسائس في جميع
اقطار الدنيا لتفتش على من يعينها فلم تجد احدا يبالي بها فكل
جنس من اجناس البشر كراهة فعلها والصد عنها والاحتراز من خداعها
غير دولة الترك المغرورة لانها في يد غلمان تربوا في المانيا
وليس لهم من الاسلام الا اسمه فقد فضلوا منفعتهم الشخصية
على مصلحة البلاد وباعوا مملكتهم للالمانيا فما ربحت تجارتهم وما
كانوا مهتدين وقد انكر عملهم هذا المسلمون كافة في كل
موضع وكيف لا تنفر منه الطباع وتشمئز منه النفوس ومن ذا الذي
يجهل التاريخ فكم من مرة وقعت تركيا في المها لولا السبب فيها
الالمان وانقذها منها فرنسا وانقلتيرا واليوم دولة تركيا تقابل احسانهما
بالشامة خلافا لقول الله تعالى وهل جزاء الاحسان الا الاحسان
اما الرابطة الدينية التي بيننا وبين الترك لا محل لها هنا ولا يلتفت
اليها لان رجال دولة الترك قد عدلوا عن الاسلام بالسعي فيما
يفضي بها الى المضرة الفادحة فضلا عن كونهم ليسوا من الجنس
العربي فيا اخواننا الواجب علينا ان نعين دولتنا الفرنسوية الفخيمة
بالرجال والاموال فانها اسبلت علينا الراحة والامن والعافية ونعم
الله تعالى على رايتها علينا وهذا وقت مجازاتها فلا نفرط ولا نقصر
فيما تامرنا به بان نحن حاضرون عند طاعتها واقفون لدعوتها سامعون
متعزمون لقتال اعدائها حيثما كانوا اعوانا لها ولحلفائها طالبا للنصر
القريب والظفر العجيب والسلام من خادم الله وعباده
محمد الصغير بن الشيخ المختار صاحب زاوية اولاد جلال رحمه الله
والعمه الرحمانيه رضي الله

الملحق 3: نداء الشريف السيد تكوك أحمد شارف شيخ الطريقة السنوسية في زاوية أولاد شافع خلال الحرب العالمية الأولى

نداء الشريف السيد تكوك احمد شارف
شيخ الطريقة السنوسية في زاوية اولاد شافع

الى كافة مقادمنا واخواننا المتمسكين بطريقتنا السنوسية اما بعد
السلام فقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم الفتنة نار لعن الله موقدها
وهذه دولة تركيا بادرت بالحرب لدولة روسيا التي هي حبيبة
وحليفة لدولتنا الفخيمة الفرنسوية فاولا لما دمر الله هو
الذي اثار الفتنة لفظاظته وتوحشه وبذلك الفتنة لا يخفاكم ما
اصبح فيه الخلق من ضيق المعيشة وانقطاع المعاملات وكساد
السلع والقوم في حيرة عظيمة يدعون المولى جل جلاله ان يطفئ
نار هذه الفتنة الالمانية لتستريح الدول وتمشي المعاملات
ويصفو الجو من دخان الفساد ولما تحققنا ان دولتنا الفرنسوية
هي العليا وقرب صفاء الوقت واذا بدولة تركيا لجنونها الهائل
تداخلت في الامر مساعدة لالمانيا التي لم تنقطع منذ القديم عن معاداتها
وكيف لم ينتبه اولئك الفتيان الراشد ولتهم اطاقة لها على الدفاع
عن نفسها فضلا عن ان تطمع في غيرها ومن ذا الذي يقدر على الدول
الثلاث العظام المحاربة فرنسا وانقليترا وروسيا مع قوتهن الهائلة
وتنظيم جيوشهن المنصورة الذين هم كالبنيان المرصوص ومن اين يحصل
طمع عدوهن وكيف لم يفطن رجال دولة تركيا بان طاغية الى ذوي
الآراء الطائشة الذين حذروهم من الوقوع في هذه المهواة فمسؤوليتهم

عظيمة وجناياتهم كبيرة عافهم الله أما نحن المسلمون الجزائريون
فلا نعرف غير دولتنا الفرنسوية العزيزة فإننا أبناؤها وخدامها
من قلب وقالب مستعدون للدفاع عن حوزتها متهيئون لقتال

عدوها وكيف لا يكون ذلك منا مع أنها أكثرت علينا من نعمها ولم
تال جهدا في تحسين أحوالنا المادية والمعنوية فكانت هذه
البلاد وقت استيلاء الترك عليها يئن سكانها من ظلمهم وجورهم
وفسادهم وقتلهم أولياء الله علماء وعدوانا وغير ذلك من
أفعالهم القديمة المشهورة المأثورة من أب عن جد والعياذ بالله
منهم ومن أمثالهم ولما كان الأمر كذلك فكيف لا نشكر فضل الدولة
الفرنسوية ليلا ونهارا وندعو لها بالانتصار ولعدوها بالانكسار
ولنوصكم يا إخواني وصية الأب لأولاده والصديق لأخلائه بأن

تكونوا أنصارا لدولتنا الفرنسوية بأنفسكم وأولادكم
وأموالكم كما هو واقع منكم الآن فإن الدولة تحمد وتشكر
أفعالكم وتعترف لكم بالفضل والمزية والمحبة وحسن النية
وصدق الطوية فابقوا على مسلككم هذا وبه ترضون الله ورسوله
صلى الله عليه وسلم والذي فيها النفع في بير لا فعل له والسلام

ختام

تكوك أحمد شارف شيخ الطريقة السنوسية

الملحق 4: وصية الشريف السيد أحمد بن الحسني الوزاني في وهران إلى مقادم وإخوان الطريقة الطيبية خلال الحرب العالمية الأولى

وصية الشريف السيد أحمد بن الحسني الوزاني
إلى المقادم وإخوان الطريقة الطيبية

الحمد لله وحده

أيها الإخوان الطيبيون إننا نحمد الله ونشكره على ولاية
الدولة الفرنسوية علينا فإننا نحبها ونسأل الله أن يطيل
بقاءها ويجعل منارها في أعلى أفق السعادة ويمدها بالنصر
في الغدو والرواح أما دولة تركيا فعلى أبصار رجالها غشاوة
إلا كانوا ينتبهون إلى مصلحة بلادهم ويصدون عن دولة ألمانيا
المخادعة التي تجر المملكة العثمانية إلى السقوط الحقيقي
وليس من شأن الإسلام الظلم ولا الانتظام في سلك الظالمين
فكيف لا يعرف ذلك رجال دولة تركيا وكيف لا يتقون الله في
البقية الباقية من ملكهم بئست سياستهم التابعة لسياسة
ألمانيا فكانت عاقبتها انحطاط شأن المملكة العثمانية
في الماضي واضمحلالها في الحال والاستقبال فاللئيم لا يرعوا والترك
لئام حيث لم يراعوا خير فرنسا وخير انقلتير معهم ومالوا إلى
الألمان مخادعهم وعدو الإسلام أما نحن المسلمون عموما والطيبون
خصوصا فنعلن على رؤوس الملأ بأننا خدام صادقون لدولتنا
الفرنسوية الفخيمة ولا نبرح في إعانتها ونصرها على أعدائها
كما ندعو لها من صميم الفؤاد بالانتصار الكلي ونسأل الله
أن يدمر الألمان وأتباعه المفسدين اللهم آمين والسلام

أحمد بن الحسني بن إبراهيم الشريف الحسني العلمي الوزاني
شيخ الطريقة الطيبية بوهران

الملحق 5: نداء السيد محمد الهاشمي بن إبراهيم شيخ الطريقة القادرية في زاويتي تقرت وعيش خلال الحرب العالمية الأولى

نداء السيد محمد الهاشمي بن ابراهيم
شيخ الطريقة القادرية في زاويتي تقرت وعميش الى كافة
الاخوان طريقته

اما بعد السلام فقد استبشرنا للغاية لما كثر من سماعنا من ان
دولتنا الفرنسوية الفخيمة منصورة وما لقيته المانيا الخسارة على
جيوش فرنسا الجرار شيئا كما لم تفد شيئا على انقلتيرا وعلى روسيا
حليفتي دولتنا المحبوبة فكفر على الالمان الانكسار بحول الله
وقوته لا يطول الزمان حتى يضمحل الجنس الالماني الفاسد ويصفو
جو العالم من الفساد الذي عكرته المانيا ولكن العجب العجاب
ان دولة تركيا ادخلت نفسها في هذه الحرب الهائلة وذلك
لبلادة رجالها وقلة بصارتهم وعاقبة الامر ضياعهم وجلبهم الاضمحلال الى
دمار المملكة العثمانية وخرابها فان الله تعالى قال ولا تلقوا
بايديكم الى التهلكة، ولكن رجال دولة تركيا لا علم لهم
بكتاب الله وآياته الشريفة ولا يعملون بالدين الحنيف والا
لكانوا يستشيرون علماء بلادهم وسلاطين مملكتهم فيصدونهم
عن غفلتهم ويحفظون المملكة العثمانية من هذا الشر الفادح
ومن المعلوم ان سياسة المانيا مبنية على الحيل والمكائد ومن
شانها المخادعة لا غير وان الحوادث التي جرت في هذه السنوات
الاخيرة مثل الحرب البلقانية تدل على مخادعة المانيا للدولة
التركية ومع ذلك فان هذه المسكينة لم تنتبه من نومها ولم
تعتبر سيرتها القبيحة فانصتت اليها وتبعتها في الفساد جعل
الله كيد المانيا في نحرها ودمرها هي ومن يساعدها اما نحن
مسلمو قطر الجزائر وبالاخص الاخوان القادريون فكما نبرك في

خدمة دولتنا الفرنسوية العزيزة وفي إعانتها فيلزمنا الوقوف
على ساق الجد في إمدادها لقتال عدوها الذي هو عدونا وعدو
الإسلام والمسلمين وعلى فرض أننا نموت جميعا في سبيل دولتنا
العزيزة فذلك قليل في حقها لأنها أفاضت علينا نعمها وإحساناتها
وما جزاء الإحسان إلا الإحسان عملا بقوله تعالى وهل جزاء الإحسان
إلا الإحسان أما الترك فإن أحوالهم معروفة لا سيما في البلاد
الجزائرية فقد رأى فيها منهم أجدادنا ما تتفتت به أكبادهم
من الجور والظلم والسلب والنهب وقتل الضعفاء وما يشبه
ذلك من المفاسد الكبرى وكانت بلادنا في دولة الترك في حالة
يرثى لها أما الدولة الفرنسوية فبعكس ذلك فقد أصلحت خللها
وعمرتها وشيدت فيها المساجد والمدارس ونورتها بالعلم
ومهدت فيها طرق السعادة على اختلافها فصارت قفارها
مواضع عمران وقام فيها سلطان الحق والعدل ونصر المظلوم
على الظالم ووقف كل أحد عند حده وكيف لا نكون والحالة
هذه صادقين لدولتنا مخلصين لها وإياكم أيها الإخوان
ثم إياكم أن تقصروا في خدمتها فأعينوها بأموالكم وأولادكم
لأنها محسنة والله تعالى يحب المحسنين وادعوا لها في كل
وقت بالبقاء والانتصار وعلى أعدائها بالفناء والدمار ولكم الأجر
من الملك القهار والسلام من خادم السنة وخلفه
محمد [illegible] صاحب زاوية [illegible]

الملحق 6: وصية الشيخ السيد داودي أحمد بن محمد صاحب زاوية سيدي منصور في بني جناد من قبائل زواوة خلال الحرب العالمية الأولى

وصية الشيخ السيد داودي احمد بن محمد
صاحب زاوية سيدي منصور في بني جناد من قبائل زواوة
الى اتباع زاويته المشهورة وكافة المسلمين

بعد الحمدلة والسلام فان مما الفته الطباع وتلقته الاذان
بالاستماع حتى صار غنيا عن التدليل ان الهناء والعافية والسلامة
هي الاسباب المحمودة الواجبة لعمارة الدنيا بالنعم والخيرات
وان الهرج والفتن والفجائع وجحد النعم هي الاسباب المذمومة
الموجبة لخرابها وخلائها من البركات. فعلى كل فرد من افراد
العقلاء ان يمعن النظر في اخواننا معشر المسلمين اهل الوطن
الجزائري اننا من يوم ان وضعت الدولة الفرنسوية قدمها على البر
الجزائري ونحن في خير وعافية ونسك ورغد عيشة واقية الى
وقتنا هذا والدولة تبذل المجهود في اصلاح امورنا وتسعى في
جلب فوائدنا وتدافع المضرة عنا كما تدافع الام عن ولدها
وتكابد المشاق في اخراجنا من ظلمات الجهل ومن عجيب جودة
سيرتها واعظم شفقتها على رعيتها حسن تصرفاتها في احوال مساجدنا
بما تقتضيه عمارتها واحترام ديننا وعوائدنا والاخذ بيد ضعفائنا
وقهر الظالمين منا وعليه فاننا متمسكون بدولتنا الفرنسوية
الفخيمة اشد التمسك ولا نشح عليها بانفسنا واولادنا وارزاقنا
لاعانتها على عدوتها المانيا المشؤومة وعلى من معها من الظالمين
وهما تركيا والنمسا اذ ان قلوبنا مملوءة بمحبة فرنسا ومودتها
ومشحونة بالعداوة والبغضاء لالمانيا وصاحبيها ونسال الله تعالى
ان يدمر المانيا والذين في معيتها المشؤومة كما نساله تعالى ان يبقينا من
رعايا فرنسا الدولة العزيزة المحبوبة التي يتمنى الدخول في حمايتها كل من
هو تحت سلطة غيرها خصوصا المانيا فانها الدولة الخبيثة المشهورة
بكثرة عداوتها للدين الاسلامي والمسلمين اللهم تقبل دعانا انه بالاجابة
جدير وعلى كل شيء قدير والسلام

الملحق 7: رسالة ابراهيم بن سي الصادق بلحاج وأخيه الطاهر

من سجن الحراش سنة 1862

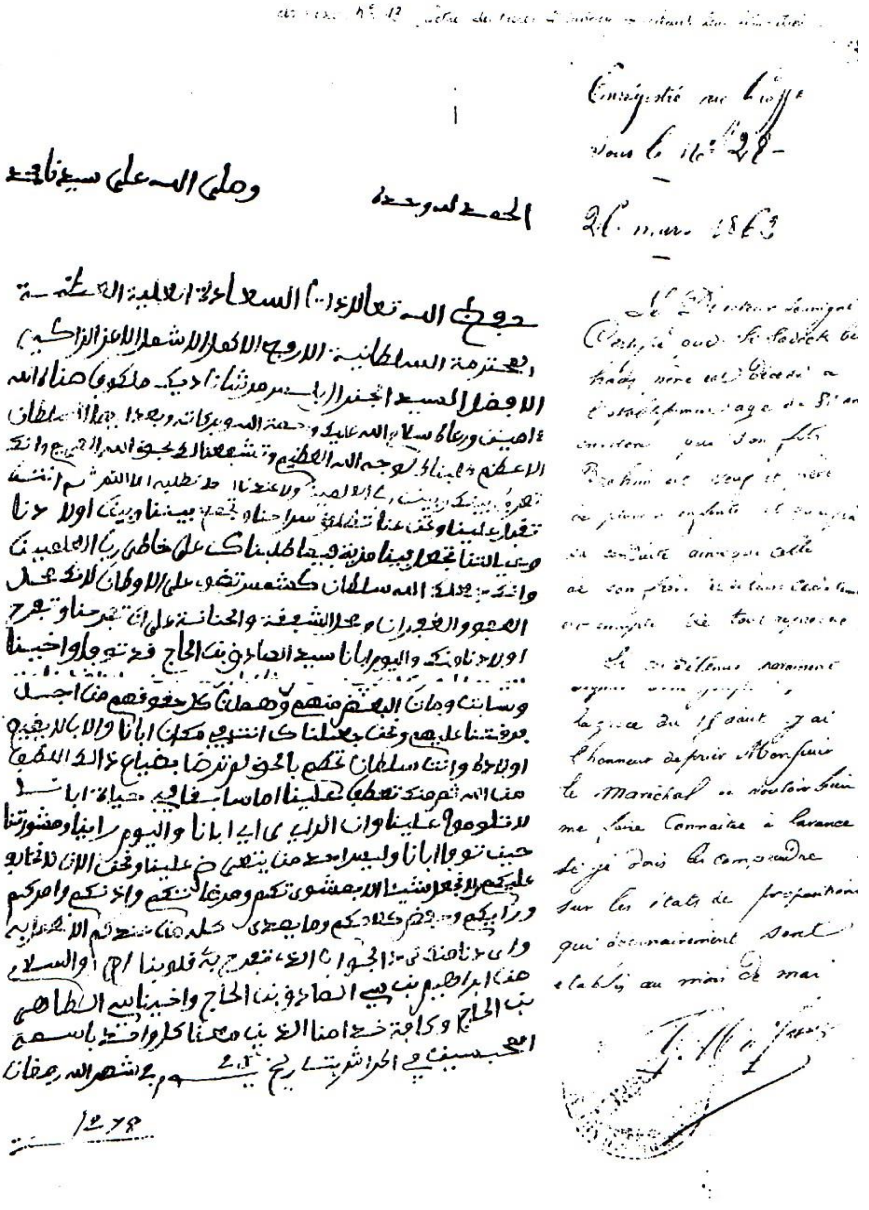

الملحق 8: رسالة ابراهيم بن سي الصادق بلحاج وأخيه الطاهر

من سجن الحراش سنة 1863

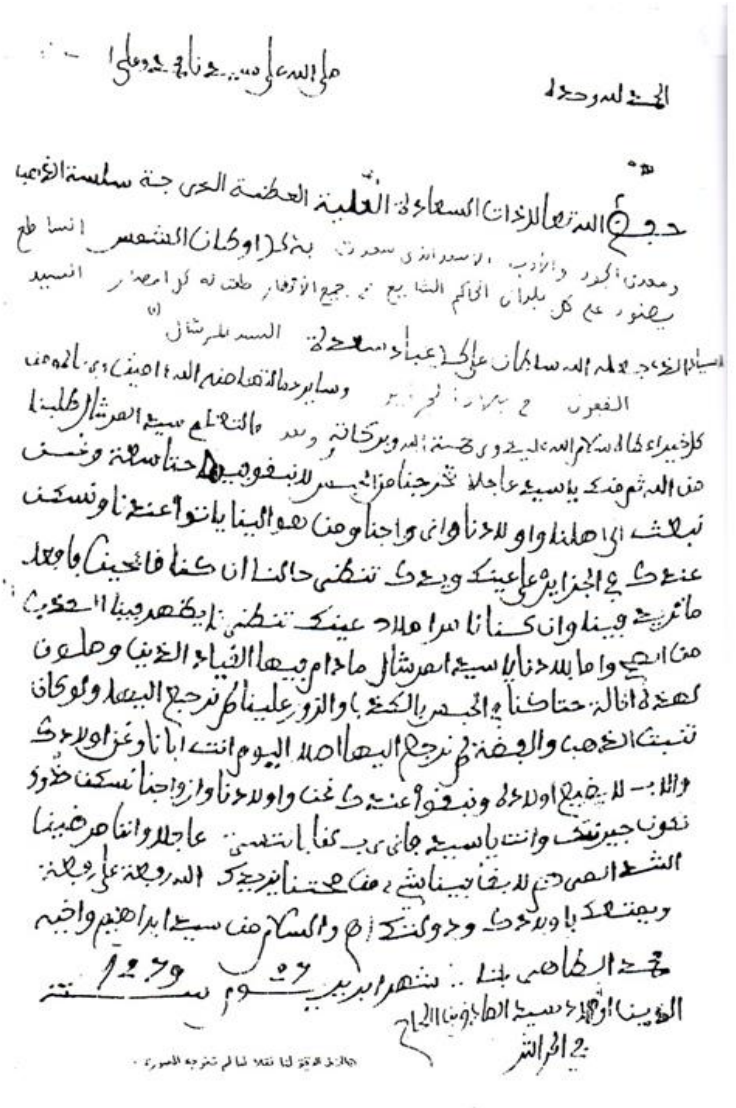

الملحق رقم 09: شكوى أولاد بن حبارة في نارة بالأوراس ضد القايد بن عباس

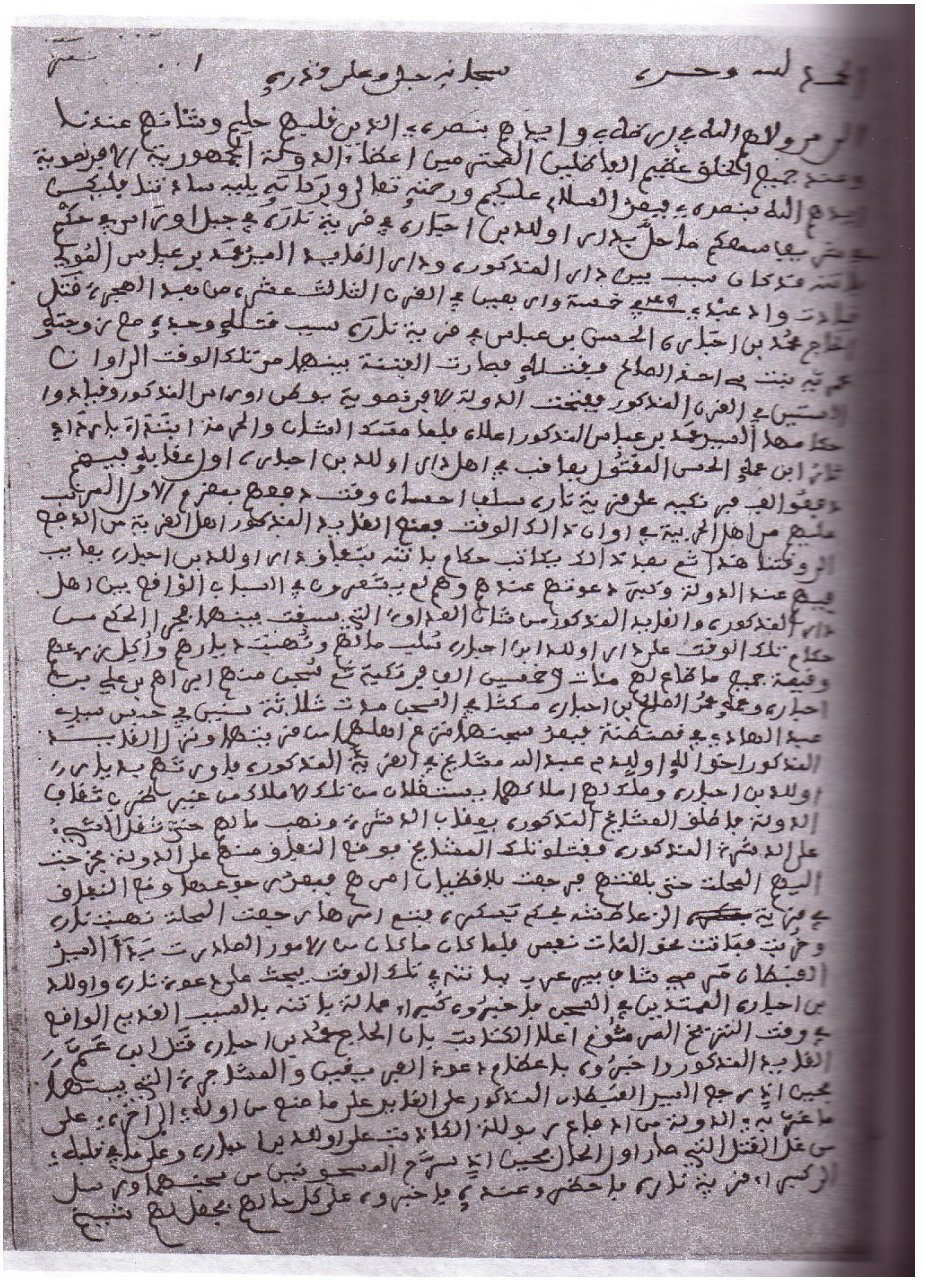

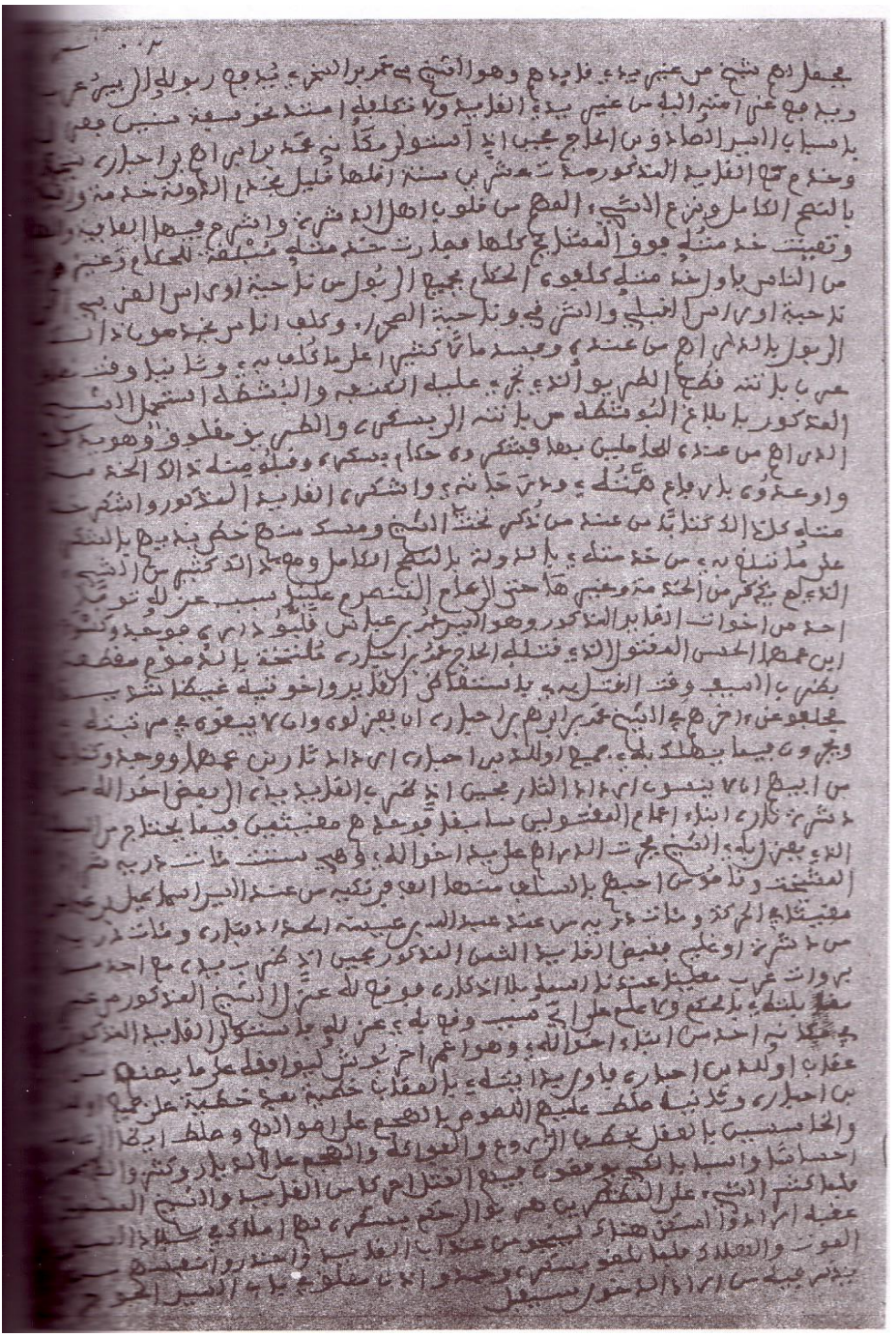

الملحق رقم 10: شكوى أهل نقاوس ضد القايد باش تارزي وأولاده

في 1879/04/30

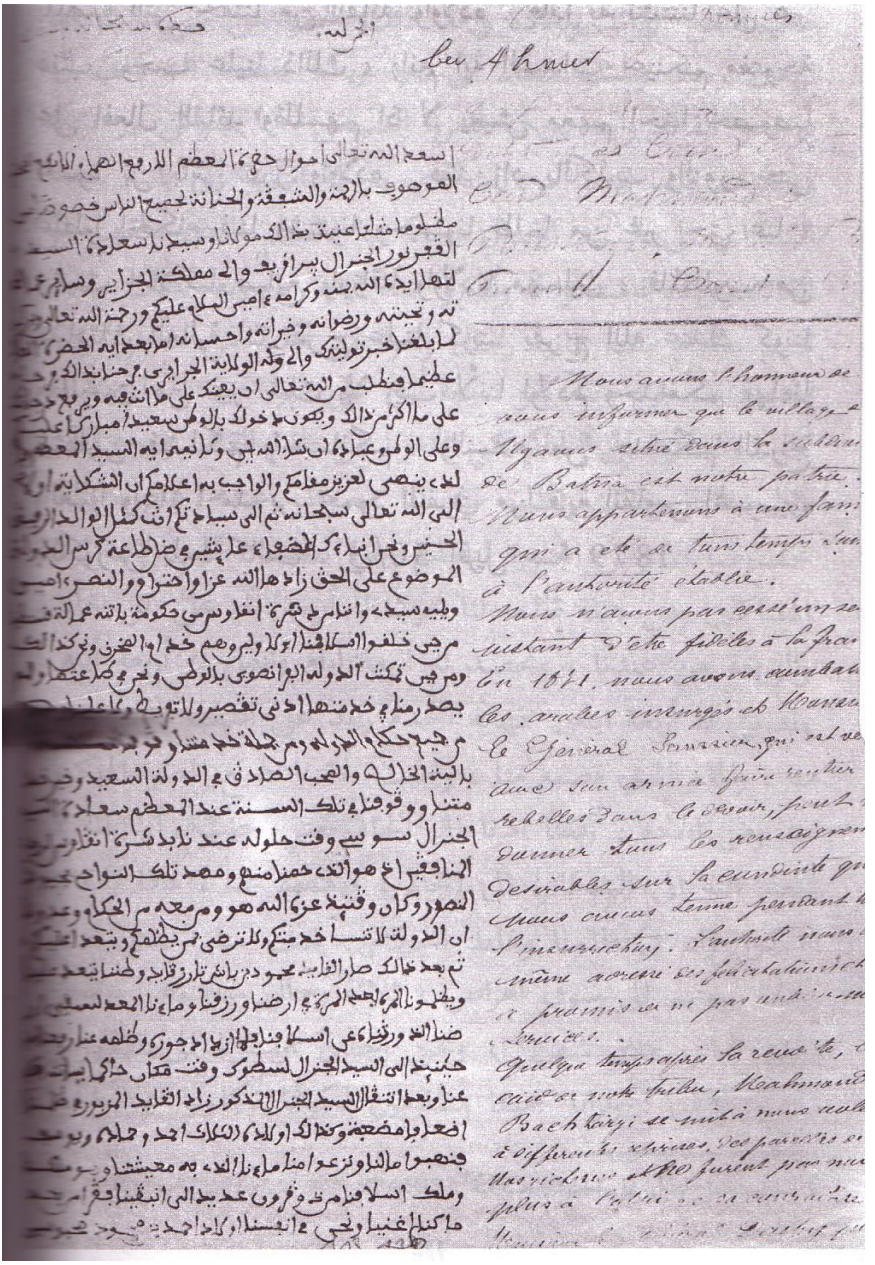

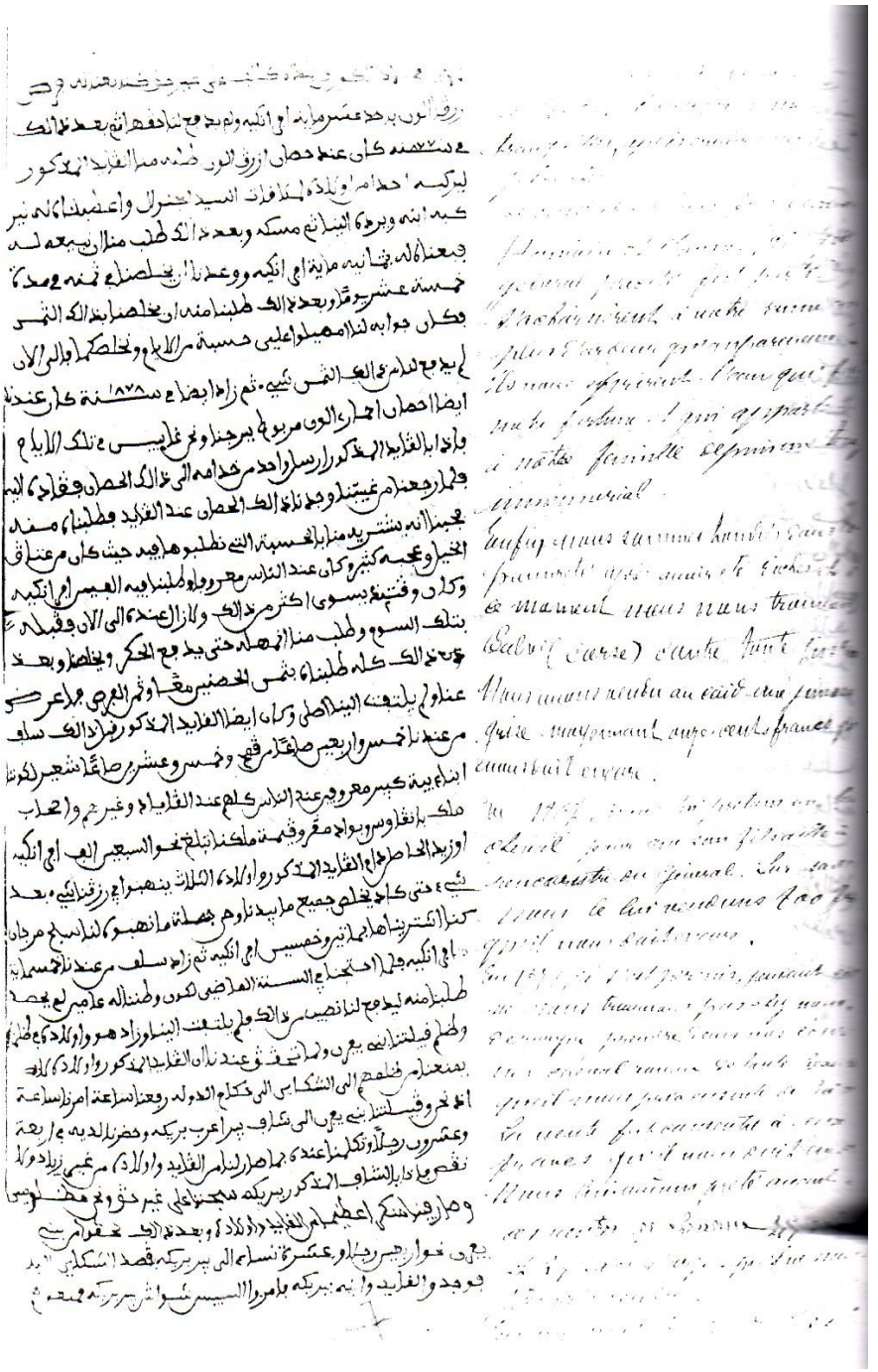

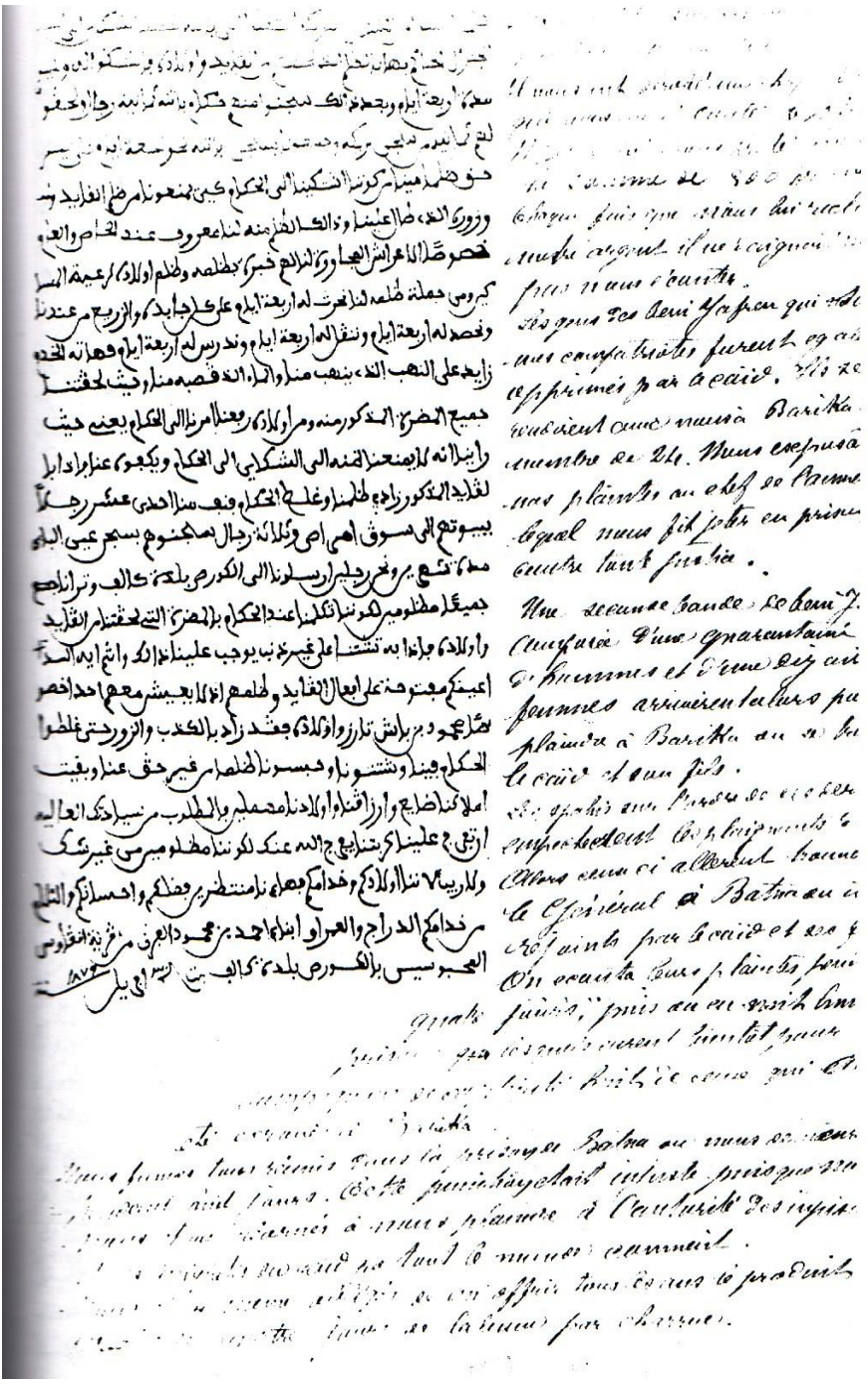

الملحق رقم 11: رسالة ابن جار الله إلى الطيب بن علي الشريف للثورة والجهاد

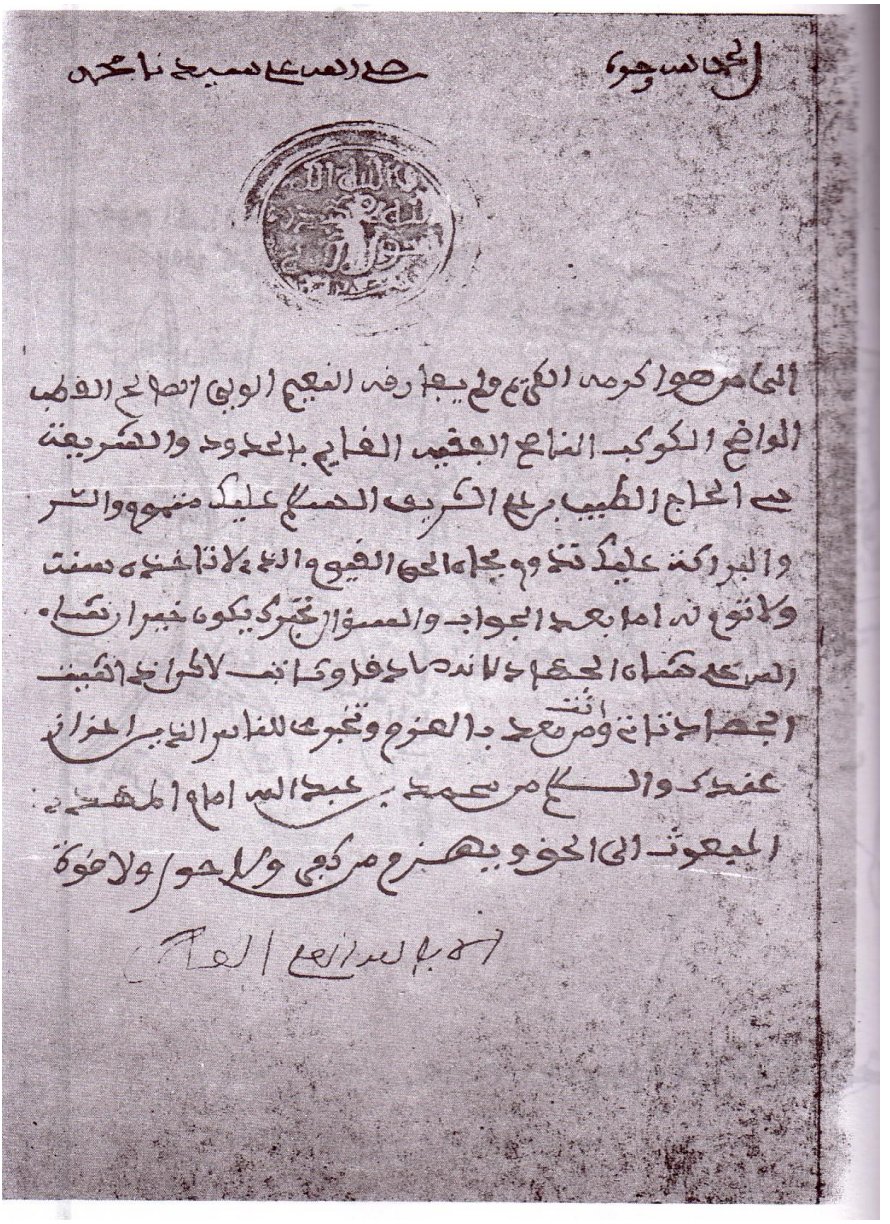

الملحق رقم 12: رسالة بخط يد بوعمامة إلى حاكم عين الصفراء

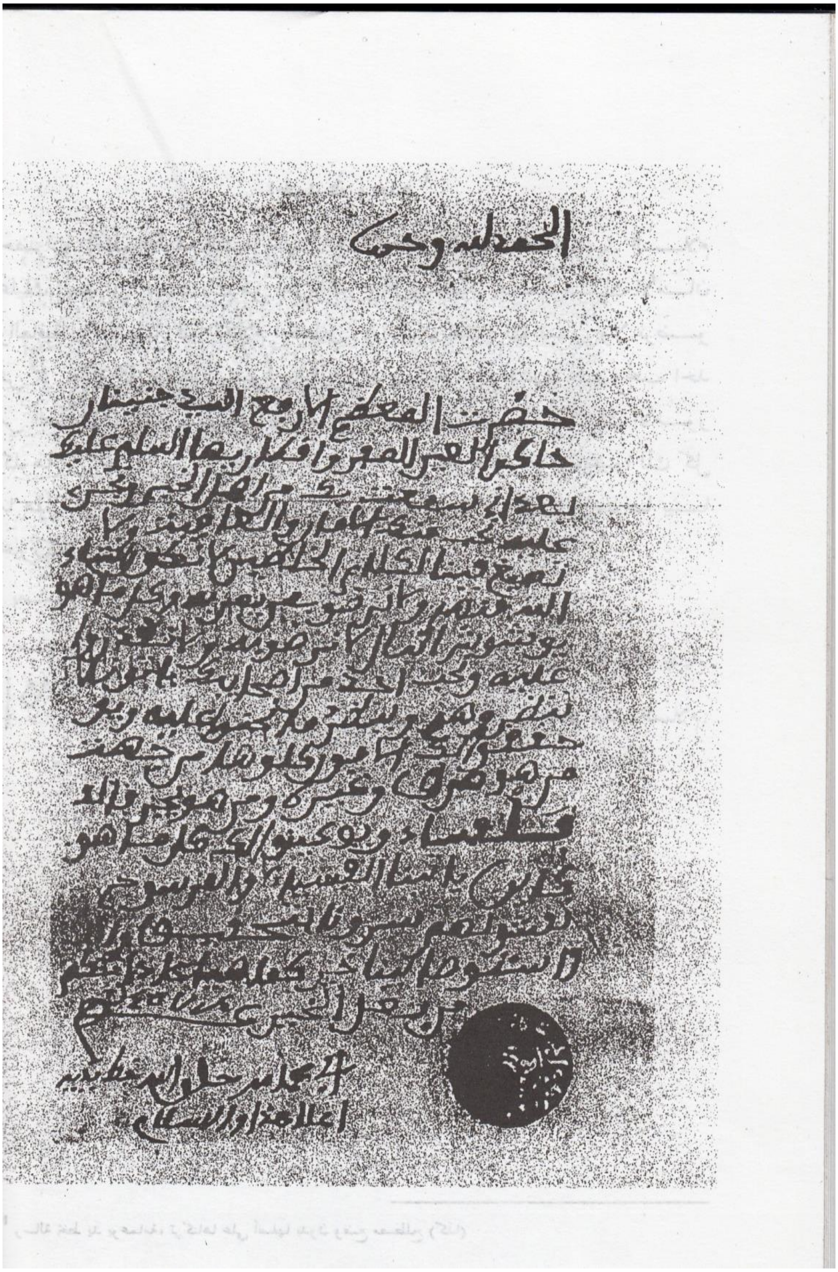

الحمد لله وحده

حضرة المعظم الارفع السيد جنينار
حاكم العين الصفرا وفقكم ربنا السلام عليكم
بعد ان سمعت بكم من اهل الخير وحكى
عليكم [illegible]
[illegible]

الملحق رقم 13: رسالة الشيخ بوعمامة إلى أعيان الشعانبة

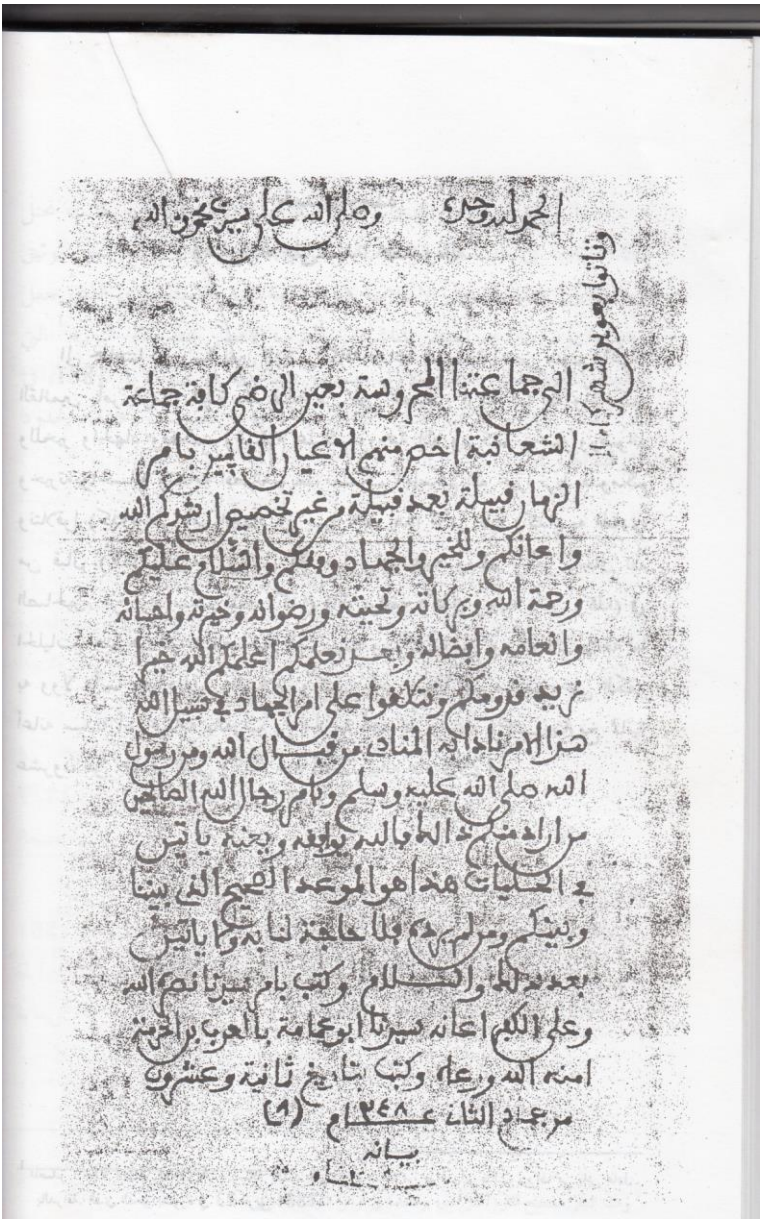

الملحق رقم 14: سلالة الشيخ مولاي الطيب

سلالة الشيخ مولاي الطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون

سلالة الشيخ مولاي الطيب

الشريف الوزاني شيخ الطريقة الطيبية للزاوية الوزانية ولد بمدينة وزان عام 1101هـ وتوفيها رحمه الله يوم الاحد 18 ربيع الثاني عام 1181هـ وبنيا هو 80 سنة وهو ابن الشيخ مولاي محمد الذي ولد في عام 1040هـ وتوفي في عام 1120هـ عن ناهز 80 سنة وهو ابن العلامة الصوفي مؤسس الزاوية الوزانية منذ أربعة قرون بوزان

الوالي الصالح والغوث المنيف مولانا عبد الله الشريف العلمي

ولد رحمه الله عام 1005هـ بتازروت قبيلة بني عروس شمال المغرب بجبل العلم وتوفي ليلة الخميس أو الجمعة 12 شعبان عام 1089هـ بزاويته وبنيا 84 سنة

وهو ابن مولاي ابراهيم (الثاني) العلمي الذي توفي عام 1017 وهو بن سيدي موسى (الثاني) ابن سيدي الحسن بن سيدي موسى (الاول) بن سيدي ابراهيم (الاول) ابن سيدي عمر بن سيدي احمد بن سيدي عبد الجبار بن سيدي يملح (المدعو ائليح وهو أخ مولاي عبد السلام بن مشيش) ابن سيدي مشيش العلمي بن سيدي ابا بكر بن سيدي علي (ملتزم) بن سيدي حرمة بن سيدي سليمان (المدعو سلام) ابن سيدي مروان بن سيدي علي (الاول المدعو حيضر) ابن سيدي محمد الأمير مولاي ادريس الأزهر بن الأمير مولاي ادريس الأكبر ابن سيدي عبد الله الكامل بن مولاي الحسن المثنى ابن مولاي الحسن السبط ابن الإمام علي كرم الله وجهه مولانا فاطمة الزهراء بنت سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

الملحق رقم 15: ذكر الطريقة الطيبية

ذكر الطريقة الطيبية

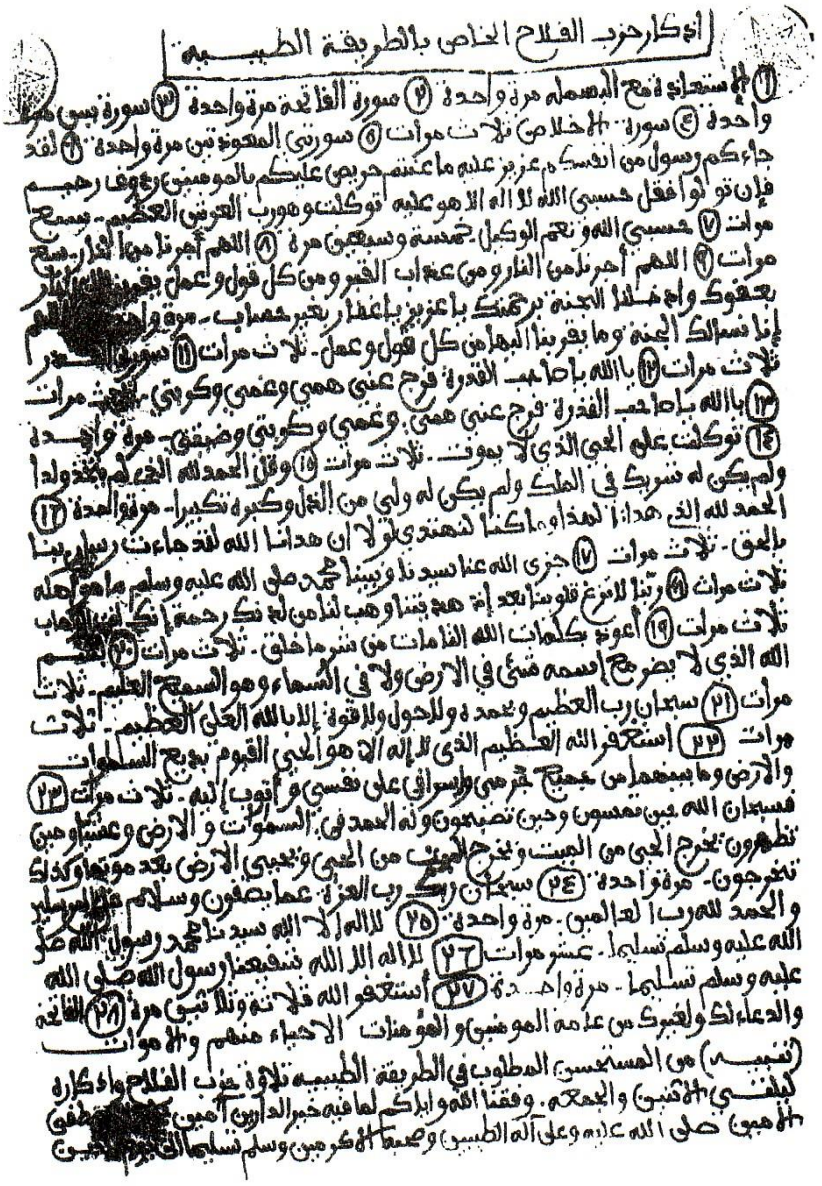

أذكار حزب الفلاح الخاص بالطريقة الطيبة

(١) أستعاذة مع البسملة مرة واحدة (٢) سورة الفاتحة مرة واحدة (٣) سورة يس مرة واحدة (٤) سورة الإخلاص ثلاث مرات (٥) سورتي المعوذتين مرة واحدة (٦) لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم - سبع مرات (٧) حسبي الله ونعم الوكيل خمسة وسبعين مرة (٨) اللهم أجرنا من النار - سبع مرات (٩) اللهم أجرنا من النار ومن عذاب القبر ومن كل قول وعمل يقرب [illegible] بعفوك وأدخلنا الجنة برحمتك يا عزيز يا غفار يغير حساب - مرة واحدة اللهم إنا نسألك الجنة وما يقربنا إليها من كل قول وعمل - ثلاث مرات (١١) سورة القدر ثلاث مرات (١٢) يا الله يا صاحب القدرة فرج عني همي وغمي وكربتي - ثلاث مرات (١٣) يا الله يا صاحب القدرة فرج عني همي وغمي وكربتي وضيقي - مرة واحدة (١٤) توكلت على الحي الذي لا يموت - ثلاث مرات (١٥) وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا - مرة واحدة (١٦) الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق - ثلاث مرات (١٧) جزى الله عنا سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم ما هو أهله ثلاث مرات (١٨) ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ثلاث مرات (١٩) أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق - ثلاث مرات (٢٠) بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم - ثلاث مرات (٢١) سبحان رب العظيم وبحمده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم - ثلاث مرات (٢٢) أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم بديع السماوات والأرض وما بينهما من جميع شر هي واسراني على نفسي وأتوب إليه - ثلاث مرات (٢٣) فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون - مرة واحدة (٢٤) سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين - مرة واحدة (٢٥) لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما - عشر مرات (٢٦) لا إله إلا الله شفيعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما - مرة واحدة (٢٧) أستغفر الله قلاته وتلاثين مرة (٢٨) الفاتحة والدعاء لك ولغيرك من علماء المؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات

(تنبيه) من المستحسن المطلوب في الطريقة الطيبة تلاوة حزب الفلاح وأذكاره ليلتي الاثنين والجمعة. وفقنا الله وإياكم لما فيه خير الدارين آمين [illegible] وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين وصحبه الأكرمين وسلم تسليما كثيرا آمين

قائمة المصادر والمراجع

- أرشيف الحكومة التونسية، صندوق 212، ملف 237، وثيقة رقم 3 و 4.
- أرشيف الحكومة التونسية، صندوق 219، ملف 237، وثيقة رقم 4.
- أرشيف الحكومة التونسية، صندوق 78، ملف 992، وثيقة رقم 22.
- السجل رقم: 501/3/196، المحفوظ بدار المحفوظات بطرابلس.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998.
- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية. بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1992.
- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990.
- أحمد الدجاني، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن 19. بيروت: دار لبنان، 1967.
- أحمد بوزيد قصيبة، ابن ناصر بن شهرة أحد أبطال ثورة 1871. مجلة الأصالة، العدد 6، السنة الأولى، جانفي 1972.
- أحمد بن عثمان حاكمي، الطريقة الشيخية في ميزان السنة، مطبعة مكاتب القدس، وجدة، 1996.
- أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847. الجزائر: المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983.

- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر. الجزائر: دار النشر والتوزيع، 1982.
- إسماعيل العربي، العلاقات الدبلوماسية في عهد الأمير عبد القادر. الجزائر: ديوان مطبوعات الجامعية، 1982.
- إسماعيل العربي، المقاومة العربية تحت لواء الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- أعمال الملتقى الوطني الأول والثاني حول دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية. منشورات وزارة المجاهدين. الجزائر 2007.
- أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1979.
- الأميرة بديعة الحسني، وما بدلوا تبديلا، تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير ودولته، دار الفكر، دمشق، ط1، 2002.
- الأميرة بديعة، فكر الأمير عبد القادر الجزائري، حقائق ووثائق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق، 2000.
- بن ساعد عائشة، البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر. رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2004.
- بن جبور محمد، الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الأمير عبد القادر. أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2012 ـ 2013.

- بوعلام بسايح، أعلام المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي بالسيف والقلم 1830-1954، منشورات وزارة المجاهدين، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2010.
- بلهاشمي بن بكار، كتاب مجموع الحسب والنسب والفضائل والتاريخ والأدب، مطبعة ابن خلدون، 13 الشارع الوطني، تلمسان، 1381هـ 1961م.
- التسولي علي بن عبد السلام، أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد. تحقيق عبد اللطيف أحمد الشيخ. بيروت: دار الغرب الإسلامين،1996.
- الحفناوي أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1982.
- خير الدين الزركلي، الأعلام. بيروت: دار العم للملايين، 2002.
- عبد القادر بن علي، الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية. دمشق: مطبعة دار الجزائر العربية، 1966.
- سعيدوني ناصر الدين، الأمير عبد القادر من خلال عصره. مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2000.
- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2004.
- صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت، 2002.

- طاهر جنان، مازونة عاصمة الظهرة ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري. مكتبة الرشاد، الجزائر، 2005م.
- عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2010.
- عبد الحميد زوزو، الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2010.
- عبد الحميد زوزو، محطات في تاريخ الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2010، ص161.
- عبد القادر خليفي، الطريقة الشيخية. منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر،2010.
- عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس. بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1982.
- عبد المجيد التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي (1831ـ1871) الدار التونسية للنشر، تونس، 1972.
- عبد القادر بن عيسى المستغانمي، مستغانم وأحوازها عبر العصور تاريخيا وثقافيا وفنيا. المطبعة العلاوية، مستغانم، 1996.
- علي الصلابي، الثمار الزكية للحركة السنوسية. الإسكندرية: دار الإيمان، 2003.
- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة 1985.

- الزاوي خديجة، لمحة تاريخية حول أولاد سيد الشيخ، مجلة عصور، عدد18-19، وهران، ديسمبر 2012.
- المزاري الآغا بن عودة، طلوع سعد السعود. تحقيق يحي بوعزيز.الجزائر:عالم المعرفة، 2009.
- محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر. بيروت: دار اليقظة العربية، 1964.
- محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة. دار الفكر، 1948.
- مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق محمد صغير بناني وآخرون، شركة دار الأمة الجزائر، 1988.
- مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى. الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983
- مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، تحقيق، يحي بوعزيز، عالم المعرفة، الجزائر، 2009.
- محمد بن عثمان الحشائشي، الرحلة الصحراوية. تقديم وتعليق محمد المرزوقي. تونس: الدار التونسية للنشر، 1988.
- محمد الطيب العلوي مظاهر المقاومة الجزائرية من عام 1830 حتى ثورة نوفمبر 1954، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ط2، الجزائر، 1985م

- محفوظ قداش، جزائر الجزائريين تاريخ الجزائر 1830-1954، منشورات ANEP، الجزائر، 2008.
- يحي بوعزيز، ثورات القرن التاسع عشر. الجوائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2009.
- Archives d'Outre-mer à Aix – en Provence – Serie H : 1 H 5. 2 H 32. 2 H 33. 2 H 34. 16 H 3. 16 H 4. 16 H 5. 16 H 6. 16 H 7. 16 H 8. 16 H 9. 16 H 10. 16 H 11. 16 H 31. 16 H 45. 17 H 21.
- August Warnier. L'Algérie devant l'empereur. Paris, 1865.
- Azan Paul. Conquete et Pacification de l'Algérie. Paris,1931.
- A. Coyne. Le Mzab. Revue Africaine, 1879.
- Bargès Jean-Joseph-Léandre. Aperçu historique sur l'église d'Afrique en général, et en particulier sur l'église épiscopale de Tlemcen. Paris, 1848.
- Beaussier. Notice Sommaire sur le Colonel Beaupretre. Revue Africaine, 1870.
- Bellemare Alexandre. Abdelkader, Sa Vie Politique et Militaire. Paris, 1863.

- Boulifa Ammar. Le Djurdjura à travers l'histoire: depuis l'Antiquité jusqu'à 1830: organisation et indépendance des Zouaoua. Alger 1925.
- C. Trumelet. Les Français dans le desert. Paris, 1885.
- C. Trumelet. Notes pour servir à L'histoire de L'insurrection dans le sud de la province d'Alger. Revue Africaine, 1877.
- Cambon Jules. Gouvernement de l'Algérie. Alger, 1918.
- C. Le Chatelier. Les Medaganat. Revue Africaine, 1886.
- C. Le Chatelier. Les Confréries musulmanes du Hedjaz, Paris, 1887.
- C. Noëllat. L'Algérie en 1882. Paris, 1882.
- Cour. A. Recherches sur l'Etat des Confréries Religieuses Musulmanes. Revue Africaine, 1921.
- C. De Margon. Insurrection de la Province de Constantine de 1870 à 1880. Paris, 1883.
- C. Richard. Etude sur l'insurrection du Dahra (1845-1846), Alger, 1846.
- De Neveu. Les Khouan, Paris, 1846.

- Depont (O) et Coppolani (X). Les confréries religieuses musulmanes. Alger, 1897.
- Duveyrier Henri. Exploration du Sahara. Paris, 1864.
- Duveyrier Henri. La confrérie musulmane de Sid-Mohammed ben Ali es-Senoussi et son domaine géographique. Société de Géographie de Paris, 1886
- D. Luciani. Un Souvenir de L'Insurrection de 1879. Revue Africaine, 1925.
- E. Daumas. La Grande Kabylie. Paris 1847.
- Faucon Narcisse. Le livre d'or de l'Algérie. Paris, 1889.
- Gautherot Gustave. La conquete d Alger 1830. Paris, 1929.
- G. Bourjade. Notes chronologiques pour servir à l'histoire de l'occupation française dans la région d'Aumale. Revue Africaine, 1888.
- H. Ismail. Les Musulmans de l'Afrique du Nord, Paris, 1906.
- Hanoteau A et Letourneux A. La Kabylie et les Coutumes kabyles Paris, 1893.
- H. Simon. Comment Bouchoucha raconta un jour son histoire. Bulletin de Liaison Saharienne. Alger, janvier, 1955.

- Henri Garrot. Histoire de l'Algérie. Alger, 1910.
- Julien Charles-André. Histoire de l'Algérie contemporaine, Paris, 1964.
- Joseph. Robin. Notes Historiques sur la Grande Kabylie (1830-1838). Revue Africaine, 1876.
- Joseph. Robin. Notes Historiques sur la Grande Kabylie (1838-1851). Revue Africaine, 1902.
- Joseph Robin. Histoire du Cherif Bou Barla. Revue Africaine, 1881.
- Joseph Robin. Histoire d'un Cherif de la Grande Kabylie. Revue Africaine, 1870.
- Joseph Robin. Notes et Documents concernant L'insurrection de 1856-1857 de la Grande Kabylie. Revue Africaine, 1899.
- J. Ladimir. Les Guerres d'Afrique, depuis la conquête d'Alger par les Français jusques et y compris l'expédition de Kabylie en 1858. Paris 1859.
- Jh. P.L. Bérard, Les deux villes de Tenes et Bou Maza, Challamel Aine Librairie, Paris,1864.

- L. Roches. Trente-deux ans à travers l'Islam (1832-1864). Paris, 1884-1885.
- Louis Rinn. Marabouts et Khouans. Alger, 1884.
- Louis Rinn. Histoire de L'insurrection de 1871 en Algérie. Alger, 1891.
- L. Charles Féraud. Notes historiques sur la province de Constantine. Revue Africaine, 1886.
- Louis Petit. Les confréries musulmanes . Paris, 1899.
- M. Charles Brosselard. Les Khouan, Alger, 1882.
- M. Belhamissi, Mazouna une petite ville une longue histoire, Sned: Alger, 1981.
- Napoléon Ney. Les Confréries musulmanes et leur rôle politique, Bruxelles, 1891.
- P. Bourde. A travers l'Algérie: souvenirs de l'excursion parlementaire (septembre-octobre 1879).Paris, 1880.
- Peyronnet Robert. Livre d'Or. Alger, 1930.
- Pélissier de Reynaud. Annales Algériennes. Paris 1854.
- P. Léon. Abd-el-Kader, nos soldats, nos généraux et la guerre d'Afrique. Paris 1866.

- Philippe. F. Etapes Sahariennes. Alger, 1880.
- Poujoulat Jean-Joseph-François. Voyage en Algérie : études africaines. Paris, 1868.
- Vignon Louis. La France en Algérie. Paris, 1893.
- Yver Georges. Correspondance du Maréchal Valée. Paris, 1954.
- Y. Loukil Mazouna ancienne capitale du Dahra Alger: imprimerie algérienne 1912.

الفهـــرس

المقدّمة..... 11

الطريقة السنوسية..... 21

مؤسس الطريقة..... 23

البعد الثوري لدى الطريقة السنوسية..... 31

ثورة الشريف محمد بن عبد الله (1842-1895)..... 36

ثورة الشريف بوشوشة (1864 - 1875) 47

الطريقة الرحمانية..... 65

مؤسسها وانتشارها..... 67

الرحمانية وثورات بلاد القبائل..... 71

تحالف الرحمانية مع الأمير عبد القادر..... 72

ثورة الشريف محمد الهاشمي (1845 - 1849)..... 86

حركة الحاج عمر (1843- 1857)..... 98

نشاط الرحمانية في الجنوب الجزائري..... 104

ثورة ابن ناصر بن شهرة (1851 - 1875)..... 104

ثورات الرحمانية في منطقة الأوراس..... 117

ثورة الصادق بن الحاج (1858 - 1859)..... 117

انتفاضة محمد بن جار الله عام 1879..... 123

الطريقة الشيخية..... 133

أسباب مقاومة أولاد سيدي الشيخ..... 137

المرحلة الأولى من الثورة..... 138

المرحلة الثانية من الثورة..... 140

مقاومة الشيخ بوعمامة..... 142

أسبابها .مراحلها .نتائجها..... 147

الطريقة الطيبية..... 159

ثورة بومعزة..... 165

الطريقة القادرية..... 173

تعريف الطريقة القادرية..... 176

ظهور الطريقة القادرية في الجزائر..... 177

ثورات الطريقة القادرية..... 182

ثورة محي الدين بن مصطفى بن المختار الحسني..... 186

ثورة الأمير عبد القادر..... 188

العقد والنقض بين الأمير والسلطات الفرنسية..... 196

رحلة الأمير إلى المغرب..... 214

الملاحق..... 223

قائمة المصادر والمراجع..... 247

الفهرس..... 258